تاريخ المصريين

٧٥

أهل الذمة في مصر

في العصر الفاطمي الأول

تأليف

د . سلام شافعي محمود





رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : مراد نسيم

أهل الذمة في مصر
في العصر الفاطمي الأول

تأليف
د . سلام شافعي محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

تقـــديم

احتل تاريخ مصر الاجتماعي في الفترة الأخيرة مركز الاهتمام الأول بين المؤرخين وطلبة الدراسات العليا في التاريخ ، ولم يقتصر ذلك على عصر دون عصر ، بل شمل جميع العصور · وقد ظهر في هذه السلسلة وحدها عدد كبير من الدراسات الاجتماعية على امتداد تاريخ مصر ، مثل : الأقباط في مصر في العصر العثماني ، والمجتمع الريفي في عصر محمد علي ، ومصر الاسلامية وأهل الذمة ، والمرأة في العصر الفاطمي ، وأهل الذمة في الاسلام ·

وها هو بين يدي القارىء الكريم كتاب جديد عن أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول · ألفه أستاذ جامعي متخصص هو الدكتور سلام شافعي محمود ، يتناول تاريخ النصارى واليهود في مصر في عصر لعبوا فيه دورا هاما في المجالات السياسـية والاقتصادية والاجتماعية ، وهو العصر الفاطمي الأول الذي امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨ ـ ٤٤٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١٠٥٥م) ·

فبسبب انتساب الفاطميين الى المذهب الشيعي وانتساب أهل مصر الى المذهب السني ، وبعد الخلفاء الفاطميون الأوائل أنفسهم في محيط عدائي دفعهم الى الاستعانة بالنصارى واليهود في الوظائف المالية والادارية ، فكان منهم الوزراء ، والكتاب ، ورؤساء الدواوين ، بل ارتبطوا مع بعض عائلاتهم برابطة المصاهرة · فعاش أهل الذمة ـ لذلك ـ في مصر في هذا العصر كطبقة متميزة تتمتع بمكانة اجتماعية عالية ذات ثراء ·

وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة

فى الوظائف العامة والحيـــاة العامة ، فتناول أداءهم الوظيفى ، واحتفالاتهم ، وكنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ، ودورهم فى النشاط الزراعى والصناعى ، وحياتهم فى القرى والمدن المصرية ، ولغتهم القبطيـــة ولهجاتها ، وأسـطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمى ٠

كما تناول علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية وأثرها على أهل الذمة ، والسفارات التى يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة ٠ وأفرد فصلا لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة ، والصلة بين الكنيسة القبطية فى مصر والكنيسة النوبية ، واختتم الكتاب بفصل فن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة ٠ ومدى تأثرها بموقف الخلفاء الفاطميين من الأقباط ايجابا وسلبا ٠

وقد استند الدكتور سلام شافعى محمود الى عدد كبير من أوثق المصـــادر التى أضاء بها ذلك العصر المتميز فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهو العصر الفاطمى الأول ٠

(مقدمة البحث)

عاش أهل الذمة من اليهود والنصارى منذ الفتح العربى لمصر سنة ٢١ هـ/٦٤٢ م مع المسلمين فى ظل سياسة التسامح الدينى • وعلى الرغم من انتشار الاسلام بين أهل البلاد ، وتعريب الدواوين ، ونزوح بعض القبـائل العربية الى مصر ، وسكنهم بالمدن والريف واختلاطهم بالمصريين على مدى الثلاثة قرون الأولى من الهجرة ، الا أن نصارى مصر ـ فى العصر الفاطمى الأول ٣٥٨ ـ ٤٤٧ هـ/٩٦٩ ـ ١٠٥٥ م كانوا ما يزالون يشكلون أقلية نشيطة كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان مصر • كما أن يهودى مصر ـ فى هذه الفترة ـ كانوا يقدرون ببضعة آلاف •

ولذلك كان اختيارنا لموضوع « أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول » انما يرجع الى أهمية الدور الذى لعبوه فى تاريخ مصر فى هذه الفترة فى كافة الميـادين السياسية والاقتصـادية والاجتماعية • فقد أسند الخلفاء الفاطميون الى أهل الذمة كثيرا من الوظائف العامة فى الدولة ، فكان منهم الوزراء ، والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتـاب ، كما عملوا فى الوظائف المـالية والادارية فى الدواوين ، اذ استعان بهم الخلفاء الفاطميون الأوائل لمهارتهم وخبرتهم فى تلك الوظائف ، ولأنهم وجدوا أنفسهم فى

محيط عدائى من أهل السنة ــ غالبية سكان مصر ــ بل لم يقتصر الأمر على الاستعانة بهم فى دواوين الدولة وانما ارتبطوا ببعض عائلاتهم عن طريق المصاهرة ٠

ولقد شارك الوزراء والوسطاء من أهل الذمة فى تنفيذ السياسة الداخلية والخارجية لمصر فى العصر الفاطمى الأول ، بل وأسهموا فى رسم هذه السياسات كما أدى استفحال نفوذ بعض الوزراء والوسطاء منهم وانحيازهم الى بنى ملتهم الى سيطرة موظفى الدولة من أهل الذمة على الدواوين الحكومية ، وبالتالى الى تذمر الرعايا المسلمين ، وتدخل الخلفاء لاعادة الأمور الى نصابها ، مجاراة للرأى العام الاسلامى ٠

وتحت مظلة التسامح الدينى قام أهل الذمة بدور هام فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وأسهموا بنصيب كبير فى النشاط الزراعى ، اذ كانوا يمتلكون الأراضى الزراعية والضياع الواسعة ، كما شاركوا فى النهضة الصناعية الكبرى التى شهدتها مصر فى ذلك العصر ، اذ كان أهل الذمة وبخاصة الأقباط هم عماد الصناعة ، وعلى أيديهم ازدهر النشاط الصناعى ، كما ظهر أثر الفن القبطى فى كثير من الصناعات والفنون التى برعوا فيها بدرجة تدعو الى الاعجاب والتقدير ٠ أما فى مجال التجارة الداخلية فقد قاموا بدور له أهميته ، كما أسهموا بدور نشيط فى مجال التجارة الخارجية التى انتعشت كثيرا فى العصر الفاطمى الأول ٠

وكان أهل الذمة فى مصر فى ذلك العصر بمثابة طبقة اجتماعية متميزة عاشت فى قرى ومدن مصر ، بل قد وجدت بعض القرى والمدن المصرية التى غلب على سكانها أهل الذمة وبخاصة الأقباط ، الذين انتشرت بينهم اللغة العربية وبخاصة بعد تعريب الدواوين ، وحرصهم على تعلمها ٠ كما كان كبار رجال الدولة من أهل الذمة فى العصر الفاطمى الأول يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، اذ

امتلكوا الثروات الطائلة والقصـــور الفخمة ، واشتهروا بالثراء ونشأت بين كثير منهم وقصور الخلافة علاقات طيبة وصلات وثيقة ، فمنحهم الخلفاء الفاطميون الألقاب وخلعوا عليهم الهدايا ، الا أن ترفعهم واستعلاءهم على المسلمين قد أدى الى استنكار المسلمين لهذه الأوضاع ٠

ولما كانت الدولة الفاطمية هي أول دولة مستقلة استقلالا تاما فى مصر فان الأمر تطلب البحث وتقصى الحقائق عن مدى التزام الفاطميين بالعهود التى سبق أن أعطاهـا الخلفاء المسلمون لأهل الذمة ، وبخاصة ما يسمى بالشروط العمرية ذلك أن خلفاء العصر الفاطمى الأول هيأوا لأهل الذمة فترة من التسامح الدينى فاقت كل ما سبقها من عهود ، فتساهلوا فى تطبيق هذه الشروط ٠ وان كان الحاكم بأمر الله ــ فى فترة من عهده ــ تشدد فى تطبيقها ، وفرض عدة قيود اجتماعية جديدة لدرجة أنها أدت الى هجرة الكثيرين منهم الى بلاد الروم والنوبة والحبشة وان كان قد عاد فى أواخر أيامه الى التخفيف من غلواء سياسته وعاد الى تسامحه معهم ٠

. . . .

وكانت الاحتفالات بأعياد أهل الذمة من أهم مظاهر الحيـاة الاجتماعية فى العصر الفاطمى الأول ، فقد شارك الخلفاء الفاطميون وعامة المسلمين فى الاحتفال فى كثير من هذه الأعياد ، وان كان بعض خلفاء العصر الفاطمى الأول فرضـــوا قيودا على بعض هذه الأعياد لأسباب اجتماعية ٠

واذا كان أهل الذمة قد استفادوا من قيام الدولة الفاطمية فى مصر ، فان ذلك يرجع الى سياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون ــ باستثناء فترة من عهد الحاكم بأمر الله ــ ، اذ كانت الصلات الطيبة هى سمة العلاقات بين الخلفاء الفاطميين ورؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة ، كما سمح الخلفاء الفاطميون

للنصــارى ببناء وتعمير واصــلاح الكنائس والأديرة ، بل أطلقوا الأموال للصرف على عمارتها واعادة بنائها .

واذا كانت كثير من دور العبادة لليهود والنصارى قد تعرضت للهدم والسلب والتخريب فى بعض الأحيان ، فلم تكن هذه سمة السياسة الدينية للخلفـــاء الفاطميين الأوائل ، بل كانت بمثابة قرارات استثنائيــة سرعان ما تعود بعدهــا السلطات الحاكمة الى التصريح باصــــلاح الكنائس وتعميرهــا بل والتصريح ببنائهــا من جديد ، وان كان ذلك يتنافى مع ما نصت عليه الشروط العمرية فى هذا الصدد .

كما تأثرت علاقات الدولة الفاطمية بالدول المسيحية بسياسة الفاطميين ازاء أهل الذمة ، كما أن أهل الذمة فى مصر بدورهم قد تأثروا بتدهور أو ازدهــار هذه العلاقات مع هــذه الدول ذلك أن الحروب التى نشبت بين الفاطميين والبيزنطيين أثرت على أحــوال نصارى مصر وبخاصة طائفة الروم الملكانية ، لذا تعرضت بعض المعاهدات والاتفاقات التى تمت بين الدولتين لأوضاع نصارى مصر وبخاصة فيما يتعلق بدور العبادة من كنائس وأديرة ، كما تولى بعض كبار الدولة من أهل الذمة رئاسة بعض السفارات الى بيزنطة .

وكان أيضا للعلاقات بين الدولة الفاطمية وبلاد النوبة والحبشة أثرها على أهل الذمة فى مصر ، وبخاصة الأقباط ، نظرا للصلات الوثيقة والروابط القوية بين الكنيسة المصرية وبين كل من كنيستى النوبة والحبشة . فكثيرا ما كان يستخدم ملــوك هاتين الدولتين نفوذهم فى قصر الخلافة لصالح بطاركة الكنيسة القبطية وأقباط مصر ، بل اننا نجد الحاكم بأمر الله يخفف من غلواء سياسته ازاء أهل الذمة وبخاصة الأقباط خوفا من أن يقوم ملكا النوبة والحبشة بالاســاءة الى المســلمين فى بلديهما ، كما نجد الخلفاء الفاطميين

يطلبون من بطاركة الكنيسة المصرية استخدام نفوذهم وارسال خطاب توصية كل عام لملكى النوبة والحبشة لصالح المسلمين هناك ٠

ومجمل القول أن هذا العصر شهد ازدهارا لدور أهل الذمة ونشاطهم فى المجتمع المصرى ، بحيث يمكن أن يعتبر العصر الفاطمى الأول بحق العصر الذهبى لأهل الذمة فى مصر ٠

وحتى تتضح أبعاد هذه الدراسة ، فقد قسمت هذا الكتاب الى أربعة أبواب على النحو التالى :

الباب الأول : وفيه تحدثت عن « أهل الذمة والوظائف العامة » ٠ والأسباب التى دفعت خلفاء العصر الفاطمى الأول الى تعيينهم فى مناصب الدولة العليا واستخدامهم فى الدواوين ٠ وموقف الخلفاء منهم عندما كان يستفحل أمرهم ويتعاظم نفوذهم ، ثم انتقلت الى الحديث عن الوزراء والوسطاء من اليهود والنصارى ودورهم فى السياسة الداخلية والخارجية لمصر فى ذلك العصر ، وعلاقتهم بقصور الخلافة ، وكيف أدى انحيازهم الى بنى ملتهم الى التنكيل بهم ٠

كما يتضمن هذا الباب اشراف أهل الذمة على الدواوين وسيطرتهم على الأداة الحكومية مع الاشارة الى الأطباء من أهل الذمة وعلاقتهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة وأثر تلك العلاقة على ذويهم ، ونختتم هذا الباب بتناول موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين ، ومظاهر الاحتجاج على تلك السياسة ونتائجها ٠

أما الباب الثانى : فيعنى بدراسة « أهل الذمة والحياة الاقتصادية » ومنه نبدأ الحديث عن النشاط الزراعى لأهل الذمة ، وعهد جوهر الى المصريين وموقف الدولة من امتلاك أهل الذمة للأراضى الزراعية ، مع الاشارة الى الأراضى الموقوفة على الكنائس والأديرة وتعرضها للمصادرات ٠ كما نتناول بالحديث أهم

الحاصلات الزراعية ، وتأثر الانتاج الزراعى لبعض المحاصيل بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لمصر فى ذلك العصر ، واذا كانت مصر قد شهدت نهضة صناعية كبرى فى العصر الفاطمى الأول فان الأقباط كانوا هم عماد الصناعة ولذلك يتناول هذا الباب دراسة عوامل ازدهار الصناعة وتقدمها ، وأهم الصناعات التى برعوا فيها ، وتأثر بعض هذه الصناعات والفنون بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لمصر فى عصر الخلفاء الفاطميين الأوائل • كما يتضمن هذا الباب دور أهل الذمة فى مجال التجارة الداخلية ، مع الاشارة الى الدور النشيط لأهل الذمة فى مجال التجارة الخارجية ، وبخاصة دور يهود مصر الذين اشتغلوا فى تجارة الشرق •

أما الباب الثالث : فيتناول « الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة » وحياتهم فى القرى والمدن المصرية وتطور اللغة القبطية ولهجاتها ، ثم أسباب اندثارها أمام اللغة العربية • كما يتضمن هذا الباب الحديث عن المكانة الاجتماعية لكبار رجال الدولة من أهل الذمة وامتيازاتهم وموقف الرعايا المسلمين من هذه الطبقة ـ ثم نتناول بشيء من التفصيل القيود الاجتماعية التى فرضت على أهل الذمة ، وأسباب تشدد الحاكم بأمر الله فى تطبيق ما يسمى بالشروط العمرية وزيادته عليها • كما نتعرض الى الحديث عن الحياة الدينية لأهل الذمة فنتحدث عن أعياد كل من النصارى واليهود ، مع التركيز بصفة خاصة على الأعياد التى شارك فيها الخلفاء الفاطميون والمسلمون ، والقيود التى فرضت على بعض هذه الأعياد وأسباب ذلك • كما يتضمن هذا الباب موقف الفاطميين من رجال الكنيسة والطوائف الدينية وسياستهم ازاء الكنائس والأديرة والكنائس اليهودية • مع الاشارة الى أسطورة تنصر الخليفة المعز ، وتعاطف الحاكم بأمر الله مع الرهبان • واستمرار سياسة اعادة بناء الكنائس فى عهد الخليفة الظاهر واهتزاز تلك السياسة

في فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى نهـاية العصر الفاطمى الأول ·

وفى الباب الرابع : تحدثت عن « علاقات الدولة الفاطميـة بالدول المسيحية وأثر ذلك على أهل الذمة » وعلى رأس هذه العلاقات تاتى العلاقات الفاطمية البيزنطية · وقد أوضحت أثرها على أهل الذمة فى مصر ، وأشرت الى السفارات التى تولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة ، ونتائج هذه السفارات وكذلك الى المعاهدات التى عقدت بين الدولتين وما تضمنته من نصوص تتعلق بحماية أهل الذمة وكنائسهم وأديرتهم ومقدساتهم فى مصر والشام ·

كما يتضمن هذا الباب العلاقات بين الدولة الفاطمية وبـلاد النوبة ، فتحدثت عن سفارة عبد الله بن سليم الأسوانى الى النوبة ، واقرار معاهدة البقط والصلات الطيبة بين مصر والنوبة فى عهد العزيز بالله ، وعن موقف ملك النوبة من ثورة أبى ركوة فى خلافة الحاكم بأمر الله ، ومن سياسته المتشددة ازاء الأقباط فى مصر · ثم ما كان من عودة العلاقات الطيبة بين البلدين فى عهد الظاهر والعدول عنها فى عهد المستنصر بالله أثناء وزارة اليازورى · كما أوضحت الصلة بين الكنيسة القبطية فى مصر والكنيسة النوبية · وأخيرا ختمت هذا الباب بالحديث عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة ، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة فى العصر الفاطمى الأول ·

د· سلام شافعى محمود

عرض لأهم المصـــادر

اعتمدت فى هذا الكتاب على عدد من مصادر التاريخ الاسـلامى المخطوطة والمطبوعة • كما اعتمدت أيضا على عدد كبير من المراجع الحديثة • وتمتاز المصادر التى اعتمدت عليها بأن بعضها قد ألفه رجال عاصروا الفاطميين ، ومن ثم فقد أمدتنا بكثير من الحقائق عن العصر الذى عاشوا فيه • وسأتناول فى هذا العرض الموجز أهم المصادر والمراجع التى تتصل اتصالا مباشرا بموضوع الكتاب والتى برزت أهميتها من خلال هذه الدراسة ، ويأتى فى مقدمتها المصادر الخطية وفيما يلى عرض لكل منها :

١ ــ **كتاب « سير البيعة المقدسة »** وهو ذيل لكتاب « سير الآباء البطاركة » لساويرس بن المقفع أسقف الاشمونيين الذى عاش فى أيام المعز لدين الله ، وعمل موظفا بالدواوين الفاطمية • والذى تناول فى مؤلفه تاريخ بطاركة الاسكندرية ووقف فى كتابته حتى أوائل الخلافة الفاطمية فى مصر • ولكن هـذا الكتـاب استكملت كتابته باسم « سير البيعة المقدسة » أو باسم « ذيل سـير الآباء البطاركة » ، واشترك فى كتابته مؤلفون قبط من الأحبار المتعاقبين • ومنهم قس معاصر يدعى الأنبا ميخائيل كان شماسا ثم قسيسا ثم اسقفا على تنيس ، فكتب سيرة الآباء البطاركة فى خلافة كل من

العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر لاعزاز دين الله · وبعد ذلك تولى موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى كتابة سير البطاركة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، ويعتبر هذا المخطوط واحدا من أهم المصادر التى اعتمدت عليها ، اذ يلقى الضوء ساطعا على كثير من الأمور التى تتعلق بأهل الذمة كطبقة اجتماعية عاشت فى المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى الأول ، ودورهم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية وسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء الكنيسة ورجالها ، والمراسيم التى أصدرها الحاكم بأمر الله والتى ضيقت الخناق عليهم · كما تناول المصدر علاقات الفاطميين ببلاد النوبة والحبشة وأثر ذلك على المسيحيين ·

٢ ـ كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » للقضاعى · وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة الشافعى المذهب ، الذى ولد فى مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، والذى توفى بها أيضا سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م · والكتاب موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء الى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٢ م ، ولعله مختصر لمؤلف أكبر ، لم يصلنا بعد · ولقد كان القضاعى من فحول الفقه والحديث والتاريخ وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى أيام المستنصر بالله الفاطمى · وقد أرسله هذا الخليفة فى سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م سفيرا ليحاول عقد صلح بين تيودورا امبراطورة الروم وبين مصر · ومن هنا تأتى أهمية المصدر ، اذ أن مؤلفه كان معاصرا للفاطميين ، ومن كبار رجال دولتهم ، وبالتالى فان المصدر يزخر بكثير من حقائق عصره وبخاصة الأحداث التاريخية فى خلافة العزيز بالله والحاكم بأمر الله · كما يحتوى مضمون سجلات الحاكم بأمر الله التى أصدرها لأهل الذمة · مما يوضح لنا جانبا كبيرا من دور أهل الذمة فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وموقف الخلفاء من موظفيهم الذميين ·

٣ ـ كتاب « **مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان** » لمؤلفه سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م · ويهمنا فى هذا المخطوط الجزءين الحادى عشر والثانى عشر · اذ تناول المؤلف فيهما كثيرا من التفاصيل عن كبار موظفى الدولة من أهل الذمة ، ودورهم فى السياسة الداخلية والخارجية ، وموقف الخلفاء الفاطميين منهم · كما أمدنا بكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل الذمة · علاوة على تناوله لموضوع العلاقات الفاطمية البيزنطية بشىء من التفصيل ·

٤ ـ كتاب « **زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة** » لمؤلفه بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ م ، ويتناول المؤلف فى الجزء السادس من هذا المصدر ازدياد نفوذ أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، ومراسيم الحاكم بأمر الله لأهل الذمة وأثرها على النشاط الزراعى والصناعى والتجارى ، كما أمدنا بالكثير من المعلومات عن سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة وكذلك عن أثر العلاقات بين الدولة الفاطمية وبيزنطة على نصارى مصر ·

٥ ـ كتاب « **نهاية الأرب فى فنون الأدب** » للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣٢ م ، ويهمنا من هذا المصدر ، الذى يعتبر من أعظم المصادر الاسلامية التى تناولت العصر الفاطمى ـ الجزء السادس والعشرين · اذ ألقى الكاتب فى هذا الجزء الضوء على هؤلاء الموظفين من أهل الذمة الذين تولوا أرقى مناصب الدولة ، وعلى موقف الخلفاء الفاطميين منهم ، ونظرة عامة المسلمين اليهم · بل انه انفرد ببعض الحقائق عن سياسة موظفى الدولة من أهل الذمة وسياسة الفاطميين ازاء الكنائس والأديرة ·· كما تناول كثيرا من التفاصيل عن القيود التى فرضت على أهل الذمة ، وكذلك العلاقات بين الفاطميين وبلاد الروم ·

٦ ـ **كتاب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمـان »** للعينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م ، وقد تناول الجزء التاسع عشر من هذا المصدر الهام · ذكر كثير من موظفى الدولة من أهل الذمة · والقيود التى فرضت عليهم ، وسياســة الفاطميين ازاء الكنــائس والأديرة · كما تناول المؤلف العلاقات الفاطمية البيزنطية وأثرها على أهل الذمة فى دولة الفاطميين ·

وأما المصادر المطبوعة فيأتى على رأسها بالنسبة لموضوع البحث :

أولا : كتب الرحلات :

١ ـ كتاب « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للمقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م · الذى زار مصر فى أوائل العصر الفاطمى · ويمتاز المصدر بدقة المعلومات التى أمدنا بها ، اذ كان مؤلفه يتحرى الدقة فيما يكتب · لذا فان حديثه عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى جاء فى غاية الأهمية ، وبالذات تلك الشذرات التى تناولت دور أهل الذمة فى تلك الأنشطة المختلفة · كما أن المصدر يحتوى على ذكر المراكز الصناعية فى مصر كتنيس ودمياط وشطا ودبيق وغيرها من المدن الصناعية الكبرى · حيث يغلب عليها السكان من القبط · مع اشارته الى المراكز التجارية وطرق جباية الضرائب والمكوس ، واعجابه باستقرار الأمن والهدوء فى أرجاء الدولة ·

٢ ـ **كتاب « صورة الأرض »** لابن حوقل ، وهو الرحالة الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى / النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى وقد أمدنا ابن حوقل فى مؤلفه هذا بمعلومات وفيرة عن الشعوب التى زارها ومنها مصر · فذكر كثيرا من القرى والمدن المصرية وسكانها ، كما القى بعض الضوء على النشاط الزراعى والصناعى وبخاصة فى تنيس ودمياط ، والضرائب الباهظة التى فرضها ابن كلسى على صناع هاتين المدينتين · كما ذكر المدن التجارية

بمصر كالاسكندرية والفسطاط · وكذلك الطرق التجارية ، اذ كان المؤلف واحدا من هؤلاء التجار الرحالة المثقفين ·

ـ كتاب « سفر نامة » لناصرى خسرو · ذلك الرحالة الفارس الذى زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ومنها مصر : وكانت زيارته لهـا فيما بين سـنة ٤٣٩ـ٤٤١ هـ/١٠٤٧ ـ ١٠٥٠ م فى خـلافة المستنصر بالله ، وقد أتاحت له مدة اقامته بمصر التعرف على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر فى عهد هذا الخليفة · كما أعجب برخائها ، واستقرار الأمن فيها ، واعتقد ان ذلك انما يرجع الى الدولة الفاطمية والى مذهبها الاسماعيلى ، ولذلك أصبح من اشد دعاة الاسماعيلية المتعصبين للخلفاء الفاطميين · واعتنى ناصرى خسرو بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق ، والمراكز الصناعية والمدن التجارية ، وعوامل ازدهارها فى مصر فى هذا العصر ، كما ألقى بعض الضوء على نشاط أهل الذمة فى ميادين الصناعة والتجارة ، وازدياد نفوذهم فى عهد المستنصر بالله ، بالاضافة الى ثراء كثير منهم كطبقة اجتماعية لها أهميتها فى المجتمع المصرى ، كما أشار الى علاقة الفاطميين بالروم ، وتسامح الفاطميين مع أهل الذمة ··

ـ **كتاب « رحلة بنيامين »** للرحالة بنيامين بن يونه التطيلى البيارى الأندلسى الذى طاف بكثير من بلاد العالم الاسـلامى ومنها مصر ، واستغرقت رحلته المدة من سنة ٥٦١ الى ٥٦٩ هـ/١١٦٥ ـ ١١٧٣ م · وعلى الرغم من أن زيارته لمصر كانت فى بداية عهد صلاح الدين الأيوبى ، الا أنها أمدتنا بمعلومات هامة عن التعداد التقريبى ليهود مصر فى ذلك الوقت · وأوقفتنا على بعض أحوالهم الاجتماعية والدينية · كما ألقى الضوء على النشاط التجارى فى المدن التجارية الواقعة على البحرين المتوسط والأحمر ، حيث كانت توجد فى كثير

منها جاليات يهودية · اشتغل أفرادها فى تجارة الشرق ، وأسهموا فى النشاط التجارى بين أوربا والشرق ·

ـ **كتاب « رحلة ابن جبير »** الذى رحل من الأندلس الى مصر ثلاث مرات · وتوفى فى الاسكندرية سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م أثناء رحلته الأخيرة · وقدم لنا ابن جبير قبسا من المعلومات عن المدن التجارية فى مصر ، وطرق التجارة بها ، وكذلك عن بعض المدن الصناعية التى يكثر فيها السكان من أهل الذمة · كما ألقى الضوء على كثير من نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى ذلك العصر ·

ثانيا : المصادر التاريخية :

ويأتى فى مقدمتها المصادر النصرانية ومنها :

١ ـ **كتاب « تاريخ » أو « صلة تاريخ أوتيخا »** لمؤلفه النصرانى يحيى بن سعيد الأنطاكى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م · ويعتبر هذا المصدر من أهم المصادر التى اعتمدت عليها فى هذا البحث · اذ أن مؤلفه المعاصر للخلفاء الفاطميين الأوائل ، تناول تاريخ الأقباط وكنيستهم باستفاضة ، ووقف عند سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م · وأمدنا بمادة تاريخية غزيرة خاصة فيما يتعلق بأحوال النصارى فى دولة الفاطميين أيام الخليفة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، والقى الضوء على كبار موظفى الدولة من اليهود والنصارى ، وسياسة التسامح التى سار عليها كل من الخليفتين تجاه أهل الذمة بوجه عام ، هذا الى جانب المراسيم والسجلات والمنشورات التى منحها الحاكم بأمر الله عند عودته الى سياسة التسامح الدينى ازاء أهل الذمة ، ومنها نص سجله لرهبان دير القصير ، ومنشوره لنقفور بطريرك بيت المقدس ، ومرسوم العفو الشامل الذى منحه لنصارى مصر ، وكلها صدرت قبيل اختفاء الحاكم بأمر الله فى شهر شوال سنة ٤١١ هـ · كما ألقى المصدر الضوء ساطعا على كثير

من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية لأهل الذمة ، وعلاقة الفاطميين بالروم ، وأثر ذلك على المسيحيين ·

٢ ـ كتاب « **كنائس وأديرة مصر** » المعروف « بتاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى » المتوفى سنة ٦٠٥ ـ ٦٠٦ هـ/١٢٠٨ م · وعندما زار أبو صالح الأرمنى مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية وشاهد أديرتها وكنائسها ، كتب سجلا لهذه الكنائس والأديرة · وألقى الضوء على سياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة ، وموقفهم من بناء وتعمير الكنائس والأديرة ، كما أمدنا ببعض المعلومات عن النشاط الزراعى والصناعى والتجارى لأهل الذمة وبخاصة رهبان الأديرة · علاوة على أنه تناول علاقة مصر الفاطمية ببلاد النوبة المسيحية ·

٣ ـ كتاب « **تاريخ ابن الراهب** » لأبى شاكر بطرس بن أبى الكرم بن المهدى المعروف بابن الراهب · الذى رسم شماسا فى دير المعلقة بفسطاط مصر سنة ٦٦٩ هـ · وقد تناول المؤلف باسهاب سياسة المعز لدين الله ازاء النصارى ، وموقفه من رجال الكنيسة ، ورؤساء اليهود ، وأمدنا بمعلومات وفيرة عن سياسة التسامح الدينى فى عهد العزيز بالله ، كما تناول بالحديث بعض موظفى الدولة من أهل الذمة ، وموقف الخليفة الحاكم بأمر الله من نصارى مصر بوجه عام ، والقيود التى فرضها عليهم ·

٤ ـ كتاب « **تاريخ مختصر الدول** » للأب غريغوريوس أبى الفرج المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م) الذى يتعرض فيه لأحوال الدول ، بما فيها الدولة الفاطمية ، وقد استمد الباحث منه كثيرا من الحقائق حول علاقة الخلفاء الفاطميين الأوائل بكبار موظفى دولتهم من أهل الذمة ، ووقف على أبعاد نفوذهم ومكانتهم فى قصر الخلافة · كما تناول سياسة التسامح الدينى ازاء أهل الذمة فى عهد العزيز بالله الفاطمى ·

أما المصادر الاسلامية المطبوعة التى اعتمدت عليها فى هذا البحث فيأتى على رأسها :

١ ـ **كتاب** « **ذيل تاريخ دمشق** » لأبى يعلى حمزة بن القلانسى المتوفى فى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م · وفيه قدم المؤلف عرضا شائقا وهاما لسياسة الخلفاء الفاطميين فى بلاد الشام وعلاقتهم بالروم وأثر هذه السياسة على أهل الذمة فى مصر ، كما أنه تناول دور كبار موظفى الدولة من أهل الذمة فى تنفيذ سياسة الدولة داخليا وخارجيا وموقف الخلفاء من هؤلاء الموظفين ، علاوة على تناوله لسياسة الخلفاء الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة ·

٢ ـ **كتاب** « **أخبار مصر** » لابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م · ويعتبر واحدا من أغنى المصادر الاسلامية التى تناولت تاريخ الفاطميين فى مصر ، ويحتوى على كثير من أخبار الوزراء والوسطاء وكبار موظفى دولتهم من أهل الذمة · ونظرة المسلمين الى هؤلاء الموظفين الذين سيطروا على دواوين الحكومة · كما تناول المصدر علاقات مصر ببيزنطة ، وأثر تلك العلاقات على أهل الذمة فى الدولة الفاطمية ·

٣ ـ **وعندما نأتى الى مؤلفات المقريزى (٨٤٥ هـ/١٤٤٢م)** ، فان الباحث يقف على مادة غزيرة عن مصر فى عصر الفاطميين ، ربما لا يرد ذكرها فى كثير من المصادر · ففى مؤلفه « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » أخبار نادرة عن أهل الذمة فى مصر · ودورهم فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والسياسة الدينية للفاطميين ازاءهم · كما يتعرض الكتاب لكثير من التفاصيل عن علاقة كبار رجال الدولة الذميين بقصور الخلافة ، والقيود التى فرضت عليهم من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، وأمدنا أيضا بمعلومات وفيرة عن العلاقات بين الفاطميين وبلاد الروم والنوبة والحبشة ، وأثر هذه العلاقات على المسيحيين فى مصر ·

أما مؤلفه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » فهو سجل شامل لجغرافية مصر وأحوالها الزراعية والصناعية والمالية

والاذارية ، ومنها استقى الباحث دور أهل الذمة ونشاطهم فى كل مجالات الحياة فى المجتمع المصرى · كما تناول المقريزى فى هذا الكتاب ذكر طوائف أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وأعيادهم ومواسمهم ، ومظاهر الاحتفال بها ، علاوة على التفاصيل الكثيرة عن كنائس وأديرة النصارى ، وكنائس اليهود ، وأحيائهم ·

٤ ـ **أما كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الانشا »** للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ/١٤١٨ م ، وكتاب « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وكتاب « تتمة المختصر فى أخبار البشر » لابن الوردى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ /١٣٥٨ م · فقد أفادتنا فى دراستنا لطوائف أهل الذمة وأعيادهم ومواسمهم ·

وبالاضافة الى هذه المصادر الأصلية ، الخطية منها والمطبوعة ، والمسيحية منها والاسلامية ، فقد اعتمدت على كثير من المراجع الحديثة التى تناولت تاريخ مصر فى العصر الفاطمى ، ويجد القارىء ثبتا بهذه المراجع فى نهاية هذا البحث ·

الباب الأول

أهل الذمة والوظائف العامة

سياسة الخلفاء الفاطميين

ازاء الموظفين من أهل الذمة

استخدم الفاطميون منذ مجيئهم الى مصر أهل الذمة فى ادارة شئون البلاد ، واكتظت دواوين الحكومة فى العصر الفاطمى الأول بالموظفين من اليهود والنصارى الذين شغلوا وظائف الدولة العليا ، فكان منهم الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين ، والكتاب ، وتغلغل الموظفون من أهل الذمة ـ وبخاصة الأقباط فى كافة الدواوين المالية والادارية . وقد حرص الخلفاء الفاطميون على الاستعانة بهم لمهارتهم فى تلك الوظائف ، اذ كانوا أكثر معرفة وخبرة بجبـاية الخراج والجزية والضرائب وكل ما يتعلق بالأموال ، كما كان معظم أطباء قصور الخلافة من أهل الذمة لبراعتهم فى علوم الطب وتركيب الدواء لقد كان انتقال الخلافة فى مصر الى الفاطميين فى صـــالح أهل الذمة ، اذ أنعم الفاطميون على الموظفين من أهل الذمة وأغدقوا عليهم للحاجة الى خبرتهم فى ادارة الدواوين الحكومية كما هيأ الخلفاء الفاطميون لأهل الذمة فترة من التسامح الدينى فاقت كل ما سبقها من عهود ، وكان تسامح الفاطميين مع أهل الذمة من أهم العوامل التى ساعدتهم على تبوء أرقى وظائف الدولة والسيطرة على الدواوين فى العصر الفاطمى الأول .

ولا يرجع هذا الموقف من جانب الخلفاء الفاطميين ازاء أهل الذمة الى سياسة التسامح الدينى ، أو الى صلة المصاهرة معهم فحسب ـ كما فى حالة العزيز بالله الفاطمى ـ ، أو الى حاجة الدولة الى خبرة أهل الذمة وعلمهم ، وانما يرجع ذلك فى المقام الأول الى أن الفاطميين وجدوا أنفسهم فى محيط عدائى من أهل السنة وهم الأغلبية الكبرى من المصريين ، ولذلك لم يكن هناك مناص من أن يعتمدوا على أهل الذمة الذين كانوا يشكلون أقلية نشيطة تقدر بحوالى ثلث الشعب المصرى . الا أنهم بوصفهم خلفاء للمسلمين كان عليهم أن يجاروا الرأى العام الاسلامى وأن يعملوا ـ كما فعل الحاكم بأمر الله ـ على كبح جماح أهل الذمة كلما استفحل أمرهم وكلما أصبحوا يشكلون خطرا على مصالح الرعايا المسلمين ، هذا ومن جهة أخرى فقد تفانى البعض من أهل الذمة فى خدمة الخلفاء الفاطميين بصورة تدعو الى الاعجاب والتقدير .

وقد أصدر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بمجرد وصوله الى القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ/ يونية سنة ٩٧٣ م واتخاذها مقرا لخلافته ، عفوا شاملا عن الذين كان قد اعتقلهم جوهر وخلى سبيلهم (١) . ويروى مؤلف « سير الآباء البطاركة » كثيرا من المواقف الحميدة التى تدل على تسامح المعز مع النصارى ، وحسن علاقته باليهود ، وصداقته لكبار رجال الدولة من أهل الذمة الذين كانوا يشكلون غالبية موظفى الدواوين (٢) ، فقد عهد المعز الى رجل الدولة البارز يعقوب بن كلس اليهودى الأصل ، وعسلوج بن الحسن فى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ باذازة كافة شئون مصر

---

(١) الانطاكى : تاريخ ، أو صلة كتاب أوتيخا ، المسمى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٩ م ، ص ١٣٩ .

(٢) الأنبا ميخائيل : ذيل سير الآباء البطاركة ، الجزء الثالث ، مخطوط بدار الكتب برقم ٦٤٣٤ ع ، ورقة ٤١ .

المالية (٣) ، وهما اللذان وضعا النظام المالى الجديد الذى يتفق وسياسة الفاطميين المذهبية (٤) ، كما اختص ابن كلس بديوان الخليفة المعز (٥) ، فأصبح وهو الرجل الحديث العهد بالاســلام أكثر المقربين الى قصر الخلافة ٠

كما اتخذ المعز منهم أطباء الخاص وقربهم اليه ، فقد كان موسى بن العازار الاسرائيلى الطبيب ، وابنه اسحق بن موسى ، وأخوه اسماعيل بن موسى والابن يعقوب بن اسحق من أطباء الخاص بقصر المعز ، وعندما ألحقهم المعز بخدمته لم يشترط عليهم اعتناق الاسلام ، ويذكر ابن أبى أصيبعة أن المعز قد حزن حزنا شديدا لوفاة اسحق بن موسى الطبيب فى صفر سنة ٣٦٣ هـ لمنزلته وحسن كفايته (٦) ٠

وهكذا كان الموظفون من أهل الذمة فى خلافة المعز يلقون التقدير والتكريم كما شملهم برعايته وعطفه وتسامحه ٠

فاذا ما انتقلنا الى خلافة العزيز بالله ٣٦٥ هـ ــ ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ ــ ٩٩٦ م نرى مبالغة العزيز فى اظهار عطفه على أهل الذمة وتسامحه معهم وبخاصة النصارى وفى استخدامهم فى وظائف الدولة العليا ٠ فكان يعقوب بن كلس ، اليهودى الأصل ، أول وزراء الدولة الفاطمية فى مصر وأعظمهم شأنا ٠ تفانى فى خدمة الفاطميين ، وقام بعدة اصـــلاحات ادارية ومالية هامة وأسهم بدور كبير فى نشر

---

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ جـ ٢ ، ص ٢٦٨

(٤) حسن ابراهيم : المعز لدين الله الفاطمى ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٧٣ ٠

(٥) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤ ٠

(٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق د٠ نزار رضا بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٤٥ ٠

المذهب الشيعى وتنشيط الحركة العلميـة (٧) ، وكان له دوره البارز فى رسم السياسة الخارجية للدولة الفاطمية ابان فترة وزارته ، فحظى عند العزيز بالمنزلة السامية والدرجة الرفيعة ٠ وليس أدل على حسن علاقته بالخليفة العزيز بالله من هذا المشهد الرائع ، عندما مرض ابن كلس مرضه الأخير ، وزاره العزيز وقال له : « يا يعقوب ٠ وددت لو تبـاع فأبتاعك بملكى ، أو تفتدى فأفتديك ، فهل من حاجة توصى بها ؟ » ٠ فبكى الوزير وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه وقال له : « أما فيما يخصنى فلا ، فانك أرعى لحقى من أن أسترعيك ، وأرأف بمخلفى من أن أوصيك ولكنى أقول لك فيما يتعلق بدولتك : سـالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولا تبق على المفرج بن دغفل ابن الجراح متى أمكنت فيه الفرصة » (٨) ٠

وكان ابن كلس مخلصا لصاحبه على حد تعبير أبى شـجاع « ولم يشغله ما كان فيه من فراق دنياه عن نصح صاحبه » (٩) ٠

ومع أن العزيز بالله شمل أهل الذمة بالرعاية الكاملة فانه اضطر فى بعض الأحيان أن يفرض نوعا من الرقابة على كبار موظفى الدولة منهم ، وبخاصة فى الفترة التى تولى فيها الوساطة عيسى ابن نسطورس النصرانى ، الذى انحاز الى بنى ملته من نصـارى مصر ، والتى تولى فيها منشا بن ابراهيم اليهودى فى الشام ، اذ سلك مسلك عيسى بن نسطورس فى ظلم المسلمين والمبالغة فى فرض الضرائب عليهم ٠

---

(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ ٠

(٨) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، طبعة مصر ١٩١٦ م ، ص ١٨٦ ٠

(٩) أبو شجاع : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

وتحت تأثير الرأى العام الاسلامى ، والسخط الذى عم المسلمين واحتجاجهم على سياسة الموظفين من أهل الذمة ، وعلى ظاهرة تنصير الدواوين فى مصر وتهويدها فى الشام ، تدخل العزيز بالله لاعادة الأمور الى نصابها حفاظا على سلطان الخلافة وهيبتها أمام الجماهير ، فأصدر الأمر بعزلهما ، ومصادرة أموالهما وممتلكاتهما ٠ ولما أعاد العزيز بالله عيسى بن نسطورس الى منصب الوساطة بناء على تدخل أخته ست الملك ، اشترط عليه أن يعين المسلمين فى دواوين الحكومة (١٠) ٠

وبلغ كثير من الأطباء الذميين منزلة كبيرة عند الخليفة العزيز بالله ٠ وفى رسالته الى منصور بن مقشر طبيب قصر الخلافة ما يلقى الضوء على مكانة هؤلاء الأطباء الذميين عند الخلفاء ٠ ففى سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م مرض ابن مقشر ، وتأخر العزيز بالله عن زيارته لمرض أصابه ، فلما تماثل للشفاء كتب بخطه الى طبيبه هذه الرسالة « بسم الله الرحمن الرحيم ٠ طبيبنا : سلمه الله ٠ سلم الله الطبيب ، وأتم النعمة عليه ، وصلت الينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطبيب وبرءه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقناه من الصحة فى جسمنا ، قسم الله عليك النعمة ، وكمل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا حاسدا ، ورد كيد من يريد الكيد فى نحره ، وابتلاه بما لا طاقة له بعد الكفاية فيك ، واقالتك من العثرة ، ورجوعك الى أفضل ما عودتك من صحة الجسم وطيبة النفس ، وخفض العيش بحوله وقوته ، والسلام عليك وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبى وآله وسلم تسليما (١١) ٠

---

(١٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٣٣ ٠

(ــ) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوط بدار الكتب الجزء الحادى عشر ، برقم ٥٥١ تاريخ ، ورقة ١٥٤ ٠

(١١) القفطى : تاريخ الحكماء ، طبعة ليبزج ١٩٠٣ م ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ٠

والحقيقة أن نفوذ النصارى واليهود بلغ الذروة فى مصر فى خلافة العزيز بالله · فقد استولى الوزراء والوسطاء ، ورؤساء الدواوين ، والكتاب الذميون على معظم وظائف الدولة وأعمالها ، واستأثروا بمعظم السلطة والنفوذ نتيجة لهذا التسامح المغدق (١٢)·

وهنا علينا أن نتساءل ، لماذا كان هذا التسامح المغدق ازاء أهل الذمة ؟

لقد اشتهر العزيز بالله بأنه كان جميل السيرة ، حسن السياسة ، شديد الاهتمام بمصالح الرعية (١٣) · وبشهادة مؤرخ نصرانى « كان العزيز يحب العفو ويستعمله » (١٤) · كما عرف بعطفه الشديد على أهل الذمة (١٥) ·

وفضلا عن ذلك ، فقد كان للنصارى بوجه خاص لدى الخليفة العزيز بالله نصير كبير وسند قوى ، كان يسارع الى نجدتهم عندما تطالب الرعية بمحاسبتهم على مظالمهم ، أو عندما يتصدى الخليفة للحد من نفوذهم ·

هذا النصير الكبير وهذا السند القوى كان يتمثل فى زوجة العزيز بالله النصرانية وابنته ست الملك ، ذلك أن العزيز بالله تزوج من جارية رومية نصرانية ـ على المذهب الملكانى ـ وقد صار لهذه الزوجة من السلطان والنفوذ بقصر الخلافة ما مكنها من الوقوف دائما الى جانب النصارى (١٦) ، واستطاعت هذه الزوجة أن تؤثر

---

(١٢) عنان : الحاكم بأمر الله ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٨١ ·
(١٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٤٤ ·
(١٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ م ، ص ٣١٠ ·
(١٥) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٥٤ ، ج ٢ ، ص ١٠٤·
(١٦) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥١ ·
ـ ابن العميد : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥ م ، ص ٢٤٧ ·

فى سياسة الخليفة العزيز بالله نحوهم ، وأن ترفع أخويها وتقربهما من الخليفة · ففى شهر رمضان سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م أصدر العزيز بالله قرارا بتعيين أخيها أريستس بطريركا على بيت المقدس ، وقد ظل فى منصبه هذا عشرين عاما وشارك فى المفاوضات الدبلوماسية بين الروم والفواطم ، بينما أمر بتعيين أخيه أرسانى (أرسانيوس) مطرانا على القاهرة ، ثم ما لبث أن أصبح بطريركا على الاسكندرية فى سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م (١٧) ·

وكان لهذه المصاهرة تأثيرها الكبير فى سياسة العزيز بالله نحو النصارى ، ومبالغته فى التسامح معهم والعطف عليهم ، وبالتالى فى فتح باب الوظائف العليا فى الدولة أمام أهل الذمة ·

وواصلت هذا الدور ابنته ست الملك (ت ٤١٤ هـ/١٠٢٣م) · وكان العزيز يحبها حبا شديدا ، « ولا يرد لها قولا » (١٨) ، فكان لها دورها البارز فى التأثير على سياسة أبيها نحو النصارى ، كما كان لها دورها الخطير فى الأحداث الهامة ومجريات الأمور فى البلاد · فقد وقفت الى جانب عيسى بن نسطورس تساند وتدافع عنه بعد أن عزله العزيز بالله من منصبه وصادره ، وقبل العزيز بالله وساطتها وعفى عنه ، وأعاده الى الوساطة بعد أن تعهد عيسى بتفيذ السياسة التى رسمها له (١٩) ·

وكيفما كان الأمر فقد كان للسياسة السمحة والرشيدة التى

---

(١٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ص ١٩٧ ·
ـ الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٥١ ·
(١٨) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٣ ·
(١٩) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ·
ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٢ ·

انتهجها العزيز بالله الفاطمى ، أثرها الطيب فى اكتساب محبة المصريين بوجه عام على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم (٢٠) ٠

أما فى خلافة الحاكم بأمر الله ٣٨٦ - ٤١١ هـ/٩٩٦ - ١٠٢٠ م فان المصادر التاريخية تجمع على أن غالبية رجال الدواوين وموظفى الحكومة ، كانوا من أهل الذمة ٠ فبشهادة الأنطاكى « كان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى الا نفريسير » (٢١) ٠ كما اتسمت سياسة الحاكم بأمر الله مع جميع موظفى الدولة بروح العدالة ، مع الصرامة فى توقيع عقوبات بالغة القسوة على المخالفين ، ويعطينا الأنطاكى صورة واضحة للعلاقة بين الحاكم بأمر الله ورجال دولته بقوله أن الحاكم « أظهر من العدل ما لم يسمع بمثله ، ولعمرى ان أهل مملكته لم يزالوا فى أيامه آمنين على أموالهم ، غير مطمئنين على نفوسهم ولم تمتد يده قط الى أخذ مال أحد ، بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة ، وصلات واسعة ، ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم الأموال العظيمة ، ما لا يقع عليه احصاء لكثرته ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم لنفسه » (٢٢) ٠

ومن الأمثلة على ذلك أن الحاكم بأمر الله أعطى ثقته لفهد ابن ابراهيم النصرانى ، وقدمه على سائر الكتاب ، وأمرهم بطاعته ، وأكد لهم أثناء اجتماعه بهم أن فهد موضع ثقته وتقديره ، غير أنه ما لبث أن قتله بسبب ميله الى النصارى ، واسناده مناصب الدولة اليهم ، وازدياد نفوذهم ، وسيطرتهم على دواوين الحكومة ، وتعسفهم

---

(٢٠) حسن ابراهيم : المجمل فى التاريخ المصرى ، الطبعة الأولى ١٩٤٢ م ، ص ١٦٢ ٠

(٢١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ٠

(٢٢) الانطاكى : نفس المصدر ، ص ٢٠٦ ٠

وظلمهم للمسلمين ، علاوة على سيرته السيئة ، واختلاسه لأموال الدولة ، واقتطاعه لنفسه ، فكان صيدا سهلا أمام منافسيه ابن العداس ، وابن محمد النحوى ، اللذين دسا له عند الحاكم موضحين الأخطاء التى ارتكبها فهد ، مما دعى الحاكم بأمر الله الى عزله وقتله فى ثامن من جمادى الآخرة سنة ٣٩٣ هـ (٢٣) .

أما ابن عبدون الذى قلده الحاكم منصب الوساطة ثم صرفه عنها فى رابع المحرم سنة ٤٠١ هـ وقتله بعد مدة قصيرة ، فقد تعرض لنفس الظروف التى تعرض لها فهد بن ابراهيم ، وارتكب نفس الأخطاء ، فضلا عن الخلافات التى وقعت بينه وبين الحسين ابن جوهر الذى حرض الحاكم بأمر الله عليه (٢٤) .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد أخذ عليه اضطهاده للنصارى وقسوته على أهل الذمة بوجه عام ، وبصورة لم يسبق لها مثيل (٢٥) ، فان النظرة الفاحصة لموقفه من موظفيه تسمح لنا باعادة النظر فى هذا الرأى .

ذلك أن الحاكم بأمر الله قد تفانى فى خدمة الدولة والرعية ، وأحكم رقابته على وسطائه وكبار رجال الدواوين ، كما حاسب ـ وهو رجل الدولة القوى ـ رجال دولته من مسلمين وذميين حسابا عسيرا .

من ذلك أنه فى سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م طالب منصور ابن عبدون النصرانى وكان يتولى ديوان الشام . ومعه جماعة من كتاب الدواوين فى مصر من مسلمين وذميين على حد سواء ، بتقديم

(٢٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ .
ـ المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .
(٢٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٢ .
(٢٥) عنان : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

حساب ما كانوا يتولونه من أعمال ، ثم صادر أموال بعضهم وأودعهم السجون • غير أن ابن عبدون ما لبث أن نجح فى اقناعه بالافراج عن بعضهم • ولكن فى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م عادت الشناعات السيئة وكثرت حول الموظفين الذميين ، فأصابهم الحاكم بأمر الله واجتمعوا بعاصمة الخلافة ، وتوجهوا الى قصر الحاكم بأمر الله يلتمسون الأمان ، ويسألونه العفو والصفح ، فاستقبلهم رسول الحاكم بأمر الله ، ورد عليهم « ردا جميلا » ، أعاد الثقة والاطمئنان الى نفوسهم (٢٦) •

وهناك من الأدلة ما يؤكد أن الحاكم بأمر الله كان حازما فى سياسته الادارية ، ابتغاء تحقيق العدالة ، وحرصا على انتظام العمل بالدواوين ، وليس بدافع التعصب • فالحاكم لم يقتل فهد ابن ابراهيم لكونه نصرانيا ، ولكن قتله بسبب الأخطاء التى ارتكبها • كما أمر بقتل أبى غالب ـ أخ فهد ـ متولى ديوان النفقات لظلمه وسوء تصرفه ، ومع ذلك فان الحاكم بأمر الله أرسل فى طلب أولاد فهد وخلع عليهم ، وكتب لهم سجل أمان بحمايتهم وعدم التعرض لقصورهم وأموالهم (٢٧) •

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على كتاب الدواوين من النصارى واعتقلهم عقب مقتل فهد ـ فان أبا الفتح منصور بن مقشر الطبيب ـ وهو من المقربين الى الحاكم ـ قد توسط للافراج عنهم ، فأطلق سراحهم بعد اسبوع من القبض عليهم ، وعاد كل واحد منهم الى وظيفته (٢٨) •

---

(٢٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٦ •

(٢٧) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ •

(٢٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ض ١٨٦ •

ـ ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة • مخطوط بدار الكتب بالقاهرة رقم ٨٩٠ تاريخ ، ورقة ٦٦ •

وهذا الحادث يدل على أن ما فعله الحاكم بأمر الله لا يعدو أن يكون اجراء وقائيا ، كثيرا ما كان يتخذ أثناء الأزمات من هذا القبيل ، خشية وقوع اضطرابات لا يحمد عقباها وحفاظا على أموال الدولة من الضياع أو النهب · ولقد اتخذ الحاكم بأمر الله مثل هذا الاجــراء بعــد مقتل أبى عبد الله الحسين بن طــاهر ابن الوزان (ت جمادى الأخرى سنة ٤٠٥ هـ) ، اذ أحضر الكتاب ورؤســاء الدواوين ، وسألهم عما يتولاه كل منهم ، ثم أمرهم بالعودة الى وظائفهم والتفانى فى عملهم (٢٩) ·

ويعلق ستانلى لين بول على تعرض بعض كبار موظفى الدولة من أهل الذمة للرقابة الصارمة ، وقسوة الحاكم بأمر الله فى توقيع العقوبات عليهم بقوله : « ان المسلمين فى الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء ، فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز » (٣٠) ·

وذكر ابن القلانسى أن أحد النصــارى العاملين بخدمة ست الملك ــ وهو من المقربين اليها ــ كتب رسالة يستصرخها ، ويشكو لها ما نزل بالناس من ظلم ، وما شمل الشام وأهله من تعسف ابن النحوى متولى ديوان الشام · فما ان وصلتها الرسالة ، حتى دخلت على أخيها الحاكم بأمر الله ، وأخبرته بفحوى الرســالة ، وما أصاب رعاياه بالشام ، فما كان منه الا أن أصدر أمره بقتل ابن النحوى (٣١) ·

واذا كان الحاكم بأمر الله قد اتبع سياسة التسامح مع أهل الذمة فى بداية عهده متتبعا سياسة أبيه ــ بسبب تأثير أخته ست

---

(٢٩) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ ·

(٣٠) لين بول : سيرة القاهرة ، ترجمة د· حسن ابراهيم ، طبع بالقاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٣٥ ·

(٣١) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٠ ·

الملك التى كان يأخذ برأيها فى بداية حكمه ــ ، فان كبار موظفى الدولة من أهل الذمة انتهزوا هذه السياسة السمحة ، وجدوا فى تعيين بنى ملتهم فى الدواوين الحكومية ، لدرجة أن أصبح معظم موظفى الدولة من أهل الذمة ، وبذلك سيطروا على معظم الدواوين ، مما لفت نظر الحاكم بأمر الله ودعاه الى تسجيل أسماء سائر المسلمين المتعطلين من المتصرفين والكتاب الذين يصلحون للخدمة فى دواوين الحكومة ليعينهم فى وظائف الدولة ومرافقها ، وذلك حتى لا يستأثر الموظفون الذميون بوظائف الدولة (٣٢) ٠

ومع ما عرف عن الحاكم بأمر الله من ميله الى قتل المنحرفين من كبار موظفيه فانه لم يسىء لمن تفانى فى عمله أو خدم الدولة باخلاص وأمانة ٠ فالشافى زرعة بن عيسى بن نسطورس النصرانى كان واحدا من القلائل الذين افلتوا من غضبه لأنه « كان حسن السيرة ، محمود الطريقة ، محبوبا من سلطانه وسائر جنده وكتابه » (٣٣) ٠ أما أبوه عيسى بن نسطورس الذى قبض عليه فى المحرم سنة ٣٨٧ هـ ثم قتل فقد كان ضحية ابن عمار (٣٤) ٠

كما كانت علاقة الحاكم بأمر الله بأطبائه من أهل الذمة علاقة ود وتقدير ، وتنطوى على التسامح ولا تعرف التعصب ، فكان لهم المنزلة السامية ، والمكانة الرفيعة ، ومنحهم العطايا وخلع عليهم ، وقربهم اليه ، وأدناهم من مجلسه كما زار البعض منهم أثناء مرضه ، وشمل أولادهم برعايته ، وأطلق لهم الأموال وأجزل لهم العطايا (٣٥) ٠

---

(٣٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ٠

(٣٣) الانطاكى : نفس المصدر ، ص ٢٠٢ ٠

(٣٤) ماجد : الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ م ص ٥٦ ٠

(٣٥) القفطى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ٠

ــ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ٠

واذ كان البعض يقول ان الحاكم بأمر الله قبل اختفائه قد قضى على نفوذ النصارى فى مصر ، وأنهم أصبحوا فى ذلك الوقت مهملين فى الدولة (٣٦) ، فانه يتضح من الأمثلة السابقة أنه كان يتصرف من مبدأ واحد ومنطلق واحد هو : أن يرى رعاياه وقد شملهم العدل ، وحرصه على أن يكون حكامه وموظفيه أكفاء يخلصون فى خدمة رعاياه فلم يعزل هذا أو يقتل ذاك ، أو يعتقل أو يصادر أو يعاقب أحدا تعصبا الى جنس أو دين . وهذا ما يؤكده مجموعة المراسيم والسجلات التى أصدرها قبيل اختفائه ، وكلها تفوح بروح التسامح والعطف على أهل الذمة وبخاصة نصارى مصر (٣٧) .

وما أن اختفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠ م حتى بويع ولده الظاهر لاعزاز دين الله بالخلافة ، وكان صبيا فى السابعة عشر من عمره ، ولذلك أخذ نفوذ عمته ست الملك سند النصارى القوى فى مصر يظهر من جديد ويتزايد بصورة واضحة ، اذ كانت هى المدبرة لشئون الدولة وسياستها فى تلك الفترة (٣٨) .

... واستطاع الظاهر لاعزاز دين الله أن يكتسب عطف أهل الذمة ومحبتهم له ، فلقد أصدر مرسوما يوضح حسن رأيه ورضاه وثقته فى جميع موظفى الدولة ويطمئنهم على بقاء كل واحد منهم فى وظيفته ، غير أنه فى نفس الوقت ناشد رجال الدواوين وموظفى الدولة توخى العدل والسهر على خدمة الرعية ، والقضاء على الفساد . غير أنه جد فى اصلاح الجهاز الادارى للدولة ، فأجرى عملية تطهير فى كل فروع الادارة الحكومية ، وأقصى العناصر الانتهازية وأصحاب

---

(٣٦) جاك تاجر : أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى سنة ١٩٢٢ م القاهرة سنة ١٩٥١ م ، ص ١٣٥ .

(٣٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨-٢٣٢ .

(٣٨) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٦١ .

المصـــالح الشخصية ، وأبعد كل من شك فى اخلاصـه وولائه للخلافة (٣٩) ٠

كما كان كبار موظفى الدولة ووزرائه وبخاصة المسلمين منهم على علاقة حسنة بأهل الذمة ٠ فقد كان الوزير على بن أحمد محبا للنصارى ، متسامحا معهم ، وحسن العلاقة بأهل الذمة بوجه عام ٠ وموجز القول فان خلافة الظاهر لاعزاز دين الله اتسمت بالهدوء بسبب سياسة التسامح مع أهل الذمة ، وهذا ما عبر عنه مؤلف سـير البيعة المقدسـة بقوله : « وكان فى أيامه هدوء وسـلامة عظيمة ٠٠٠ وكان دين النصارى مستقيم وأهله مكرمين » (٤٠) ٠

وفى خلافة ابنه المستنصر بالله ازداد نفوذ أهل الذمة ٠ فقد سيطر النصـارى على دواوين الدولة ، وقد عبر عن ذلك المؤلف السـابق ذكره بقوله ان « جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينهـا وتدبير أمورهـا كلهم نصـــارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم » (٤١) ٠ كما ازداد نفوذ اليهود فى قصر الخلافة ، وقد تمثل ذلك فى أبى سـعيد التسترى ـ متولى ديوان أم الخليفة المستنصر وفى الدور الخطير الذى قام به فى عزل الوزير الأنبارى وتعيين الوزير الفلاحى ٠ كما استبد التسترى بأمـور الدولة وسياستها فى وزارة الفلاحى ، مما دعا الفلاحى الى تدبير مؤامرة لاغتياله سنة ٤٣٩ هـ/١٠٤٧ م ، ولم ينج الفلاحى من غضب أم المستنصر ، فأوعزت الى ابنها بعزله ، ثم بقتله بعد مدة قصيرة سنة

---

(٣٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ـ٢٣٦ ٠

ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٨٣ ٠

(٤٠) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٦١ ، ٦٣ ٠

(٤١) الأنبا ميخائيل : نفس المصدر ، ورقة ٧٥ ٠

٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م · كما كان لأبى نصر هارون التسترى ـ أخ أبى سعيد ـ نفوذ كبير داخل قصر الخلافة ، فقد تدخل بصورة سافرة فى شئون الدولة ، الأمر الذى أدى الى اتهامه بالانحياز الى جانب أعداء الدولة من المرداسيين ، والى مصادرة أمواله ومعاقبته ، ثم بموته سنة ٤٤١ هـ /١٠٤٩ م (٤٢) ·

ولم يكن هذا آخر عهد أهل الذمة بالوزارة وتولى المناصب الكبرى ، فقد تولى أبو سعد ابراهيم بن سهل التسترى الوزارة سنة ٤٥٦ هـ /١٠٦٣ م ، ولكن ما لبث أن صرفه المستنصر عنها فى السنة التالية (٤٣) ·

ولقد تعاطف بعض ولاة الأقاليم فى خلافة المستنصر مع أهل الذمة ، فوالى القاهرة سنان بن كابر كان يحب النصارى ويعطف عليهم ، كما كان الأمير المؤيد حصن الدولة الى الاسكندرية صديقا لأقباط مصر ، محبا لهم ومهتما بأمورهم (٤٤) ·

ومجمل القول أن أهل الذمة تمتعوا بنفوذ كبير فى خـلافة المستنصر ، واذا كان قد أصابهم مكروه أو تعرضوا لأذى ، فقد كان ذلك فى فترة الاضطرابات التى عمت البلاد فى النصف الثانى من عهده (٤٥) ·

---

(٤٢) ابن ميسر : أخبار مصر ، تحقيق هنرى ماسيه ـ القاهرة ١٩١٩ م ، الجزء الثانى ، ص ١ـ٣ ·

(٤٣) ابن ميسر : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٥ ·

(٤٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٧ ·

(٤٥) الأنبا ميخائيل : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة ٧٩ ·

ـ جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ·

والسطور التالية تلقى الضوء ساطعا على بعض من تولى من أهل الذمة المناصب الكبرى فى الدولة ـ وعلى رأسها منصبى الوزارة والوساطة ـ كما توضح لنا أثر ذلك على سياسة الدولة ، ونتائجها بالنسبة للمجتمع المصرى بوجه عام خلال تلك الفترة من تاريخ مصر ٠

الوزراء والوسطاء من أهل الذمة

يعقوب بن كلس :

يعتبر ابن كلس أبرز الوزراء الذين تقلدوا منصب الوزارة في مصر في العصر الفاطمي الأول . وهو من أهل الذمة الذين أسلموا ، ومن أعظمهم شأنا ، ولذلك اهتم بالحديث عنه والترجمة له كثير من المؤرخين .

فهو يعقوب بن يوسف بن ابراهيم بن هارون بن داود ابن كلس ، الوزير الكامل المكنى « بأبي الفرج » ، ولد ببغداد ونشأ بها ، وتعلم الكتابة ومبادئ الحساب ، ثم انتقل مع أبيه من بغداد الى الشام ليعمل بالتجارة (٤٦) ، ولما نزل الرملة سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م عمل وكيلا للتجارة بها (٤٧) وعندما تراكمت عليه الديون وعجز عن سدادها هرب من الشام ، وسافر الى مصر سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م وفي مصر اتصل بكافور الأخشيدي ، حيث كان يبيعه

---

(٤٦) العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، الجزء ١٩ مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، ورقة ٤١٨ .

– ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب – طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ، الجزء الثالث ، ص ٩٧ .

(٤٧) Mann : The Jews in Egypt and Palestine Under Fatimid Caliphs, Vol. I. p. 17.

ما يطلبه من البضائع والأمتعة ، ويحال بثمنها على ضياع مصر (٤٨)٠

ولكثرة تردد ابن كلس على الريف اكتسب معرفة وخبرة بكل ما يتصـــل بحياة أهله ، وساعده على ذلك ما اشتهر به من دهاء وذكاء مفرط ومهارة فى معرفة الضياع ، ولذلك اتسعت تجارته وذاع صيته ، وما لبث أن التحق بخدمة كافور وأصبح من المقربين اليه ، فعينه فى ديوان الخاص ، ثم أسند اليه مهمة الاشراف على النواحى المالية فى دواوين الحكومة ومراجعة مستنداتها قبل عرضها عليه ٠ وأظهر ابن كلس مقدرة فائقة فى الادارة ، فأعجب به كافور لمهارته وحسن سياسته وقال : « لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا » (٤٩) ٠

بلغ ابن كلس ما قاله كافور عنه وتقديره له ، والتصريح بصلاحيته للوزارة لو كان مسلما ، فأحضر من علمه شرائع الاسلام سرا ، وفى يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م أشهر اسلامه ، ولزم الصـــلاة ، وواصل دراسته للدين الاسلامى والفقه والتشريع (٥٠) ٠

ويرى بعض المؤرخين أن ابن كلس أعلن اسلامه طمعا فى الوزارة وحبـــا فى المنصب واشـــتياقا الى الولاية (٥١) ، وهـــذا

---

(٤٨) النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء ٢٦ ، ورقة ٤٩ ٠

(٤٩) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٢ ٠

ـ النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ ٠

(٥٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٢٦ ، جـ ٦ ، ص ٢٦ ٠

ـ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤ ٠

(٥١) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٢ ٠

ـ سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٢ ٠

ما نرجحه على الرغم من كثرة أعمال ابن كلس الدالة على حسن اسلامه والتى سوف نلقى الضوء عليها فيما بعد ..

وفى عهد كافور أصبح ابن كلس منافسا خطيرا للوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات وزير كافور ـ المعروف بابن حنزابة ـ ، وما أن توفى كافور سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م حتى أصدر ابن حنزابة أوامره بعزل ابن كلس ومصادرة أمواله والقبض عليه . غير أن ابن كلس استطاع بالرشوة وبمساعدة أعوانه أن يحصل على أمر بالافراج عنه ، فخرج من مصر قاصدا بلاد المغرب (٥٢) .

وسواء دخل ابن كلس المغرب واتصل بالمعز لدين الله الفاطمى قبل غزو مصر عن طريق بعض اليهود المقربين اليه والذين يخدمون بالبلاط الفاطمى ، وعاونه فى تدبير فتح مصر ، ثم جاء معه عند قدومه الى مصر (٥٣) . أم أنه التقى بالقائد جوهر الصقلى أثناء سير الحملة من المغرب لفتح مصر فعاد معه (٥٤) ، فالحقيقة الثابتة أن ابن كلس منذ اتصاله بالمعز لدين الله كان على علاقة حسنة بدار الخلافة ، ويتمتع بثقته لكفاءته ولمبالغته فى طاعته (٥٥) .

ويرى بعض المؤرخين أن يعقوب بن كلس تقلد الوزارة فى عهد المعز لدين الله (٥٦) ، بينما ترى الغالبية الكبرى منهم أن ابن كلس

---

(٥٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ، ص ٥٥ .
ـ العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤١٩ .
(٥٣) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤١ .
(٥٤) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ .
ـ العينى : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .
(٥٥) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٤٩ .
(٥٦) نفس المصدر والصفحة .
ـ ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .
ـ القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج ٣ ، ص ٣٥٧ .

قد تقلد الوزارة فى عهد العزيز بالله (٥٧) ، الا انهم اختلفوا فى تاريخ تقلده هذا المنصب وانقسموا الى فريقين :

فريق يرى انه تقلـــد الوزارة العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م (٥٨) ، وفريق آخر يرى انه تقلدها فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان سنة ٣٦٨ هـ (٥٩) ٠

هذا بينما يحدد المقريزى اليوم الأول من المحرم سنة ٣٦٧هـ تاريخا لتقلده الوزارة (٦٠) ٠

والواقع ان ابن كلس منذ اتصاله بالخليفة المعز قد تفانى فى فى خدمته وطاعته ، وفى رابع عشر المحرم سنة ٣٦٣ هـ « قلد المعز الخراج ، ووجوه الأعمال جمعهـــا ، والحسبة ، والســـواحل ، والأعشار والجوالى ، والأحباش ، والمواريث والشرطتين ، وجميـــع ما ينضاف الى ذلك ، وما يطرأ فى مصر وسائر الأعمال أبا الفرج يعقوب بن يوسف الوزير وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلا قرىء يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون » (٦١) ٠

(٥٧) ابن القلانسى : (الذيل ، ص ٣٢) ، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٢) النويرى (نهاية الارب ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩) ، المقريزى (الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥) ، العينى (عقد الجمان ، جـ ١٩ ، ورقة ٤١٩) ، أبو المحاسن (النجوم جـ ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن ايبك (كنز الدرر جـ ٦ ، ورقة ١١٤) ، وابن العماد (شذرات الذهب جـ ٣ ، ص ٩٧) ٠

(٥٨) ابن القلانسى : (الذيل ، ص ٣٢) ، سبط بن الجوزى (مرآة الزمان ، جـ ١١ ورقة ١٥٢) أبو المحاسن (النجوم ، جـ ٤ ، ص ١٥٨) ، ابن أيبك كنز الدرر ، جـ ٦ ، ورقة ١١٤ ٠

(٥٩) ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ص ٢٧ ٠
ـ النويرى : المصدر السابق جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ ٠
ـ العينى : المصدر السابق جـ ١٩ ، ورقة ٤١٩ ٠

(٦٠) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ٥ ٠
ـ المقريزى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ ٠

(٦١) المقريزى : اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا الجزء الأول ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ص ١٤٤ ، ١٤٥٠ ٠

ولكن سيطرة ابن كلس على ادارة الدواوين ، وعظم منزلته فى قصر الخلافة ، واقبال الناس عليه ، لم يترك مجالا للمؤرخين لابراز الدور الذى قام به عسلوج بن الحسن الذى شارك ابن كلس مسئولية الاشرف على الدواوين مدة خلافة المعز ٠ كما أن استمرار ابن كلس على قمة الجهاز الحكومى فى الدولة بعد وفاة المعز كان من الأسباب التى جعلت بعض المؤرخين يعتقدون أن ابن كلس قد تقلد الوزارة فى عهد المعز ٠

ومن هنا يتضح لنا ان ابن كلس لم يتقلد الوزارة فى عهد المعز ، اذ لم يقلد المعز الوزارة لأحد مدة خلافته ، وبذلك يكون ابن كلس أول من وزر للعزيز بالله فى أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ / تاسع عشر أغسطس ٩٧٧ م وأول من خوطب بالوزارة فى عهد الفاطميين ٠ ثم منحه العزيز بالله فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ لقب « الوزير الأجل » ،وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه الا به (٦٢) ٠

واشتهر ابن كلس بنجاح سياسته المالية ، اذ كان أول عمل قام به صبيحة تقلده الادارة المالية فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ/أكتوبر ١٩٧٣ م ، هو اعـلان المزاد عن الضياع والأراضى وسائر وجوه الأعمال التى تريد الحكومة الفاطمية أخذ خراجها عن طريق نظام التضمين أو الالتزام ٠ وقد حررت العقود بالمبـــالغ المطاوبة على الأراضى التى شملها نظام التضمين وأسماء الضمان أو الملتزمين الذين رسا عليهم المزاد (٦٣) ٠

كما أخذ ابن كلس فى اعتباره عدة أمور فى وضع سياسته المالية ، وهذه الأمور هى :

أولا : العمل على زيادة ايرادات الدولة عن طريق المزاد لكل

---

(٦٢) المقريزى الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ ٠

(٦٣) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ ٠

ما تريد الحكومة تضمينه ، ليتمكن من الحصول على أعلى حصيلة للخراج متبعا نظام القبـالات (٦٤) أو الالتزامات · وهو النظام المعمول به فى أنحاء الدولة (٦٥) ·

ثانيا : زيادة عدد الضباع المطروحة للالتزام والقبالات فى المزاد العلنى (٦٦) ·

ثالثا : تحديد وتقدير الضرائب للمتقبلين والملتزمين والضمان ، وكذلك ما يصرف على الأراضى وتطهير وحفر الترع واصلاح الجسور حتى لا يتعرض أحد للتعسف والظلم ، وتأكيدا لذلك كان ينظر فيما يقدم من شكاوى (٦٧) ·

رابعا : التشدد فى مطالبة المالكين والمتقبلين والعمال لتسوية التزاماتهم وتحصيل ما لديهم من مبالغ متأخرة وهى ما تسـمى بالبواقى (٦٨) ونتيجة لهذه السياسة المالية زادت ايرادات الدولة زيادة كبيرة ، وبلغ جملة خراجها فى سنة ٣٦٣ هـ /٩٧٣ م أربعة ملايين دينار (٦٩) وتحدثنا بعض المصـادر أن ما تم تحصيله من أموال الخراج فى يوم واحد من تنيس ودمياط والأشمونيين أكثر من مائتى ألف دينار وعشرين ألف دينار ، ورغم أن هذا المبلغ فى تقديره ، الا أن المقريزى سيستنكر هذه السياسـة المتشددة فى

---

(٦٤) خلاصة هذا النظام أن يتعهد شخص بجباية الضرائب فى قرية أعدة قرى أو كور ، ويتم هذا العمل بطريق المزايدة وذلك لمدة أربع سنين ، البراوى حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ٣٢ ·

(٦٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٤٦ ·

(٦٦) المقريزى : نفس المصدر ، ونفس الصفحة ، ص ١٤٧ ·

(٦٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٨١ـ٨٢ ، جـ ٢ ، ص ٥ ·

(٦٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ·

(٦٩) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص ٣٣٤ ·

تحصيل الخراج بقوله « وهذا شئ لم يسمع قط بمثله فى بلد » (٧٠)

على أن أهم اصلاحات ابن كلس المالية هو أنه اتخذ من الدينار المعزى العملة النقدية الجديدة ـ عملة رسمية بدلا من الدينار الراضى (٧١) ، وهو العملة التى كانت متداولة قبل مجئ الفاطميين الى مصر · اذ امتنع ابن كلس وعسلوج ابن الحسن أن يأخذا ضريبة الخراج بالدينار الراضى ، وارغما الناس على التعامل بالدينار المعزى ، فانحط الدينار الراضى ، ونقصت قيمته بمقدار الربع وأكثر (٧٢) ·

وهنا لابد أن نلقى الضوء على أبعاد هذا الاصلاح المالى الجديد ومغزى هذا الاصلاح الذى يعد فى الوقت نفسه أساسا لسياسة ابن كلس المالية ·

ذلك أنه منذ استيلاء جوهر الصقلى على مصر سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م حتى قدوم سيده المعز سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م ، ظل الدينار الراضى هو العملة السائدة فى مصر رغم أن جوهر سك الدنانير الذهبية التى تحمل اسم الخليفة المعز ولقبه (٧٣) ، اذ كان الدينار الراضى آنذاك أكثر وزنا وأشد نقاء من الدينار المعزى (٧٤) · وعندما تولى ابن كلس الاشراف على الادارة المالية امتنع عن أخذ الدينار الراضى ورفض الا أن تكون جباية الخراج بالدينار المعزى ، وقدرت قيمة الدينار الراضى بخمسة عشر درهما ، بينما صرف

---

(٧٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ ·
ــــــ : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٤٧ ·

(٧١) نسبة الى الخليفة الراضى العباسى · (ماجد : ظهور دولة الفاطميين وسقوطهم فى مصر ، ص ٢٩٧) ·

(٧٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٤٦ ·

(٧٣) عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، الجزء الأول (فجر السكة العربية) ، ص ١٩٨ ·

(٧٤) البراوى : المصدر السابق ، ص ٣٠٣ ·

الدينار المعزى بخمسة عشر درهما ونصف ، فاضطر الناس الى بيع الدينار الراضى بأقل من قيمته (٧٥) ، كما دخلت الحكومة الفاطمية نفسها فى هذه المضاربة مشترية بالسعر الذى حددته (٧٦) ·

وكان هذا الاصلاح المالى يرمى الى زيادة مالية الدولة عن طريق الربح الناتج من فرق الوزن بين الدينارين ، وذلك بسحب الدنانير الراضية - الأكثر وزنا والأشد نقاوة - واجبار الناس على بيعها واستبدالها بالدينار المعزى - الأقل وزنا - فخسر الناس من أموالهم الشىء الكثير (٧٧) ·

واذا كان ابن كلس قد اتخذ من الدينار المعزى أساسا للتعامل النقدى ، فانه أراد بذلك التأكيد على أهم مظهر من مظاهر سيادة الدولة الفاطمية ، واستقلالها السياسى عن السيادة العباسية · وقد نجح ابن كلس فى سحب هذه العملة التى كان لها قيمتها فى نفوس الناس واجبارهم على التعامل بعملة جديدة تحمل صفة الدولة الفاطمية الشيعية المذهب (٧٨) ·

ولقد هيأ ابن كلس كل فرص النجاح لادارة الدولة ، فبمجرد توليه الوزارة ، أحكم سيطرته على الدواوين ، ونقل مقرها من قصر الخليفة ، واتخذ من داره مقرا لها ، ثم أنشأ ديوان « العزيزية » يختص بشئون الخليفة العزيز ، وعين بهذه الدواوين خيرة الكتاب والموظفين والجهابذة لادارتها وألحق بها خزانة للكسوة ، وخزانة للمال ، وخزانة للدفاتر ، وخزانة للأدوية وعين على رأس كل منها

---

(٧٥) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ ·
(٧٦) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ ·
(٧٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٤٦ ·
- البراوى : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ·
(٧٨) عبد الرحمن فهمى : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ·

« ناظر » للاشراف عليها (٧٩) ·

ورتب ابن كلس فى داره الحجـاب ، وحصن داره بالحرس الخاص ، وزودها بالكتاب والأطباء والصيادلة ، وأفرد لكل طائفة من العلماء ، والأدباء والشعراء ، والفقهاء ، والمتكلمين ، وأرباب الصنائع الأماكن الخاصة بهم ، وأجرى على كل واحد منهم الأرزاق والمرتبات ـ كما أنشأ مجلسا للنظر فيما يعرض عليه من شكاوى وتظلمات للفصل فيها ، وكان يبت فيها بنفسه ، ويعمل على فض المنازعات بين الخصوم (٨٠) ·

وبذلك أصبح قصر ابن كلس مقرا لادارة أقاليم الدولة فى مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب (٨١) ، وأناب عنه فى تلك الأقاليم عمالا ، وعيونا له يكتبون اليه بأخبار الولاة (٨٢) ، ليكون على دراية تامة بكل ما يدور فى هذه الأقاليم من أحداث ، كما استفاد من صداقته ومصاهرته للوزير ابن الفرات (ت ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م) فعول عليه فى محاسبة العمال (٨٣) ·

وكان ابن كلس يجلس فى داره ـ حيث دواوين الحكومة ـ يأمر وينهى ، وتعرض عليـه كل أمـور الدولة وسياستها للبت فيها (٨٤) ، فازداد نفوذه وعظمت مكانته ·

---

(٧٩) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ ·

(٨٠) ——— : نفس المصدر ، ص ٦ ·

(٨١) ——— : نفس المصدر والجزء ، ص ٥

(٨٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٢٩ ·

(٨٣) على ابراهيم : تاريخ جوهر الصقلى ، ص ٧٨ ·

(٨٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ ·

لذا يرى بعض المؤرخين أن العزيز بالله فوض أمور الدولة الى ابن كلس (٨٥) ، وانــه كان « متمكناً من صاحبه (٨٦) ، وأنــه « غلب على العزيز » (٨٧) ، وأنه « لم يبق لأحد معه كلام » (٨٨) ٠

فما هى حقيقــة الأمر ؟ ، هل كانت وزارة ابن كلس وزارة تفويض أم وزارة تنفيذ ؟

قبل الاجابة على هذا السؤال لابد من القاء مزيد من الضوء على مكانة ابن كلس فى دولة الفاطميين ٠

لقد تقلد ابن كلس الوزارة ـ كما سبق الاشارة ـ فى أول المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، ولقبــه العزيز فى رمضان سنة ٣٦٨ هـ / ابريل ٩٧٨ م بلقب «الوزير الأجل» وخلع عليه ،ثمأصدر مرسوما فى المحرم سنة ٣٧٣ هـ / يونية ٩٨٣ م أن يبدأ فى مخاطبته ومكاتبته باسمه على المكاتبات النافذة عنه (٨٩) ، فكان يكتب عليها : « من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين الى فلان » (٩٠) ٠ بل ان العزيز بالله رفع الى وزيره رفعة سنة ٣٧٧ هـ /٩٨٧ م يقول فى أولها : « سلم الله الوزير وأبقى نعمتــه عليــه » ولم يكن ذلك

---

(٨٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ابن القلانسى (الذيل ، ص ٣٢) ٠

سبط بن الجوزى (مرآة الزمان ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٢) ، ابن ظافر (أخبار الدول المنقطعة ، ورقة ٥٤) ، النويرى (نهاية الارب ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩) ٠

(٨٦) بيبرس الدودار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، الجزء السادس ، مخطوطة مصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٧ ، ورقة ٢٧٣ ٠

(٨٧) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٢ ٠

(٨٨) العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٤١٩ ٠

(٨٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ ٠

(٩٠) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٤ ٠

الا تقديرا للرجل ومكانته . وفضلا عن ذلك فقد أقطعه الاقطاعات والضياع بمصر والشام ، وأذن بكتابة اسمه على الطراز تكريما لـه (٩١) . كما خطب وده الشعراء والأدباء ومنهم أبو الرقعمق (ت ٣٩٩ هـ) صاحب المجون والنوادر (٩٢) ، كما مدحه كبار رجال الدولة وقوادها ، فهذا جعفر بن فلاح ـ القائد المغربي ـ يكتب الى ابن كلس قائلا :

ولى صديق ما مسنى عدم مذ نظرت عينه الى عدمى
أعطى وأقنى ولم يكلفنى تقبيل كف له ولا قدم (٩٣)

ومع تزايد نفوذه وعلو مكانته فقد اتخذ ابن كلس سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م موقفا عدائيا من الكتاميين ـ وهم الدعامة التى قامت عليها دولة الفاطميين ـ وربما كان ذلك بسبب حقدهم عليه لاستئثاره بالسلطة والنفوذ ، كما أنه عزل جوهر القائد من منصبه ، مما أدى الى مواجهة عنيفة بينه وبين الكتاميين الذين حاولوا اغتياله سنة ٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م مما اضطره بعد ذلك بثلاث سنوات الى أن يسقط المغاربة ويستخدم الأتراك والأخشيدية (٩٤) .

ومع ما كان يتمتع به ابن كلس من قوة ونفوذ ومكانة سياسية ومهارة ادارية فان الخليفة العزيز بالله كان يمتلك من القوة والارادة

---

(٩١) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

(٩٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ ، ٤٢٧ .
ـ ابن العماد : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ١٥٥ .

(٩٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ٤ ، ص ٥٩ .

(٩٤) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ٢٥٦ .
ـ النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

ما يستطيع به فى الوقت المناسب وفى اللحظة الحاسمة أن يكبح جماح وزيره ، ليصحح خطأ ارتكبه وليعيد الأمور الى نصابها ، بل ويجرده من جميع مناصبه وسلطاته وألقابه وثروته ويعتقله اذا لزم الأمر .

وقد ذكر لنا المؤرخون ان العزيز بالله اتخذ موقفا حازما من ابن كلس وهو فى أوج عظمته . ففى سنة ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م توفى القائد التركى أفتكين ، وكان مقربا من الخليفة العزيز بالله ، ومن أخص خدمه وحجابه ، مما دفعه الى الترفع على الوزير ابن كلس ومقاطعته ، فصارت بينهما العداوة والكراهية ، وثارت شكوك العزيز بالله حول ابن كلس ظنا منه أنه قد دس السم لأفتكين ، فاتهمه بذلك وأمر باعتقاله ، وعزله من منصبه فى شوال سنة ٣٧٣ هـ (٩٥) ، ونقل الدواوين من دار الوزير الى قصر الخلافة (٩٦)، ورد النظر فى أمور الدولة الى خير بن القاسم (٩٧) . ولم يكتف العزيز بكل ذلك ، بل صادر أموال ابن كلس وجرده من ألقابه ومحا اسمه من الطراز (٩٨) .

ولبث ابن كلس فى الاعتقال عدة شهور، فارتبكت أمور الدولة، وساءت أحوالها ، مما اضطر العزيز بالله الى اطلاق سراحه سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م . واعادته الى الوزارة والخلعة عليه ، كما أصدر

---

(٩٥) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ٢٢٨ .
– النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .
(٩٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
(٩٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ .
(٩٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ٢٦٢ .
– النويرى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٤٨ ، ٤٩ .

مرسوما برد ما أخذ من أمواله وزاد عليها ، واعادة اسمه الى الطراز ، وأن يتقدم الوزير موكب من عدة خيول تكريما له (٩٩) .

ولا يعنى هذا الحادث الا التأكيد على أن الخلفاء الفاطميين الأوائل كانوا يمسكون بالسلطة العليا فى أيديهم ، وان الوزراء مهما كانت منزلتهم كانت لهم المكانة الثانية فى الدولة ، كما يؤكد أيضا - رغم ما يذكره مؤرخو مصر الاسلامية من تعاظم نفوذ ابن كلس - ان الوزير كان يأتمر بأمر الخليفة ، وينفذ سياسته وان وزارة ابن كلس كانت وزارة تنفيذ ، ولم تكن وزارة تفريض . ولقد حرص ابن كلس على تنفيذ أوامر العزيز بالله وتقديم فروض الطاعة والولاء له ، كما حرص دائما على أن يثبت له أنه عند حسن الظن به عندما كان يحاول أعداؤه الوشاية به والطعن فيه (١٠٠) .

ويعتبر ابن كلس أبرز رجال الدولة الفاطمية الذين قادوا الحركة العلمية فى العصر الفاطمى الأول ، ومن القلائل الذين نافسوا أسرة النعمان - التى أخذ رجالها على عاتقهم نشر المذهب الشيعى - فى تدريس وارساء مبادىء الفقه الشيعى (١٠١) . فقد ألف ابن كلس كانت وزارة تنفيذ ، ولم تكن وزارة تفويض . ولقد حرص ابن صنف « الرسالة الوزيرية » ، وهى كتاب فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيلى ، روى فيه عن الأئمة الفاطميين خاصة ما سمعه من الخليفتين المعز والعزيز ، وكان هذا الكتاب من المراجع التى يعتمد عليها العلماء فيما يصدرونه من الفتاوى والأحكام كما كان

---

(٩٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

- المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٦٢ .

(١٠٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(١٠١) ابن حجر العسقلانى : رفع الأصر عن قضاة مصر ، القسم الثانى ، تحقيق د. حامد عبد المجيد (القاهرة ١٩٦١) ، ص ٤٠٩ .

هذا المؤلف من المؤلفات الهامة التى كان يدرسها الفقهاء (١٠٢) .

ولم يقتصر ابن كلس على مصنفه السابق الذكر ، اذ يذكر المقريزى أن من مؤلفاته كتاب فى القراءآت ، وكتاب فى الأديان ، وكتاب فى آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكتاب فى علم الأبدان وصلاحها وهو مؤلف يقع فى ألف ورقة (١٠٣) .

كما عقد ابن كلس الندوات الخاصة فى كل يوم ثلاثاء ، وكان يحضرها بنفسه مع الفقهاء والعلماء وأهل الرأى ، يتناظرون بين يديه ، وكان اذا جلس يقرأ كتابه فى الفقه الذى سمعه من الخليفتين المعز والعزيز التف حول مجلسه الخاصة والعامة يستمعون اليه (١٠٤) .

وبذل ابن كلس قصارى جهده لنشر أفكاره ومؤلفاته . فكان يجلس فى يوم الجمعة ، ويقرأ بنفسه مصنفاته على الناس ليعطيها اهتماما خاصا ، وكان يحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود فاذا فرغ من قراءته قام الشعراء يمدحونه (١٠٥) .

وقد شجع العزيز بالله هذه المجالس العلمية ، فأجرى لجماعة الفقهاء الذين يحضرون مجالس الوزير أرزاقا فى كل شهر تكفيهم (١٠٦) .

---

(١٠٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٣
- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ ، ٦ .
(١٠٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص
(١٠٤) ——— : نفس المصدر ، ج ٢ .
(١٠٥) ——— نفس المصدر .
(١٠٦) ——— : نفس المصدر .

واتخذ ابن كلس من الجوامع مراكز لنشر الدعوة الفاطمية ، ولذلك امتدت اليها يد الاصلاح والتعمير ، وتحت اشرافه ادخل كثيرا من التحسينات على جامع عمرو بالفسطاط ، الذى كان لا يزال الى وقت مجىء الفاطميين من أهم مراكز الدراسة والتعليم والاشعاع الفكرى فى العالم الاسلامى • وفى هذا الجامع تناول الفقهاء والعلماء مؤلفات ابن كلس فى الفقه والقراءات بالدراسة والشرح (١٠٧) • كما اتخذ من جامع الحاكم ، وهو الجامع الذى وضع ابن كلس أساسه سنة ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م مركزا آخر لنشر تعاليم المذهب الاسماعيلى ، واجتمع فى ساحته الفقهاء للدراسة على غرار ما كان يجرى بالجامع الأزهر (١٠٨) •

وفى العصر الفاطمى الأول اشتهر الجامع الأزهر كأعظم جامعة علمية اسلامية ، ويرجع الفضل فى ذلك الى الوزير العالم يعقوب ابن كلس • ففى سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م وافق العزيز بالله ـ بناء على اقتراح ابن كلس ـ على تحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية ومركز للدراسات الفقهية لكل ما يتعلق بالمذهب الاسماعيلى ، وعين بالأزهر خمسة وثلاثين من كبار الفقهاء ، وخصص لهم الرواتب الشهرية المجزية ، وأنشأ لهم دارا ملحقة بالجامع الأزهر لسكناهم ، وكانوا يعقدون به ندوتهم العلمية الاسبوعية عقب انتهاء صلاة الجمعة وحتى صلاة العصر • وبالغ العزيز فى تكريم هؤلاء العلماء ، فبذل لهم العطايا ، ومنحهم الخلع وأمر أن يركبوا البغال تقديرا لهم ، ومع كل ما ناله هؤلاء العلماء من تكريم لم ينس ابن كلس أن يقدم لهم الصلات والمنح كل عام مكافأة وتشجيعا لهم (١٠٩) •

---

(١٠٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ •
ـ خطاب عطية : التعليم فى العصر الفاطمى الأول (القاهرة ١٩٤٧ م) ص ١٠٠ ، ١٠١ •

(١٠٨) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢٧٦ •

(١٠٩) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٧١ •

وجالس ابن كلس أهل العلم والأدب ، وجمع بداره العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والمتكلمين والنساخ والمشتغلين بتجليد الكتب والدفاتر ، وخصص لهم الرواتب الشهرية ، واهتم بزيادة اعداد الكتب والمؤلفات ، فعين كتابا لنسخ الكتب ومراجعين لمقابلتها وضبطها خشية التحريف وحفاظا على التراث (١١٠) . كما زود ابن كلس هؤلاء العلماء بكل ما يحتاجون اليه ، فأسس مسجدا بداره وعين له القراء والأئمة للصلاة ، وأنشأ عدة مطابخ لخدمتهم ، ودعا الى مائدته أهل العلم ووجوه الكتاب ، وأقام مثل هذه المآدب فى شهر رمضان للفقهاء ووجوه الناس فاذا فرغوا من تناول الطعام كان يطاف عليهم بالطيب (١١١) .

ونافس الوزير ابن كلس قاضى القضاة على بن النعمان القيروانى فى نشر عقائد الفاطميين وفرض القيود على تصرفات القاضى وأحكامه الفقهية بالدرجة التى جعلت القاضى ابن النعمان يبطل الجلوس بالجامع لمبالغة الوزير فى التقليل من شأنه وأهميته (١١٢) . كما وقف ابن كلس بالمرصاد وتصدى للعلماء والمؤلفات التى لا تنحو نحوا شيعيا ، وكان نصيب المؤلفين المعارضين لسياسته الموت أو الاعدام ، ونصيب مؤلفاتهم الحرق أو الاهمال (١١٣) .

واذا كان هذا موقفا خاطئا بالنسبة للحركة العلمية وحرية الرأى والتعبير ، الا أنه من وجهة نظر ابن كلس كان اجراءا وقائيا

---

(١١٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .
- المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ .
(١١١) المقريزى : نفس المصدر والصفحة .
(١١٢) ابن حجر : المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .
(١١٣) القفطى : المصدر السابق ، ص ٢٨٥ .
- خطاب عطية : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

الهدف منه حماية الفقه الشيعى الاسماعيلى الذى لم يكن قد استقرت قواعده بعد من أعداء الفاطميين ·

وبوفاة ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م فقدت الدولة الفاطمية واحدا من أخلص وزرائها البارزين الذين أسهموا بجهد وافر فى رسم وتنفيذ سياستها الداخلية والخارجية ·

عيسى بن نسطورس :

لم يستوزر العزيز بالله الفاطمى احدا فى الوزارة بعد ابن كلس ، وانما أنشأ منصبا جديدا هو منصب « الوساطة » (١١٤) ·

ويأتى عيسى بن نسطورس فى مقدمة الذين تولوا منصب الوساطة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية قد اختلفت فى تاريخ تقليده الوساطة (١١٥) ، الا أنه من المرجح أن العزيز بالله قسم أعمال الوزير ابن كلس المتوفى فى سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م بين كبار رجال دولته ، وعهد بادارة الشئون المالية للبلاد الى عيسى بن نسطورس وهو نصرانى من أقباط مصر (١١٦) ، ثم ما لبث أن رفعه الى منصب الوساطة سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فأشرف على كل دواوين الدولة وأحكم سيطرته عليها ، « وخاطب سائر الكتاب عن العزيز ، وخاطبه سائر الأولياء وكافة

---

(١١٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٣٨ ·

ـ ابى السرور البكرى : عيون الأخبار ونزهة الابصار ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ٧٢ ، تاريخ بمكتبة مصطفى باشا ، ورقة ١٤٧ ·

(١١٥) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ ·

ـ العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٤٢١ ·

(١١٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٥ ·

الناس في مهماتهم وتوقيعاتهم » (١١٧) • كما عين العزيز بالله منشا ابن القزاز اليهودى نائبا له على الشام (١١٨)

واشتهر عيسى بن نسطورس بسياسته الحازمة ، وكفاءته الادارية ، وقدرته على ضبط وتحصيل الخراج (١١٩) • ويرى الانطاكى أن ابن نسطورس « رسم أيام نظره رسوما جائرة ، وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه » (١٢٠) بينما يقول Mann « وكان عيسى قاسى القلب مرابيا ، خص نفسه بكل الأعمال المربحة، وزاد كثيرا من الضرائب » (١٢١) •

ومما زاد الطين بلة أن عيسى اتبع سياسة ادارية كانت على جانب كبير من الخطورة ، اذ تعصب لبنى ملته وعينهم فى الادارات والدواوين الحكومية ، وعزل الكتاب وجباة الضرائب من المسلمين (١٢٢) •

وفى الشام كانت فترة الأربع سنوات التى حكم فيها منشا دمشق عصرا ذهبيا بالنسبة ليهود الشام (١٢٣) ، اذ فتح أبواب المناصب العليا فى دواوين الشام أمام اليهود ، وقدمهم على غيرهم ، وأبعد المسلمين العاملين بالدواوين من الاشتغال بها ، وأغلق باب

---

(١١٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٨٣ •

(١١٨) Lane-Poale : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 119.

(١١٩) ابو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ •

(١٢٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٠ •

(١٢١) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

(١٢٢) ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ، ترجمة د• حسن حبشى ، الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ •

ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٣ •

(١٢٣) Mann : Op. cit., Vol. I, p. 19.

التوظف والعمل أمامهم (١٢٤) .

ولقد تركت هذه السياسة المتحيزة آثارا سيئة سوف نوضحها فيما بعـد .

فهـد بن ابراهيم :

ويأتى أبو العلاء فهد بن ابراهيم النصرانى ـ وهو من أبناء ريف مصر ـ كواحد من كبار موظفى الدولة الذين علا شأنهم كشخصية سياسية لها وزنها وتأثيرها فى سياسة الدولة الفاطمية ابان الفترة التى تولى فيها أبو الفتوح برجوان منصب الوساطة سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م (١٢٥) . اذ عول برجوان على كاتبه أبى العلاء فهد بن ابراهيم فى النيابة عنه ولقبه بالرئيس ، فقام بتدبير أمور الدولة وأحـكم سيطرته عليها (١٢٦) .

وأبدى فهد نشاطا كبيرا فى خدمة برجوان ، فكان يجلس فى الدهليز الأول بقصر الخلافة فى عهد الحـــاكم بأمر الله ينظر فى الشكاوى والتظلمـات للبت فيها (١٢٧) ، ثم يعرض على برجوان ما يحتاج الى العرض على الخليفة ، « فيخرج الأمر بما يكون العمل بـه » (١٢٨) .

---

(١٢٤) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى . مطبعة حيدر أباد ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ هـ ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .

ـ النويرى : المصدر السابق ، ج ٤٩ ،

(١٢٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(١٢٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(١٢٧) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٩ .

(١٢٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣ .

وقد استقامت أمور الدولة بمصر والشام أثناء وساطة برجوان بفضل جهود كاتبه أبى العلاء فهد (١٢٩) . ولما ازداد نفوذ برجوان واستبد بمقاليد الأمور وأصبح خطرا على الخلافة ، قتله الحاكم فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ (١٣٠) .

وبعد قتل برجوان استدعى الحاكم بأمر الله أبا العلاء فهد ابن ابراهيم وأمنه ، وقال له : « أنت كاتبى ، وصاحبك عبدى ، وهو كان الواسطة بينى وبينك ، وجرت منه أشياء أنكرتها عليه ، فجازيته عليها بما استوجبه ، فكن أنت على رسمك فى كتابتك ، آمنا على نفسك ومالك (١٣١) . ثم عقد الحاكم بأمر الله اجتماعا لكبار رجال دولته وكتابه ومعهم فهد وقال لهم : « ان هذا فهدا ، كان أمس كاتب برجوان عبدى ، وهو اليوم وزيرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم ، وتوفروا على مراعاة الأعمال ، وحراسة الأموال » ، فقبل فهد والحاضرون الأرض بين يدى الحاكم ، وأجابوا بالسمع والطاعة . ثم وجه الحاكم حديثه الى فهد قائلا له : « أنا حامد لك ، وراض عنك ، وهؤلاء الكتاب خدمى ، فاعرف حقوقهم ، وأجمل معاملتهم ، واحفظ حرمتهم ، وزد فى واجب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانته ، وتقدم بأن يكتب الى سائر ولاة البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان » (١٣٢) .

وعلى الرغم من أن قتل برجوان يعتبر بداية مرحلة جديدة فى

---

(١٢٩) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(١٣٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

ـ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣ .

(١٣١) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، الجزء الثانى ، تحقيق د. محمد حلمى أحمد ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٦ .

(١٣٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٦

خلافة الحاكم بأمر الله ، اذ بعد مقتله انتقلت اليه السلطة الفعلية في الدولة ، الا أن حديثه الذى وجهه الى كبار موظفى الدولة كان أمرا صريحا بالتزام الطاعة لفهد والتعاون معه فى تنفيذ سياسته الجديدة ، كما أن خطابه الى فهد يوضح الخطوط العريضة للسياسة العامة التى يجب أن تسير عليها أجهزة الدولة فى تلك المرحلة ، وحرصه على استمالة كبار رجال الدولة اليه ، وتكليفه فهد بشرح الأوضاع الداخلية فى البلاد والسبب الذى استحق من أجله برجوان عقوبة الاعدام ؛ وكان هذا التكليف بمثابة حملة اعلامية ضد رجل استقامت له الأمور فى فترة توليه منصب الوساطة فى الدولة ، اذ استمال المشارقة ، ورد من فصلهم ابن عمار من الكتاب الى وظائفهم وأبدى اهتماما خاصا بموظفى الدولة من الأقباط ، مما أدى الى استقرار العمل بالدواوين . كما لاقت سياسته الخارجية نجاحا كبيرا ، فقد عقد هدنة مع الروم سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م لمدة عشر سنوات ، تبودلت على أثرها الهدايا بين الحاكم بأمر الله والامبراطور البيزنطى .

لكن الحاكم بأمر الله لم ينس أن ينصب مع فهد رجل الدولة البارز الحسين بن جوهر ، ولقبه بقائد القواد ، يتقاسم السلطة والنفوذ مع فهد حتى لا ينفرد بأمور الدولة وسياستها ، أو خشية ازدياد نفوذه فيصبح خطرا على الخلافة . فكان فهد وابن جوهر يجلسان بقصر الخلافة وينظران فى الأمور ، ثم يدخلان وينهيان الحال الى الخليفة . غير أن فهد لقى حتفه فى ثامن جمادى الآخر سنة ٣٩٣ هـ عندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله (١٣٣) .

وتتضارب الروايات فى أسباب مقتل فهد . فيرى مؤلف

---

(١٣٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٥ .
– المقريزى : الخطط جـ ٢ ، ص ١٣ ، ١٤ ، ٣٠ .

« سير البيعة المقدسة » ان الحاكم بأمر الله ضرب عنق فهد ، وحرق جسده لانه لم يجبه الى اعتناق الاسلام بعد أن وعده بالمنزلة السامية والمنصب الرفيع (١٣٤) . وبينما يرى ابن القلانسى أن الحاكم بأمر الله قتل فهد نتيجة مؤامرة أحكم تدبيرها ابن العداس (والى ديوان الخراج) بالاتفاق مع أبى طاهر النحوى (والى ديوان الحجاز) اللذان وشيا به عند الحاكم،وأشارا الى الثروة التى جمعها،وما اقتطعه لنفسه من اقطاعات عديدة . ووعد الرجلان الحاكم بأمر الله بالعمل بدلا منه ان تخلص منه ، على أن يقوما بتوفير مبلغ ستة آلاف دينار كان فهد يأخذها لنفسه (١٣٥) . هذا بينما يذكر المقريزى أن السبب فى مقتل فهد هو تعصبه للنصارى ، وتمكينه اياهم من السيطرة على دواوين الدولة وأعمالها ، بالدرجة التى أصبح فيها « آفة على المسلمين وعدة للنصارى » (١٣٦) .

ونرى الأخذ برواية المقريزى ، بجانب رواية ابن القلانسى ، خلافا لما ذهبت اليه الرواية الكنسية . وحجتنا فى ذلك أن الحاكم بأمر الله عندما أسند منصب الوساطة الى فهد كان يعلم أنه على دين النصرانية ، وان الحاكم بأمر الله لم يدعه الى الاسلام أو يلزمه باعتناق الدين الاسلامى شريطة تقلده الوساطة ، كما هو واضح فى الخطاب الذى وجهه الى فهد أمام كبار رجال الدولة فى الاجتماع الذى سبق الاشارة اليه ، بل طالبه بحسن السياسة والتدبير ، وطالب الآخرين بالسمع والطاعة للرجل الذى أولاه ثقته . واذا كان الحاكم بأمر الله قد تعرض بالسوء لمعاونى فهد ولأخيه ، فذلك لسوء سياستهم (١٣٧) ، أما أولاد فهد ، فانه أمر أن ترد أموال أبيهم اليهم،

---

(١٣٤) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٥٥ .
(١٣٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(١٣٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .
(١٣٧) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦١ .

وأن تعاد اليهم سروجهم المحلاة وأمروا بالركوب بها (١٣٨) ، ثم أحضرهم الى قصره وخلع عليهم ، وأعطاهم مرسوم أمان بحمايتهم وصيانة دورهم وممتلكاتهم مع عدم التعرض لهم (١٣٩) ٠

منصور بن عبدون :

هو واحد من كبار رجال أهل الذمة الذين تولوا أرقى وظائف الدولة ٠ تولى ديوان الشام قبل توليه منصب الوساطة فى مصر ، ووصف بأنه « كان رجلا نصرانيا خبيثا جلدا » (١٤٠) ٠ وقد اشتهر بمقدرته الادارية والمالية ، ولمع نجمه فى دواوين الحكومة وأصبح مقربا من قصر الخلافة (١٤١) ٠ وفى الحادى عشر من صفر سنة ٤٠٠ هـ ، عقد الحاكم بأمر الله مجلسا بدار الخلافة حضره كبار رجال الدولة وأصحاب الدواوين وقرر تعيين منصور بن عبدون النصرانى فى منصب الوساطة وقرىء سجله على الحاضرين (١٤٢) ثم منحه بعد فترة قصيرة من وساطته لقب « الكافى » (١٤٣) ، وكتب له سجلا بذلك ٠٠٠ وحمل على بغلتين تكريما له (١٤٤) ٠ كما سمح له بالتوقيع عنه والنظر فى أمور الدولة (١٤٥) فجد ابن عبدون فى جمع أموال الدولة ومواردها مما جعل الحاكم بأمر الله يمتدحه بقوله:

---

(١٣٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٤٤ ٠

(١٣٩) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦١ ٠

(١٤٠) ــــــــ : المصدر السابق ، ونفس الصفحة ٠

(١٤١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ٠

(١٤٢) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٥
ـ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٦ ٠

(١٤٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ ٠

(١٤٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٨١ ٠

(١٤٥) ــــــــ : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٦ ٠

« ما خدمني أحد ولا بلغ في خدمته ما بلغه ابن عبدون »، ولقد جمع لي من الأموال ما هو خارج في أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار (١٤٦) . وقد أنشأ ابن عبدون أثناء توليه الوساطة ديوانا سماه « ديوان المفرد » تودع فيه الأموال المصادرة لمن يغضب عليه الخليفة أو يقتله أو يقبض عليه من كبار رجال الدولة، أو أية أملاك وأموال يرى الحاكم بأمر الله مصادرتها (١٤٧) .

غير أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عزل ابن عبدون في رابع المحرم سنة ٤٠١ هـ / ثامن عشر أغسطس سنة ١٠١٠ م لسوء أخلاقه وخبثه ، ولكيد أعدائه له بسبب ما كان بينه وبينهم من شحناء ، هذا بجانب نجاح الحسين بن جوهر في تحريض الحاكم بأمر الله عليه ، بالدرجة التي جعلته لا يكتفي بعزله ، بل ويأمر باعتقاله ومراجعة أعماله وحساباته ، ثم اعدامه في الشهر التالي ومصادرة أمواله (١٤٨) .

زرعة بن عيسى بن نسطورس

بعد أن عزل الحاكم بأمر الله ابن عبدون ، عين أحمد بن محمد القشورى الكاتب في منصب الوساطة . الا أنه في اليوم الرابع عشر من المحرم من نفس السنة قرر عزله ، وعين مكانه الكاتب

(١٤٦) ——— : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨٤
(١٤٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨١
— البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .
(١٤٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .
— ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٦٢ .
——— : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ص ٨٥

النصرانى زرعة بن عيسى بن نسطورس ، وأنعم عليه فى سابع ربيع الآخر من تلك السنة بلقب « الشافعى » (١٤٦) .

وظل زرعة فى منصبه حتى وفاته فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ . وكان قد استطاع بحسن ادارته ومهارته السياسية أن يحوز على ثقة قصر الخلافة ، كما كانت علاقتـه وطيدة برجال الجيش وكتاب الدولة (١٥٠) . فكان من القلائل الذين أفلتوا من سيف الحاكم بأمر الله ، على الرغم من أن المقريزى يذكر ان الحاكم بأمر الله تأسف لوفاته من غير قتل ، وقال : « ما أسفت على شىء قط ، أسفى على خـلاص ابن نسطورس من سيفى ، وكنت أود أن أضرب عنقه لأنه أفسد دولتى ، وخاننى ، ونافق على » (١٥١) .

صاعـد بن عيسى بن نسطورس :

يعتبر صاعد بن عيسى بن نسطورس ثالث فرد فى هذه الأسرة يلى الوساطة ، اذ سبق أن تولاها أبوه عيسى ، ثم أخوه زرعة من قبل . وقد تولى صاعد الوساطة فى آخر شوال سنة ٤٠٩ هـ ، وظل فى منصبه حتى قتل فى رابـع ذى الحجة من تلك السنة (١٥٢) . وعندما أسندت اليه الوساطة لقب « بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو اليدين » (١٥٣) .

---

(١٤٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ص ٣ ، ص ٤٩٠ .
ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٨٦ .
(١٥٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
(١٥١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٣ .
(١٥٢) ———— : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١١٤ .
(١٥٣) المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .

أبو نصر (أبو منصور) صدقة بن يوسف الفلاحي :

تولى الوزارة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، وكان يهوديا غير أنه اعتنق الاسلام وخلع عليه فى الحادى عشر من رمضان سنة ٤٣٦ هـ خلفا للوزير الحسين بن على الانبارى ٠ وقد ساعدته الأحداث الداخلية والظروف المحيطة بقصر الخلافة على أن يتبوأ هذا المنصب ، ذلك أنه فى أيام الحاكم بأمر الله كان يوجد اخوان من أصل يهودى أحدهما أبو نصر بن سهل التسترى وكان يحترف الصيرفة ، والثانى أبو سعيد (أبو سعد) ابراهيم وكان يشتغل بالتجارة ، وكانت أم المستنصر بالله جارية سوداء ، اشتراها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله من أبى سعيد ابراهيم ، وأنجب منها ابنه المستنصر (١٥٤) ولما صارت الخلافة الى ولدها قدمت أبا سعيد ، وما لبث أن أصبح ناظرا لديوان أم الخليفة ومن المقربين الى المستنصر ، وعلى صلة وثيقة بأمه التى كانت ذا نفوذ عظيم فى أوائل حكم ابنها (١٥٥) ٠

وحدث أن تولى ابن الانبارى الوزارة ، وساءت علاقته بأبى نصر وأخيه أبى سعيد التسترى الذى شكا الى أم الخليفة فحرضت ابنها المستنصر ضد ابن الأنبارى لعزله من الوزارة ، وتعيين أبى صدقة ابن يوسف الفلاحى مكانه (١٥٦) ٠

---

(١٥٤) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ١ ٠

ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ ٠

(١٥٥) ناصرى خسرو : سفرنامة د٠ يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٦٤ ٠

ـ ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١ ٠

ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٥ ٠

ـ على حسن الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٢ ٠

(١٥٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ ٠

وما أن تولى الفلاحى الوزارة حتى ظهرت أطماع أبى سعيد التسترى ونفوذه بصورة رهيبة ، اذ أشرف على الفلاحى الوزير ، ووقع تحت سيطرته بحيث لم يبق له معه أمر ولا نهى سوى الاسم وبعض التنفيذ (١٥٧) .

وبايعاز من أبى سعيد التسترى ، وبتحريض منه ، استطاع الفلاحى أن يكيد للأنبارى الوزير السابق ، ويتهمه بالاختلاسات المالية ، وينتقد سياسته السابقة ، حتى تمكن منه ، فقبض عليه وصودرت أمواله ، ثم قتل (١٥٨) .

غير أن الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى استطاع أن يتخلص من أبى سعيد فحرض الجند الأتراك عليه ، فاتهموه بدس السم لقائدهم ريحان ، وقتلوه ثم مثلوا بجثته ، وذلك فى الثالث من جمادى الأولى سنة ٤٣٩ هـ / السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٤٧ م ، وبهذا انفرد الفلاحى كلية بأمور الدولة . الا أن المستنصر بالله لم يرض عن هذا التصرف ، فأمر بتعيين أبى نصر التسترى ـ أخ أبى سعد ـ خزانة الخاصة ، وعين ولد أبى سعد فى أحد الدواوين (١٥٩) . كما أن أم المستنصر حقدت على الوزير الفلاحى وثارت عليه ، لاعتقادها أنه هو الذى دبر مؤامرة قتل أبى سعد ، ولم تزل تدبر له الدسائس وتكيد له ، حتى قبض عليه ، واعتقل فى خزانة البنود ، وانتهى أمره بقتله فى الخامس من المحرم سنة ٤٤٠هـ/ العشرين من يونيه سنة ١٠٤٨ م (١٦٠) .

---

(١٥٧) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١ .

ـ السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

(١٥٨) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ ، ٤٢٣ .

(١٥٩) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢ .

(١٦٠) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

وكان طبيعيا ابان الفترة التى ولى فيها الفلاحى الوزارة ان يقاسمه النفوذ أبو سعد التسترى فى الأيام الأولى من الوزارة ــ وهما اليهوديان الأصل ــ وأن ينحاز الرجلان الى بنى جنسهما ، ويعملان على تعيين اليهود فى وظائف الدولة واداراتها ، واضطهاد المسلمين (١٦١) ٠

وقد أعاد ذلك الى أذهان المعاصرين الصورة التى كانت عليها البلاد أيام وساطة عيسى بن نسطورس فى مصر ، ونائبه منشا بن القزاز فى الشام ٠

أبو على الحسن بن أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى :

تولى الوزارة فى الرابع من ذى الحجة سنة ٤٥٦ هـ ٠ وكان الرجل يهوديا ، ثم اعتنق الاسلام وحفظ القرآن (١٦٢) ، وأسند اليه الأشراف على بيت المال قبل أن يلى الوزارة ٠ وعندما تقلد منصب الوزارة لقب « بعلم الكفاة » وقد ظل فى منصبه حتى منتصف المحرم سنة ٤٥٧ هـ (١٦٣) ٠

أبو سعد منصور بن أبى اليمن بن سورس بن مكرواه بن زنبور :

كان أبو سعد منصور واحدا من كبار رجال الدولة الذين تقلدوا أرفع مناصب الدولة ٠ وقد كان أبوه ناظر الريف وهو على

---

(١٦١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ م ، ص ١٧٠ ٠

(١٦٢) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢ ٠

(١٦٣) السيوطى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٧ ٠

ــ مشرفة : المرجع السابق ، ص ١٤٢ ٠

دين النصرانية ، وظل ولده هذا على دينه ، فلما تقلد الوزارة اعتنق الاسلام ، وخلع عليه (١٦٤) ، غير أن النصارى ينكرون اسلامه (١٦٥) . وقد تولى الوزارة أياما قليلة ، ولقب بلقب « الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف لكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين » . غير أن الجند ما لبثوا أن طالبوه برواتبهم فوعدهم وطمأنهم ، ثم ما لبث أن هرب سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م تاركا منصب الوزارة بعد أن عجز عن تدبير الأموال اللازمة لرواتب الجند (١٦٦) .

---

(١٦٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(١٦٥) ابن ميسر ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(١٦٦) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

مشرفة : المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

أهل الذمة والدواوين الحكومية

كانت الدولة في عهد الفاطميين تدار بواسـطة الدواوين أو ما يسمى بفروع الادارة · واذا كنا قد رأينا فيما سـبق أن أهل الذمة قد تولوا أرفع مناصب الدولة مثل الوزارة والوساطة · فان الخلفاء الفاطميين جعلوا الدواوين تحت اشرافهـم المباشر · الا أنهم أبقوها في يد الموظفين المصريين وبخاصة أهل الذمة الذين تشير المصادر التاريخية الى استخدامهم في مختلف الدواوين ، وفي مناصب الدولة العليا ، والى زيادة عددهم عن ذى قبل (١٦٧) ·

فقد وجد في الذميين من تولوا رئاسة الدواوين وبخاصـة ديوان الانشاء والدواوين المالية ، كما تولوا ديوان الشام · وكان الفاطميون يعلقون أهمية كبرى على ديوان الانشاء الذى كان يعتبر من أهم دواوين الادارة المركزية والذى كانت مهمته تنفيذ أوامر السلطة العليا ، وكانت رتبه متوليه تلى مباشرة رتبة الوزير (١٦٨)،

---

(١٦٧) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، الاسكندرية ١٩٦٨ م ، ص ٢٩١ ·

(١٦٨) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١٠٤ ·

ولذلك كانوا لايختارون لهذا المنصب الا بلغاء الكتاب سواء أكان مسلما أم ذميا ، فلم يكن للدين دخل فيمن يتولى هذا المنصب (١٦٩) .

فقد كتب للعزيز بالله وزيره ابن كلس ، وكذلك أبو المنصور ابن سوردين النصرانى (ت صفر ٤٠٠ هـ) وهو من الذين كتبوا أيضا للحاكم بأمر الله (١٧٠) . وكان ابن سوردين محل ثقته ، وحامل سره ، ومؤتمن بسجلاته السرية واليه ينسب انشاء السجل الشهير الذى أصدره الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القدس (١٧١). كما تولى هذا المنصب فهد بن ابراهيم النصرانى ، فى عهد الحاكم بأمر الله قبل توليه منصب الوساطة (١٧٢) . كما كان ابن أبى الدم اليهودى أحد كتاب الانشاء فى عهده (١٧٣)

وعلى الرغم من أن معظم دواوين الحكومة قد سيطر عليها أهل الذمة وبخاصة النصارى (١٧٤) ، الا أن المصادر التاريخية لم تمدنا الا بأسماء قليلة للشخصيات التى تولت رئاسة بعض الدواوين :

ومن هذه الأسماء التى وصلت الينا ، ابن كلس الذى أشرف على ديوان الخراج سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م قبل توليه الوزارة (١٧٥) ، وعيسى بن نسطورس الذى أسند اليه العزيز بالله الفاطمى ادارة الدواوين بعد وفاة ابن كلس (١٧٦)

---

(١٦٩) مشرفة : المرجع السابق ، ص ١٥٤

(١٧٠) السيوطى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤١ .

(١٧١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٢ ، ص ٨١

(١٧٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(١٧٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٧٩

(١٧٤) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٥

(١٧٥) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥

(١٧٦) ابن خلدون : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٥٥ .

أما أبو غالب - أخ فهد بن ابراهيم - فقد تولى ديوان النفقات في عهد الحاكم بأمر الله . « وكان شريرا مبغضا » (١٧٧) . كما تولى أبو على الحسن بن أبي سعد التسترى بيت المال قبل توليه الوزارة (١٧٨) . أما الشيخ أبو زكريا يحيى ابن مقار النصرانى فقد تولى ديوان النفقات فى عهد المستنصر (١٧٩) .

وفضلا عن ذلك فقد سيطر أهل الذمة على وظائف الادارة المحلية (١٨٠) .

وقد نشـــأ فى العصر الفاطمى الأول بعض الدواوين ذات الطابع الخاص ، كديوان الخاص للمعز الذى تـــولاه ابن كلس والذى كان مشرفا على قصـــور الخليفة المعز وبلاطه . وديوان العزيزية فى خلافة العزيز بالله (١٨١) .

ويعتبر أبو سعيد التستري متولى ديوان أم الخليفة المستنصر من رؤساء الدواوين الخاصة الذين طغى نفوذهم على نفوذ الوزراء ، وقد ارتفع شأنه بعد وفاة الخليفة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م، وأصبح مقربا من الخليفة المستنصر ، ومؤثرا على أحداث الدولة كما سبق أن ذكرنا ، وبعد مقتل أبى سعيد فى سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م ، قلد المستنصر أخاه أبو نصر التسترى خزانة الخاص والجق ولدى أبى سعيد فى أحد الدواوين (١٨٢) .

---

(١٧٧) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(١٧٨) مشرفة : المرجع السابق ، ص ٢٦٢ .
- المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .
(١٧٩) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٧٣ .
(١٨٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .
- الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ورقة ٧٥ .
(١٨١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ .
(١٨٢) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢ .

وعلى الرغم من اختفاء أبى ســـعيد التسترى من المسرح السياسى بعد قتله على يد الجند الأتراك سنة ٤٣٩ هـ /١٠٤٨ م فان نفوذ أخيه أبى نصر هارون التسترى كان له أثره فى قصر الخلافة ، وظهر ذلك بوضوح عندما تدخل فى النزاع القائم بين الفاطميين وثمال بن صـــالح بن مرداس حول حلب ، والتمس أبو نصر العفو لثمال ، مما أدى الى غضب الوزير الحسين بن محمد، الذى اعتبر هذا تدخلا فى شئون اختصاصه وسياسته ، فأغرى به الخليفة المستنصر وأقنعه أن أبـــا نصر هارون يسعى فيما يضر الدولة ، فقبض المستنصر على أبى نصر سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م وصادر أمواله وعوقب حتى مات (١٨٣) ٠

ولم يقتصر الأمر عند تعيين أهل الذمة لرئاســـة الدواوين بالادارة المركزية ، بل عينـوا ولاة بالأقاليم ٠ ففى عهـــد المعز لدين الله نجد قزمان بن منا النصرانى على أعمال فلسطين ، وقد بلغت ثروة قزمان هذا على حد تقدير مؤلف « سير البيعة المقدسة » تسعين ألف دينار (١٨٤) مما يجعلنا نفترض أنه جمع تلك الثروة الطائلة بطرق غير مشروعة ٠

وقد أسند ديوان الشام الى عيسى بن نسطورس قبـــل توليه الوســـاطة كما تولى هذا الديوان أكثر من واحد من أهـــل الذمة ، فتذكر المصادر التاريخية أن منشأ ابن ابراهيم القزاز اليهودى كان نائبا على الشام فى عهد العزيز بالله الفاطمى ابان وساطة عيسى بن نسطورس وانه سلك اسلوبا لا يتفق وسياسة

(١٨٣) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ٣ ٠

ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ٠

(١٨٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤٤ ٠

الخليفة العزيز بالله نحو رعاياه مما أدى الى عزله والقبض عليه ومصادرته (١٨٥) ٠

أما منصور بن عبدون النصرانى فقد تولى ديوان الشام قبل توليه الوساطة فى خلافة الحاكم بأمر الله (١٨٦) ٠ كما تولى هذا الديوان يحيى بن سلامة النصرانى فى خلافة الحاكم أيضا (١٨٧) ٠
وكان يوسف بن على الفلاحى اليهودى من كبـــار الكتـــاب البلغاء الذين تولوا ديوان دمشق (١٨٨) ، وصحب ولده صدقة بن يوسف بن على الفلاحى جيش الفاطميين ناظرا فى الأموال ونفقـة الجيش تحت قيادة منجب الدولة سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م أثناء سيره لتأديب أمراء العرب من بنى الجراح والمرداسيين المنـاوئين للحكم الفاطمى فى بلاد الشام (١٨٩) ٠

وكانت النتيجة المباشرة لتولى أهـــل الذمة منصبى الوزارة والوســاطة ورئاستهم لمعظم الدواوين ، وانحيـــاز هؤلاء الوزراء والوسطاء ورؤساء الدواوين من أهل الذمة لبنى ملتهم ، أن اكتظت الدواوين الحكومية بالكتـــاب وصـــغار الموظفين الذميين الذين سيطروا على ادارات الدولة بصورة ملفتة للنظر ٠ ويذكر الانطاكى أنه فى عهد الحاكم بأمر الله « كان سائر كتابه وأصحاب خدمته وأطباء مملكته نصارى الا نفر يسير من الكتاب » (١٩٠) ٠

---

(١٨٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ٠
(١٨٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ ٠
ـ أبو صالح الارمنى : تاريخ الشيخ أبو صالح الارمنى ، طبعة اكسفورد سنة ١٨٩٤ م ، ص ٥١ ٠
(١٨٧) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦١ ٠
(١٨٨) ابن منسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢ ٠
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٦٦ ٠
(١٨٩) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٧٢ ٠
(١٩٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ٠

ومع ذلك فان بعض الكتـــاب المحدثين يذكر أن الحــاكم بأمر الله • قبل أن يترك عرشه قضى على نفوذ النصارى فى مصر ، ومنذ ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين فى الدولة (١٩١) •

والحقيقة أن صاحب هذا الرأى قد جانبه الصواب فيما ذهب اليه ، فقد استمر موظفو الدولة من أهل الذمة فى ممارسة وظائفهم الادارية والمالية فى عهد الحاكم بأمر الله ومن جـــاء بعده ، مع تشديد الرقابة عليهم وتوقيـــع العقوبات على المخالفين لأوامره ، وتحذيرهم من الرشوة والبراطيل (١٩٢) ، وهذا لايعنى القضاء على نفوذهم أو اهمالهم • ولعل أبلغ رد نقدمه لدحض هذا الادعاء ، والتأكيد على استمرار أهل الذمة فى وظائفهـــم وسيطرتهم على الادارة ، ما كتبه مؤلف « سير البيعة المقدسة » فى سياق حديثه عن عصر المستنصر بالله عندما يذكر أن « جميع مقـــدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى ، وهم الملاك النافذ أمرهم » (١٩٣) •

واذا كان الأقباط ـ بوجه خاص ـ قد احتكروا الوظـــائف المالية فى الدواوين وبخاصة ديوان الخراج ، لمعرفتهم بعلم الخراج والمامهم بالاعمال المالية (١٩٤) فان اليهـــود قد اشتهروا بأعمال الصيرفة واستغلوا ذلك لجمع الأموال لأنفسهم بطرق غير مشروعة ، مستندين الى الحماية التى توفرت لهم من قبل رؤسائهم الذين كانوا يتولون الوظائف الهامة بالدواوين ، فعلى سبيل المثال كانت الفترة

---

(١٩١) جاك ناجر : المرجع السابق ، ص ١٣٥ •

(١٩٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٥١ •

(١٩٣) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٧٥ •

(١٩٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٨٥ ، ٢٣٦ ، ٤٤١ •

التى تولى فيها منشأ ابن مقزاز نيابة الشام عصرا ذهبيا بالنسبة ليهود دمشق (١٩٥) .

ولم يكن سلوك معظم هؤلاء الكتاب الذين عملوا بالدواوين المالية سلوكا حسنا ، وليس من شك أن عددا غير قليل منهم لم يمارسوا أعمالهم بأمانة ، فتعرضوا للرقابة الصارمة من قبل الخلفاء أمثال العزيز بالله والحاكم بأمر الله ، بل ان الحاكم بأمر الله أصدر سجلا بتحذير موظفيه من أخذ الرشوة ، وطالبهم بتقديم كشف حساب لما فى حوزتهم من أموال وممتلكات وصادر أموال كل من يثبت اداتته وعدم أمانته ، كما طالب الخليفة العزيز بالله - من قبل - عيسى بن نسطورس بأن يستعين بالموظفين المسلمين فى ادارة الدواوين .

ولم يتخذ الخلفاء الفاطميون تلك الاجراءات الا حماية للرعية وتوفير أكبر قدر من الخدمة لها دون تفرقة بين ذمى ومسلم.

---

(١٩٥) Mann : Op. Cit., Vol. 1, p. 20.

الأطبـــاء من أهل الذمة

واذا كان الكثير من اليهود والنصارى قد اشتغلوا فى دواوين الدولة الفاطمية فان الخلفاء الفاطميين استخدموا اطباء من أهل الذمة فى قصورهم · ولا جدال فى أن وظائف الأطباء كانت من أعظم الوظائف وأعلاها فى ذلك العصر · فكان للخليفة الفاطمى طبيب يعرف بطبيب الخاص ، يجلس على باب دار الخليفـــة كل يوم ويجلس على الدكك التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة لمعالجة المرضى من الأقارب والخواص ، ويكتبون لهم تذكرة بما يلزمهـــم من أدوية الصيدليـــة الملحقـة بقصر الخلافة (١٩٦) ·

وكان لهؤلاء الأطباء المنزلة السامية ، والمكانة الرفيعة فى قصـــور الخلفـــاء ويلقون من مظاهر الاحترام والتكريم قدرا كبيرا (١٩٧) ، بجانب ما كانوا يتقاضـــونه من مرتبـات عاليـة مجزية (١٩٨) ·

---

(١٩٦) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ ·

(١٩٧) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ·

(١٩٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٩٢ ·

واشـــتهر فى العصر الفـــاطمى الأول موسى بن العيزار (العازار) الاسرائيلى الطبيب العالم الذى خدم الخليفة المعز لدين الله عند قدومه من المغرب ، وكان موضع تقدير المعز وثقته (١٩٩) ٠ كما التحق بخدمته ابنه اسحق بن موسى الطبيب ، وبعد أن وافاه أجله فى صفر سنة ٣٦٣ هـ ، عين المعز مكانه أخاه اســماعيل والابن يعقوب بن اسحق ، وكان ذلك فى حيــاة أبيهم وجـدهم موسى بن العازار ٠ وقد تفانى أفراد هذه الأسرة فى خدمة المعز ، فألف موسى بن العازار مؤلفات طبية على جانب كبير من الأهمية ، منها « الكتاب المعزى فى الطبيخ » ألفه للخليفة المعز ، وكتـــاب « الأقراباذين » و « مقالة فى السعال » ، كمـــا ركب الكثير من الأدوية (٢٠٠) ٠

ومن الذين عملوا فى خدمة العزيز بالله الطبيب أبو الحسن سهلان بن عثمان ابن كيسان ٠ وكان من النصارى الملكانية من أهل مصر الذين ارتفع شأنهم أيام العزيز ولم يزل له مكانته حتى وفاته فى عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م ٠ وكانت جنازته مهيبة ضخمة اذ شيعه كبار الدولة ورؤساؤها تكريما له (٢٠١) ٠

أما يوسف النصرانى الطبيب الذى كان عارفا بصـــناعة الطب ، ومن العلماء البارزين فى هذا الميدان ، فقد عينه الخليفة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس فى الســـنة الخامســـة من خلافته (٢٠٢) ٠

---

(١٩٩) القفطى : المصدر السابق ، ص ٣٢٠ ٠

(٢٠٠) ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٥ ٠

(٢٠١) ———— : نفس المصدر ، ص ٥٤٩ ٠

(٢٠٢) ———— : نفس المصدر ، ص ٥٤٥ ٠

وكان أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر النصرانى من الأطباء المشهورين والعلماء المرموقين الذين تمتعوا بمكانة رفيعة فى دولة الفاطميين ، ومن المقربين الى قصر الخلافة والبلاط الفاطمى وبخاصة فى أيام العزيز بالله ، اذ كان الخليفة يستطبه ويعمل بمشورته ويحترمه • وفى رسالة العزيز بالله الى ابن مقشر التى سبق الاشارة اليها ـ ما يلقى الضوء بوضوح على مكانة الأطباء من أهل الذمة فى قصور الخلافة (٢٠٣) •

وبلغ ابن مقشر فى عهد الحاكم بأمر الله أعلا المنازل وأسناها • وكان من خواصه ومن المقربين اليه ، فكان عندما ينصرف مجلس الحاكم بأمر الله كان ابن مقشر الطبيب يلازمه ساعات طويلة (٢٠٤) • وقد أجزل الحاكم بأمر الله له العطايا وكافاه بعشرة آلاف دينار عندما نجح ذات مرة فى علاجه من مرض ألم به (٢٠٥) •

ولما توفى ابن مقشر استطب الحاكم بأمر الله بعده أبا يعقوب اسحق ابن ابراهيم بن نسطاس النصرانى • وخلع عليه فى ربيع الأول سنة ٣٩٤ هـ ، وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة وأعطاه دارا بالقاهرة ، فرشت بأحسن الأثاث (٢٠٦) •

وأصبح ابن نسطاس من أطباء الخاص المقربين الى الحاكم بأمر الله ، واستطاع أن يقنعه بشرب النبيذ لما فيه من فوائد ، فاستدعى الحاكم المغنين وأصحاب الملاهى الى مجلسه ، وشرب على

---

(٢٠٣) انظر قبل ، ص ١٩ •

(٢٠٤) المقريزى : اتعاظ ، جـ ٢ ، ص ٣١ •

(٢٠٥) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ •

ـ ابن أبى السرور البكرى : المصدر السابق ، ورقة ١٤٨ •

(٢٠٦) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٨ •

غنائهم ، وخلع عليهم ، وأحسن لهم ، ولكن بعد وفاة ابن نسطاس في ســـنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م امتنع الحاكم بأمر الله عن كل هذا (٢٠٧) . ويذكر المؤرخون أن ابن نسطاس الطبيب ، كانت علاقته حسنة بكبار رجال الدولة الفاطمية ، وأنه حضر مجالسهم ، وزارهم في قصورهم ، وأكل على موائدهم ، ونادمهم . غير أنه لقي مصرعه غـــرقا في بركة ماء فاقد الوعي لكثرة ما شرب من الخمر ، وخاف خلانه ومن كانوا معه ـ أمثال الحسين بن جوهـر وأبو الحسن الرسي ، والمسيحي ، أن يخبروا الحاكم بأمر الله ، لمعرفتهم بمنزلته عنده . وقد شق على الحاكم بأمر الله خبر وفاته ، وأظهر الحزن والأسى لمصرع أنبغ أطبـــاء قصر الخلافة (٢٠٨) . وعندما التقطت جثته من الماء ، حملت الى الكنيسة في تابوت ، ثم شيعت جنازته في شوارع القاهرة ، وحول جثمانه سائر رجال الدولة في موكب جنائزي رائع على أضواء الشموع وبخور المداخن ، ثم أعيد الى داره فدفن بها (٢٠٩) .

وكان لابن نسطاس يد طولى في الموسيقى ، وانفرد بخدمة الحاكم بأمر الله في الطب فأثرى ، وترك ثـروة طائلة تزيـد على عشرين ألف دينار عينا ، سوى الثياب وغيرها من الممتلكات (٢١٠).

وبوفاة ابن نسطاس جعل الحاكم بأمر الله الطبيب صقر اليهودي من أطباء الخاص عوضا عنه وخلع عليه في سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، وأمر بحمله على بغلة تكريما له ، وأهداه ثلاث بغلات

---

٢٠٧) تاريخ الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٤ .

(٢٠٨) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢٠٩) المقريزي : اتعاظ ، جـ ٢ ، ص ٧٠ .

(٢١٠) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة .

بسرج ولجم محلاه ، ومنحه أفخم الثياب ، وأعطاه دارا لسكناه ، وزوده بكل ما يحتاج اليه ، وبلغت جملة هدايا الحاكم بأمر الله اليه عشرة آلاف دينار (٢١١) ٠

أما الطبيب الذى ذكرته كتب التراجم فى طبقات الأطباء ، ولم تعطنا اسـمه الحقيقى ، فهو الطبيب اليهـودى المسمى « الحقير النافع » الذى تمكن من تركيب دواء عالج به « جر[illegible] كان فى رجل الحاكم بأمر الله ، وكان أطباء الخاص بمـ[illegible] ابن مقشر وغيره قد عجزوا عن علاجه ، فلما تماثل الحاكم بأمر الله للشفاء ، أعطاه ألف دينار مكافأة له ، وخلع عليـه ، ولقبـه « بالحقير النافع » وجعله من أطباء الخاص (٢١٢) ٠

---

(٢١١) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٧٣ ٠

(٢١٢) القفطى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ٠

ــ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٩ ٠

موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين

وجد المسلمون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه ، فمعظم وظائف الادارة العليا في الدولة كالوزارة والوساطة ورئاسة الدواوين وولاية الأقاليم وأطباء الخاص في يد أهل الذمة ، الذين تعصبوا لبني ملتهم من اليهود والنصارى ، وعينوهم في كثير من فروع الادارة ، ومنعوا المسلمين أصحاب الأغلبية العظمى في البلاد من تولي تلك المناصب . وقد ترتب على ازدياد نفوذ الموظفين الذميين واغراق الدواوين بهم ، وبخاصة في خلافة العزيز بالله ، أن تولد شعور بالكراهية بينهم وبين الموظفين المسلمين ، وترك ذلك صداه في نفوس الرعية ، مما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أحد شعراء مصر ابان خلافة العزيز بالله أن يصور هذه الظاهرة بأسلوب ساخر ، فقال :

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل (٢١٣)

وفى الفترة التى تقلد فيها عيسى بن نسطورس ، ومنشا ابن ابراهيم ادارة الدواوين فى مصر والشام ، أصبح أهل هاتين الملتين يحكمان الدولة (٢١٤) . ولحق بالرعية من جراء تنصير الدواوين فى مصر وتهويدها فى الشام الضرر البالغ ، مما دفع المسلمين الى التذمر والاحتجاج ازاء سياسة هذين الرجلين اللذين أساءا الى الرعية (٢١٥) . ولعل فيما أورده الانطاكى عن عيسى بن نسطورس من أنه « قد رسم أيام نظره رسوما جائرة وأحدث مكوسا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه » (٢١٦) ، ما يوضح النتائج السيئة التى عانت منها الرعية بسبب ازدياد نفوذ الرؤساء النصارى وسيطرتهم على ادارة الدولة فى عهد الخليفة العزيز بالله .

بل تفاقم الخطر والأذى الذى حاق بالمسلمين فى مصر والشام ، وذلك لأن معظم السلطة والنفوذ كانت فى أيدى أبناء هاتين الطائفتين الذين جاهروا بروح العداء ازاء المسلمين (٢١٧) .

ويروى لنا النويرى أن بعض رؤساء المصريين كتب ورقة يعاتب فيها عيسى على قبح فعاله مع المسلمين ، وبالغ فيها ، فأجابه عيسى عنها بقوله : « [illegible] شر [illegible] متقدمة ، والدولة كانت لنا ، ثم صارت

---

(٢١٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، الجزء السابع ، القاهرة ١٢٥٣ هـ ، ص ١٧٦ .

(٢١٤) Mann : Op. Cit., Vol. I, p. 19.

(٢١٥) العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٤٦٦ .

(٢١٦) الانطاقى : المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٢١٧) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، الجزء الأول، ص ٤٨ .

اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة ، فمتى كان منكم الينا احسان حتى تطالبونا بمثله ، ان ما نعناكم قاتلتمونا ، وان سالمناكم أهنتمونا ، فاذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقعون أن نصنع بكم ٠ ثم تمثل فى آخرها ببيتين :

بنت كرم غصبوها أمها ... ثم داسوها هوانا بالقدم

ثم عادوا وأحكموها فيهم ... وأذاهيك بخصم قد حكم(٢١٨)

ورغم أن النويرى قد انفرد بذكر هذه الرواية ، فان معالم السياسة التى سار عليها ابن نسطورس فى مصر وابن القزاز فى الشام تؤكد روح التحيز والمساعدة بين بعض كبار الموظفين من اليهود والنصارى فى تلك الفترة ، الذين عملوا على التمييز بين أبناء الأمة الواحدة ٠ وتفتيت الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد ، الأمر الذى دفع المسلمين الى التذمر والاحتجاج ٠

وتنقل لنا المصادر التاريخية رواية خلاصتها أن امرأة اعترضت — ذات مرة — طريق العزيز بالله ودفعت الى مرافقيه برقعة ، واختفت بين الناس ٠ فأخذ العزيز بالله الرقعة ونظر فيها فاذا هى ظلامة جاء فيها : « يا أمير المؤمنين : بالذى أعز النصارى بابن نسطورس ، وأعز اليهود بمنشا بن ابراهيم ، وأذل المسلمين بك ، ألا نظرت فى أمرى وكشفت ظلامتى » (٢١٩) ولما طلب العزيز بالله المرأة لم يجدها ، ولما رجع الى قصره استدعى قاضى قضاته أبا عبد الله محمد بن النعمان ، وكان من خاصته ومن المقربين اليه ، فأعطاه ظلامة المرأة ، وطلب منه ابداء الرأى ٠ فقال

---

(٢١٨) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٠

(٢١٩) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩

ابن النعمان : « مولانا أعرف بوجه الرأى والتدبير » ، وتحـــرج أن يذكر له ما آلت اليه ادارة البلاد من سوء بالغ من جانب كبار الموظفين من أهل الذمة . فنظر اليه العزيز بالله وقال : « صـــدق كاتبها ، ونبهنا الى ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه » (٢٢٠) ، ثم أصدر أوامره بالقبض على ابن نسطورس والكتاب النصارى ، كمـــا ألقى القبض على منشا بن ابراهيم وجباة الضرائب اليهود فى الشـــام ، وأمر باسناد وظائف الدولة وادارة أجهزتها الى الكتاب المسلمين ، والا يعين أحد من أهل الذمة فى الدواوين (٢٢١) .

وتمضى بعض المصادر التاريخية فى سرد وقائع هذه الرواية ، فتذكر أن ست الملك بنت الخليفة العزيز بالله تدخلت لدى أبيها ، وعرضت عليه التماسا تقـــدم به عيسى بن نسطورس يعتذر فيه عما بدر منه ، فأعاده الخليفة الى منصبه بعد أن دفع غـرامة قدرها ثلاثمائة ألف دينار الى خزانة الدولة وبعد أن شرط عليه استخدام الموظفين المسلمين فى دواوين الدولة وأعمالها وألا يعين نصرانيـــا ولا يهوديا بهذه الدواوين (٢٢٢) .

وتكاد تجمع المصادر الاسلامية (٢٢٣) على ذكر هذه الرواية الخاصة بعيسى بن نســـطورس بصـــورة أو بأخرى ، بينما أغفلت المصادر النصرانية ذكرها ، وتفسير ذلك واضح لا يحتاج الى دليل .

---

(٢٢٠) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .
(٢٢١) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٣ .
(٢٢٢) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ورقة ١٥٤ .
(٢٢٣) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٣ .
ـ ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٥ .
ـ النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٩ .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على فهد بن ابراهيم النصراني وقتله في جمادى الثاني سنة ٣٩٣ هـ ، فان ذلك يرجع الى أن أبا طاهر النحوى الكاتب استطاع أن يبلغه شكوى الرعية من تضافر النصارى وغلبتهم على الدولة ، وتعصبهم وأن فهدا هو الذى يقوى شوكتهم ، ويسند اليهم أمر الأموال والدواوين ، وأنه « آفة على المسلمين وعدة النصارى » (٢٢٤) .

وفضلا عن ذلك فان أبا تغلب ـ أخ فهد ـ متولى ديوان النفقات كان شريرا مكروها من الرعية لسوء سياسته ، مما أدى الى مقتله هو الآخر بعد مقتل أخيه فهد بمدة قصيرة (٢٢٥) .

أما أبو سعيد التسترى اليهودى (ت ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) الذى كان مدبر أمور الدولة في الأيام الأولى بوزارة الفلاحى فى خلافة المستنصر بالله فقد استغل نفوذه وصلته بقصر الخلافة ، وألحق بمناصب الدولة الكثير من اليهود ، وولاهم الوظائف الكبرى. ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نال المسلمون كثيرا من الظلم والأذى على يديه ، بحيث أنهم كانوا يحلفون « بحق النعمة على بنى اسرائيل » ، مما دفع الشاعر المعاصر الرضى بن البواب أن قال :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر انى نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك(٢٢٦)

---

(٢٢٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ . ص ٣٠ .

(٢٢٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢٢٦) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢ .

ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

ـ السيوطى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٦ .

وقد شارك نصارى مصر اليهود فى تقلد أرفع المناصب فى خلافة المستنصر بالله مستأثرين بمعظم السلطة والنفوذ ، فكانوا هم « الملاك النافذ أمرهم » الذين انغمسوا فى حياة الترف والبذخ ، وجمع الثروات (٢٢٧) .

ولم يؤد ذلك الى كراهية المسلمين الذميين فحسب ، بل أدى الى وقوع البغض بنى ملتهم (٢٢٨) .

---

(٢٢٧) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٧٥ .

(٢٢٨) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة .

الباب الثانى

أهل الذمة والحياة الاقتصـادية

النشاط الزراعى لأهل الذمة

أهـــل الذمة والحياة الاقتصادية

النشاط الزراعى لأهل الذمة

عندما فتح العرب مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م أبقوا على أراضى مصر على حالها (١) ، اذ كتب عمرو بن العاص لأهل مصر عهدا بأنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم (٢) ، والثابت أن عمرا لم يقسم أراضى المصريين بل تركهـــا فى أيديهم وأمنهـــم عليها (٣) ٠ وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا (٤) كما نعم المصريون كغيرهم من أهل الذمة منذ تأسيس الدولة الاســـلامية بأكبر قدر من التسامح ، فكانوا يتصرفون فى الأراضى التى تحت أيديهم بالبيع والشراء والوقف ، كما كانـــوا يتملكون الأراضى بالشروط التى كان المسلمون يتملكونها (٥) ٠

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٩ ٠

(٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨ ٠

(٣) ـــــــــ : نفس المرجع ، ص ١٩ ٠

(٤) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠

(٥) سيد امير على : مختصر تاريخ العرب ، ص ٢٨١ ٠

فاذا انتقلنا الى عهد الأمان الذى أعلنـــه جوهر الصقلى على الشعب المصرى فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، فاننا لا نجد فيه ما يشير الى حدوث أى تغيير يذكر فى موقف الحكومة الفاطمية من الملكية الخاصة للمصريين بوجه عام (٦) ٠

وبموجب عهد جوهر الصقلى احتفظ قائد الجيش الفاطمى لمولاه الخليفة المعز لدين الله بالأوضاع السائدة وقتذاك ٠ وأقر باحترام مبدأ الملكية الخاصة للمصريين فى أموالهم المنقولة والثابتة نظير الطاعة ودفع الضرائب (٧) ٠

والأرجح أن كل ما حدث هو أن الفاطميين قد استولوا على كثير من أملاك الأسرة الحاكمة قبل عهدهم وكذلك على أراضى الدولة وهذا أمر طبيعى مع توزيع جزء من الأراضى العامة بالأنعام على غيرهم من الأتبـاع والمغـاربة أما على هيئة التمليك أو الانتفـاع بايرادها حتى يستمدوا ولاءهم ويحتفظوا باخلاصهم (٨) ٠

لكن أهم ما يخصنا فى عهد جوهر للمصريين تلك العبارة التى تعهد جوهر بموجبها بتوفير الأمان للجميع ، « واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه » (٩) ، فللمصريين « أمان الله التام العام الدائم المتصل الشـــامل الكامل المتجـدد المتأكد على الأيـــام وكرور الأعوام » (١٠) ٠

---

(٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠

(٧) مشرفة : المرجع السابق ، ص ١٩٣ ٠

(٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠

(٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ١٠٥ ٠

(١٠) ———— : نفس المرجع ، ص ١٠٦ ٠

والثابت أن جوهر لم يتعرض لأهل الذمة بسوء ، ولم يتعرض لأموالهم وأملاكهم ، ولم يقع عليهم أى ضرر يذكر ، وتمتعوا برعاية الدولة وحمايتها كغيرهم من المصريين · كما أنه لا يوجد فى المصادر التاريخية التى تناولت تلك الفترة مايشير الى أن جوهر قد تعرض للأراضى الزراعية والبساتين والحدائق التى امتلكوها فى أنحاء البلاد أو التى كانت فى حوزة الكنائس والأديرة أو الموقوفة عليها كما أن زراع هذه الأراضى لم تصبهم أية أضرار · وعندما طالبه المصريون بتجديد الأمان ، جدده لهم ، كما كتب لأهل الريف والصعيد أمانا ثالثا ونص فيه على اجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه (١١) ·

وبصفة عامة فانه يتضح من عقود البيع التى أوردها جروهمان والتى يرجع تاريخها الى العصر الفاطمى ، أن الأملاك العقارية التى امتلكها أهل الذمة قد امتلكوها رقبة ومنفعة وأنهم تصرفوا فيها بالبيع والشراء وفق مصالحهم وبحرية تامة (١٢) ·

وعلى الرغم من أن العرب نزلوا الى ريف مصر وسكنوه مع سكانه الأصليين ، الا أنه كان هناك كثير من القرى فى أنحاء مصر أهلها نصارى ، والعديد من القرى التى غلب على سكانها الأقباط (١٣) ، والواقع أن معظم قرى مصر لم تخل من السكان الأقباط مهما كانت نسبتهم الى عدد السكان ·

---

(١١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٠٧ ·

(١٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ١ ، ص ١٣٢، ١٣٣ عقد بيع أملاك عقارية رقم ٥٤ ·

(١٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٥٠

ـ الصفدى : تاريخ الفيوم وبلاده ، ص ١٣ ·

وفى المدن الكبيرة ـ كأسيوط مثلا ـ التى يغلب على سكانها الفلاحون من الأقباط ـ تنتشر الأراضى الزراعية الواسعة الجيدة الخصوبة ، اذ يذكر ياقوت ان بأسيوط « ثلاثون ألف فدان فى استواء الأرض ، لو وقفت فيها قطرة ماء لانتشرت فى جميعها ولا يظمأ فيها شبر (١٤) ، وهذه اشارة الى صلاحية هذه المساحات الواسعة للزراعة وسهولة ريها ٠

وقد اقطع الخلفاء الفاطميون كبار رجال دولتهم من أهل الذمة انعاما وتقديرا ـ الاقطاعات الواسعة ٠ فالثابت ان الخليفة العزيز بالله أقطع وزيره الكفء يعقوب بن كلس اقطاعات كبيرة فى مصر والشام مبلغها ثلاثمائة ألف دينار ، وعندما مات ابن كلس ترك من الأموال والأملاك والضياع والرباع الشىء الكثير ضمن ثروة تقدر بأربعة ملايين دينار (١٥) ٠

كما أن فهد بن ابراهيم الذى تولى منصب الوساطة فى عهد الحاكم بأمر الله اقتطع لنفسه اقطاعات عديدة ضمن ثروة طائلة كانت سببا لأن يتخذها خصومه ـ ضمن أسباب أخرى ـ ذريعة للفتك به (١٦) ٠

وتحدثنا كتب الرحالة والجغرافيين والمؤرخين عن كثرة الأراضى الزراعية والبساتين التى حول الأديرة ، وكذلك تلك التى فى حوزة الكنائس ، فأشاروا الى كثرة المزارع والبساتين التى

---

(١٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥١ ٠

(١٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٥ ٠

ـ المناوى : المرجع السابق ، ص ٨٣ ، ٨٦ ٠

(١٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ ٠

حول دير طور سيناء (دير ســـانت كاترين) (١٧) ، وعن كثرة الأملاك الموقوفة على دير أنبا أندونة بشرقى أطفيح حيث كان له « بمصر وقوفات وأملاك عدة » ، كمـــا كانت له بأطفيح أملاك وبساتين (١٨) ، كذلك كان لدير سملوط بالأشمونين وقف من الخلفاء مساحته عشرون فدانا بالاضافة الى بســتان كبير مملوء بأشجار الفاكهة وأنواع الأشجار الأخرى (١٩) أما الدير المعروف بشهران فكان له بستان مساحته ستة أفدنة وأراضى زراعيـــة ، ويذكر الشيخ أبو صالح فى مؤلفه أن الحاكم بأمر الله كان كثير التردد عليه والنزهة فيه (٢٠) ٠

وحقيقة الأمر أنه كان هناك الكثير من الأراضى الزراعيـــة والبساتين الموقوفة على الأديرة ـ والثابتة فى حساب الدواوين ـ للصرف منها على الرهبان ومتطلبات هذه الأديرة (٢١) ، كتلك الأراضى الزراعية الموقوفة على دير طور سيناء فى اقليمى مصر والشـــام (٢٢) ٠

وبوجه عام فان معظم كنائس وأديرة مصر كانت فى حوزتها أراضى زراعية بمساحات شاسعة لدرجة أن أحد التجـار الأقباط بمدينة قفط أوقف على أحد الأديرة بهـــا أربعين زوجـا من البقر لتدور فى السواقى الملحقة بأراضى الدير لريها (٢٣) ٠

---

(١٧) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٩ ٠

(١٨) ابو صالح الأرضى : المصدر السابق ، ص ٦٩ ٠

(١٩) ـــــــــــ : نفس المصدر ، ص ١١١ ، ١١٢ ٠

(٢٠) ـــــــــــ : نفس المصدر ، ص ٦٠ ٠

(٢١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الامصار ، جـ ١ ٠ ص ٣٨٤ ٠

(٢٢) عبد اللطيف ابراهيم : فى مكتبة دير سانت كاترين ، مستخرج من « مجلة جامعة أم درمان الاسلامية العدد الاول ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ٠

(٢٣) أبو صالح الأرضى : المصدر السابق ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ٠

واطمأن الذميون على ما بيدهم من أملاك نظـــرا لسياسة التسامح التي اتبعها الخلفاء الفاطميون في هذا العصر ازاء أهل الذمة ـ باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله . وكيف لا ينعم الفلاحون والملاك من أهل الذمة ـ خاصة الأقباط ـ بالمعاملة الطيبة والاطمئنان على أملاكهم في ظل حكومة تولى رئاسة دواوينها وسيطر على ادارتها لفترات طويلة وعديدة كبار رجـــال الدولة من أهل الذمة ، مع انحياز هؤلاء الموظفين الى بنى ملتهم بصورة لفتت أنظار خاصة وعامة المسلمين (٢٤) .

على أن أملاك الكنائس والأديرة وأوقافها وأحباسها تعرضت للمصادرات العديدة ابان الفترة التي تشدد فيها الحاكم بأمر الله مع أهل الذمة ، وقد يكون سبب هذه المصادرات توتر العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية وبين الدول المسيحية التي لهـــا علاقات سياسية واقتصادية ودينية مع مصر (٢٥) ؛ وقد يكون سبب ذلك غضب الحاكم بأمـــر الله على أهل الذمة من موظفي الدواوين الذين أساءوا استخدام السلطة (٢٦) ، كما صودرت بعض المحاصيل كمزارع الكروم الذى كثرت زراعتـــه في أراضي الأديرة والكنائس خوفا من أن تصنع خمرا أو نبيذا (٢٧) .

ففي سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م صادر الحاكم بأمر الله جميع ما هو محبس على الكنائس وجعله في الديوان (٢٨) ، بينما أصدر أوامره في شهر رجب سنة ٣٩٨ هـ بوضع اليد على أوقاف الكنائس والأديرة الحديثة والعتيقة بمصر وجعلها باســـمه ، ثم أنفذ في

(٢٤) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٥٨ .
(٢٥) ـــــــ : نفس المرجع ، ص ٩٦ .
(٢٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .
(٢٧) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٧ .
(٢٨) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٥ .

شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ الى مدينة دمياط من وضع يده على أوقاف الكنيسة المعروفة بكنيسة العجوز ، وفى سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م أقطع أملاك الكنائس والأديرة لعساكر جيشه ووهبها لهم ، كما صادر أملاك كنائس القلزم ودير راية ودير طور سيناء وأعطاها لبعض خواصه (٢٩) ، ثم وهب في ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ رباع الكنائس وأملاكها ومالها من حاصلات لجماعة من الصقالبة والفراشين والسعدية (٣٠) ومرة أخيرة فى سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧ م يأمر بمصادرة أملاك الكنائس والأديرة وأوقافهما وأحباسهما وتوزيعها على المسلمين (٣١) .

غير أن الحاكم بأمر الله تراجع في أواخر أيامه عن هذه السياسة المتشددة وأصدر عدة مراسيم كانت لها أهميتها بالنسبة لأملاك الكنائس والأديرة .

ففى ربيع الآخرى سنة ٤١١ هـ أصدر مرسوما برد الأوقاف والأملاك التى كانت محبسة على دير القصير من ضيعة ومزرعة ومنية وأرض ونخيل وبستان وأشجار وحدائق فى سائر أنحاء الدولة ، وأمر بالمسامحة بما يجب لبيت مال المسلمين على هذه الأوقاف من خراج وعشر ومغارم « وفاء بالذمة » (٣٢) .

كما رد ما أخذ من أوقاف كنائس وأديرة بيت المقدس وكنيسة لد وفقا لمرسوم أصدره فى جمادى الأخرى سنة ٤١١ هـ بناء على التماس تقدم به البطريرك نقفور بطريرك بيت المقدس ، وأمر بنشر هذا المرسوم فى جميع أنحاء الدولة ، وأعطى صورة من هذا المرسوم لكل من طلبه من الرعايا الذميين فى جميع أقاليم

---

(٢٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
(٣٠) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٦ ، ٥٧ .
(٣١) القضاعى : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ .
(٣٢) الانطاقى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

الدولة ، الا ما كان قد بيع ابان فترة مصادرتها خاصة في دمشق وجميع بلاد الساحل وصرف ثمنه في نفقات دار الخلافة للاحتياج لثمنه ، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين (٣٣)٠

أما بالنسبة لأملاك الموظفين الذميين من كبار رجال الدولة ، فان الحاكم بأمر الله كان يصادرها عندما يتعرض هؤلاء للمراجعة والحساب وتشير أصابع الاتهام الى اثرائهم بطرق غير مشروعة أو تشير الى سوء استغلال السلطة والنفوذ ٠

ومثالا لذلك نجد أن العزيز بالله الفاطمي صادر اقطاعات وأملاك وزيره ابن كلس عندما غضب عليه (٣٤) وعلى يد الحاكم بأمر الله لقى نفس العقاب ابن عبدون سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ، ومعه عدد من كتاب الدواوين ـ وغالبيتهم من الأقباط ـ ثم أخلى سبيلهم بعد ذلك (٣٥) كما صادر الحاكم بأمر الله أملاك بعض موظيفه من النصارى سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م ابان فترة تشدده في معاملته لأهل الذمة (٣٦) ٠

غير أن الحاكم بأمر الله وفقا لمرسومه الصادر في صفر سنة ٤٠٤ هـ عاد فسمح لأهل الذمة المهاجرين الى بلاد النوبة أو الحبشة أو بلاد الروم بأن يأخذوا معهم أموالهم ، وصرح لهم بالتصرف فيها حسب اختيارهم آمنين مطمئنين والسماح لهم ببيع أملاكهم وأمتعتهم التى ثقل عليهم حملها ، وأمر بعدم التعرض لهم بالأذى أو التفتيش « احسانا اليهم ، ورفقا بهم » (٣٧) ٠

(٣٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١

(٣٤) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ٠

(٣٥) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ٠

(٣٦) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٠٤ ٠

(٣٧) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٠٧ ٠

ثم ما لبث الحاكم بأمر الله أن أصدر فى سنة ٤١١ هـ ١٠٢٠ م مرسوما بالعفو العام شمل جميع النصارى بمصر يطمئنهم فيه على أملاكهم وأموالهم وما تحويه أيديهم ، فكان ذلك ضمانا بعدم الاعتداء عليهم وحماية لكافتهم فى جميع أرجاء الدولة (٣٨) ٠

ولم تتعرض ممتلكات أهل الذمة لأية مضايقات أو مصادرات فى عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، بل أن الظاهر لاعزاز دين الله أطلق ما بقى من أوقاف وأملاك الكنائس والأديرة التى لم تكن قد ردت اليها ابان خلافة الحاكم بأمر الله (٣٩) ٠ كما أصدر سجلا فى شهر المحرم سنة ٤١٥ هـ بأن يحفظ للرهبان اليعاقبة فى مصر ما لهم من « زرع وغلة وعوامل فى سائر النواحى » وأن تصان الأراضى الموقوفة على أديرتهم ، وذلك تأكيدا لسياسة التسامح الدينى التى نعموا بها فى عهود الخلفاء الفاطميين الأوائل فى مصر (٤٠) ٠

واذا كانت بعض المصادر تتحدث عن تعرض أملاك ومزارع وأوقاف الكنائس والأديرة وكذلك بعض أملاك الأقباط للمصادرة فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى وبخاصة فى وزارة اليازورى ٠ فالواقع أن حالة البلاد كانت سيئة بوجه عام خلال تلك الفترة ٠ فقد شملت الاضطرابات أحوال أهل الذمة والمسلمين على السواء ، نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية التى عمت البلاد فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (٤١) ٠

---

(٣٨) الانطاقى : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ ٠

(٣٩) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٣٥ ٠

(٤٠) Stern : Op. cit., p. 16.

(٤١) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ٠

ورغم أن الكنيسة قد تناقصت أملاكهـــا رويدا رويدا عبر القرون ، الا أن الكنيسة في مصر كانت تملك في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميـــلادى حوالى أحد عشر ألف ومائتين وخمسين فدانا من الأطيان ، على الرغم من المصادرات العديدة التى تعرضت لها (٤٢) ٠

وانتشر السكان من أهل الذمة في ريف مصر وقراها ، فقد كان الكثير من قرى الريف في مصر سكانها نصارى أو يغلب على سكانها الفلاحـون من الأقبـــاط (٤٣) ، وهؤلاء امتلكو الأراضى الزراعية والضياع والاقطاعات ، بجانب أراضى الكنائس والأديرة وما حولها من بساتين وحدائق وأراضى زراعيـــة يستغلها رهبان الدير (٤٤) ٠

وساهم الفلاحون من أهل الذمة بقـــدر كبير في الانتـاج الزراعى ، وأثروا وتأثروا بالسياسـة الزراعيـة لمصر في عصر الفاطميين ٠

فقد زرعت أملاكهم بالكثير من المحاصيل الزراعية كالقمح ، والكتان ، وقصب السكر ، والزيتون ، والخضروات ، والبقول ، بجانب بســاتين الفواكه مثـل الكـروم والرمان ، والتفـــاح ، والكمثرى ، والتين ، فضلا عن أشجار النخيل ، وزراعة عجائب

---

(٤٢) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، الطبعة الثانية ، ص ٢٣ ٠

(٤٣) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ٠

ـ ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٥٠ ٠

(٤٤) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ١٤٥ ٠

ـ أبو صالح : المصدر السابق ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٣١

الزهور والورود وغرس الأشــجار (٤٥) ، هذا بجانب المراعى الواسعة حيث اشتغل البعض من أهل الذمة برعى الأغنام (٤٦) ٠

ورويت هذه الأراضى اما بمياه النيل ، أو من العيون والآبار، كما وجدت السواقى الملحقة بأراضى الأديرة وأوقف على بعضهـا أعداد كبيرة من البقر لتدور فى تلك السواقى (٤٧) ٠

لكن هناك بعض المحاصيل التى تأثر انتاجها بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى مصر الفاطمية ومنها محصـول الكتان الذى انتشرت زراعته فى الأراضى الزراعية المنخفضة والتى تغمرها المياه أطول مدة (٤٨) ٠

فزرع الكتان فى مناطق الفيوم وأسيوط والمنيا والدلتا حيث تكثر مصانع النسيج ويكثر عمال النسيج من الأقباط ، وكان لابد من الاهتمام بهذا المحصول نظرا للاقبال الشديد على المنسوجات الكتانية التى زاد الاقبال عليها فى ذلك العصر (٤٩) ٠ واستتبع هذا العنـــاية بزراعة النيلة التى انتشرت زراعتها فى الصعيد

---

(٤٥) ابو صالح : المصدر السابق ، ص ٥١ ، ١١٣ ، ١٣٠ ، ١٣١ ٠
ـ الصفدى : المصدر السابق ، ص ١٣ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ١٠٧ ، ١١٦ ٠
ـ ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٩ ٠

(٤٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٥٠٥ ٠

(٤٧) ابو صالح : المصدر السابق ، ص ١٣١ ٠

(٤٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ٦٨ ٠

(٤٩) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ٠ تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م ، ص ٦٥ ٠

الأعلى (٥٠) وكان هذا المحصول لايقـــدر على زراعته الا أغنياء الفلاحين في الريف (٥١) ٠

أما قصب السكر فقد توسع المصريون في زراعتـه وخاصة في مناطق زراعته في الصعيد والفيوم حيث يكثر الفلاحون من الأقباط وحيث تكثر معاصر القصب (٥٢) ، وذلك لشدة الطلب على انتاج السكر والحلوى بسبب سياسة الحكومة الفاطمية التى كانت ترمى الى الاهتمام بالأعياد الدينية والمناسبات العديدة التى أدخلها الفاطميون أو بسبب التوسع في الاحتفال بهذه الأعياد مع اقامة الحفلات الفخمة في قصور الخلفاء والوزراء وكبـــار رجال الدولة ولســـد حاجات أفراد الشعب الذى أقبـــل بشغف على الاشتراك فى هذه الأعياد وتلك المناسبات (٥٣) ٠

على انه فى خلافة الحاكم بأمر الله صـــدرت عدة مراسيم تتعلق بمنع بيع العسل الأسود وكسر جرار العسل ورميها فى النيل خوفا من أن تصنع مسكرات (٥٤) ، فقل وجود العســـل واختفى من الأسواق وارتفع سعره لندرة وجوده (٥٥) ٠

---

(٥٠) سيده كاشف وحسن محمود : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ، ص ٢٢٩ ٠

(٥١) البراوى : المرجع السابق ، ص ٧٠ ٠

(٥٢) الصفدى : المصدر السابق ، ص ٢٣ ، ٢٩ ، ٦٣ ، ٧١ ٠

– البراوى : المرجع السابق ، ص ٧٠ ٠

(٥٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ٧٠

(٥٤) القضاعى : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ ٠

سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤٠٢

(٥٥) ابن أيبك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ ٠

ونعتقد أن مثل هذه الاجراءات قد أدت الى نقص المساحات المزروعة قصبا ، على أنه بانتهـــاء عصر الحاكم بأمـر الله ازداد الاهتمام بزراعة هذا المحصول الهام ، وليس أدل على ذلك من قول ناصري خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر باللـــه قوله : « وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا » (٥٦) ٠

واشتهر الريف المصري بكثرة مزارع الكروم (٥٧) ، واهتم الفلاحون الأقباط بزراعة الكروم في أراضيهم ، كمـــا اشتهرت أديرة النصارى بزراعة مساحات واسعة منه سواء داخل بساتين الأديرة أو بالأراضى التي فى حوزة هذه الأديرة لســد احتياجات الرهبان سواء للأكل أو صناعة الزبيب والخمور (٥٨) ٠

لكن هذا المحصول تعرض للابادة فى عهد الحاكم بأمر الله وفقا للقرارات الصارمة التى أصدرها ، فكثيرا ما قطعت أشجار العنب حتى لا يتخذ منه الناس خمرا (٥٩) ، ففي سنة ٤٠١ هـ عندما نضج محصـــول العنب وأخذ الناس فى ابتياعه واعتصـــاره سرا ، أمر الحاكم برمى المحصول فى النيل ومنع الناس من بيعه وأكله (٦٠) ، وفى العام التالى أمر بقطع أشجار العنب وحرث جميع مزارع الكروم بالأراضى المصرية ، ويبالغ النويرى فى ذلك بقوله أنه فى سنة ٤٠٣ هـ « قطعت كروم العنب بأسرها ورميت فى الأرض وديست بالبقر ، وجمع ما كان من الخمـــر بالمخازن

(٥٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٠ ٠

(٥٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٧ ٠

(٥٨) ابو صالح : المصدر السابق ، ص ٥١ ٠

— المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ٥٠٢ ٠

— زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٤

(٥٩) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ٩ ٠

(٦٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ٠

واهرقوا فى البحر » (٦١) ، وقد استتبع ذلك الغاء مكوس دار الفاكهة (٦٢) ؛ وكان معنى صدور قرار خاص بالكروم ومنتجاته أن قيودا قد فرضت على زراعة الكروم ٠

وبانتهاء عهد الحاكم بأمر الله ، رخص ابنه الخليفة الظاهر للناس بعصر العنب وشرب الخمور (٦٣) ، بل ان الظاهر نفسه اقبل على شرب المسكرات واباحتها (٦٤) ٠ ٠

ولم تصدر الخلافة فى عهد المستنصر ما يقيد زراعة الكروم ، بل عاد الاهتمام بزراعة هذا المحصول ، نظرا للتوسع فى انتاج الخمور مع عودة الاهتمام بالأعياد والمناسبات المختلفة ، واقبال الناس على شرب المسكرات (٦٥) ٠

(٦١) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٥٧ ٠
(٦٢) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٩٧ ٠
(٦٣) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤١٠
(٦٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ؛ ٣٥٤
(٦٥) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

النشاط الصناعى لأهل الذمة

شهدت مصر فى العصر الفاطمى الأول نهضة صناعية كبرى لم تشهدها البلاد قبل مجىء الفاطميين الى مصر ، فقد تنوعت الصناعات وزاد الانتاج ، واستحدثت الكثير من الصناعات ، كما اهتم الصناع المصريون باتقان الصنعة وجمال الفن (٦٦) ·

فقد توافر فى هذا العصر من الأسباب والظروف ما أدى إلى قيام نهضة صناعية كبرى ، اذ نعمت مصر فى ظل الخلافة الفاطمية بالاستقلال السياسى التام مما عجل بدفع عجلة التطور والتقـــدم بخطى ثابتة وسريعة لبناء صرح اقتصاد مصرى شـــامخ فى ظل خلافة قوية (٦٧) عملت على استتباب الأمن ونشر العدالة التى شملت جميع فئات الشعب (٦٨) ·

---

(٦٦) سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ ·

ـ مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، ص ١١٨ ·

(٦٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١

(٦٨) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ·

وكان معظم الصناع من المصريين سواء أكانوا ممن بقي على دينه من الأقباط أو ممن اعتنق الاسلام (٦٩) ٠

على أن سياسة التسامح الديني التي عاش تحت مظلتها أهل الذمة في مصر كانت من أهم العوامل التي أدت الى تقدم الصناعات وازدهارها ، اذ انصرف العمـــال الى أعمالهـم في أمن واطمئنان مما جعلهم يتفانون باخلاص في خدمة الدولة في شتى مجـــالات الانتاج الصناعي ، وخاصة أن الفاطميين حرصوا على توظيف مهرة الصناع الأقباط وغيرهم في دفع عجلة الانتاج الصناعي الى الأمام لبناء صرح اقتصادي مصري قوي يدعم سياسة الفاطميين ومركزهم في مصر (٧٠) ٠

ومن خلال نظرة فاحصة نجد أن أهل الذمة في مصر كانت في أيديهم معظم الصناعات المصرية ، وأن الصناع الأقباط كانـوا هم المهيمنين على تلك الصناعات ولهم كانت اليد الطولى في كثير من فنون ذلك العصر (٧١)

(أ) صناعة النسيج :

من الصناعات التي ازدهرت في مصر الفاطميـــة صـــناعة النسيج ، تلك الصناعة القوية التي حمل لواءها أقباط مصر لمدة طويلة (٧٢) ٠

---

(٦٩) سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٤٢ ٠

(٧٠) زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٨٠

ـ البراوي : المرجع السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ٠

(٧١) مرزوق : الزخرفة المنسوجة في الاقمشة الفاطمية ، ص ١١٨ ، ١١٩ ٠

(٧٢) حتى : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٧٤٧ ٠

وكانت صناعة النسيج تتمركز فى المدن التى كان الأقباط يشكلون فيهــا غالبيــة كبــرى ، ومن هذه المدن : تنيس ، والاسكندرية ، ودمياط ، وشطا ودبيق ، ودميرة ، وتونة ، والفرما ، والأشمونين ، والبهنسا ، وأخميم وأســيوط ، وغيرها من مراكز صناعة النسيج فى مصر الفاطمية (٧٣) .

وكانت المنسوجات الكتانية تنسج فى عديد من المدن المصرية لاسيما تنيس ، ودمياط ، وشــطا ، ودبيق ، ودميرة ، وتونه ، والبهنسا (٧٤) وبلغت أخميم درجة كبيرة فى صناعة المنسوجات خاصة الصوفية منها والحريرية (٧٥) ، أما أسيوط فكانت شهرتها صناعة المنسوجات الصوفية من الصوف المصرى الذى اشــتهر به الصعيد الأعلى ، وكانت منسوجات أسيوط الصوفية ذات ملمس ناعم حتى أن الانسان ليظن أن تلك المنســوجات مــن الحرير (٧٦) ، أما الثياب المنسوجة فى الاسكندرية فقد اكتسبت شهرة واسـعة وكانت تصنع فى أغلبها من الكتان (٧٧) .

واتخذ الفاطميون من المنسوجات الفاخرة التى اشتهرت بها مصر وسيلة لتحقيق مكاسب سياسية ودينية ، وذلك بنسج عبارات خاصة على الملابس تشيد بمركزهم الدينى والسياسى ، وكان الاكثار من توزيع الكسوات على رعايا الدولة وغيرهم يساعد الى حد كبير على

---

(٧٣) المقدسى : المصدر السابق ، ص ١١١ .
- المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .
- زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٧٤) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٧٥) ابن ظهيرة : المصدر ، ص ٦٣ .

(٧٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ١١٧ .

(٧٧) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٢ .

تحقيق هذه الأهداف ، فلقد كانت الخلافة الفاطمية تسعى من وراء ذلك الى مكاسب أدبية ومادية باستمالة الناس واجتذاب قلوبهم واكتساب الرأى العام اليهم عن طريق الانعام والتكريم لرجالاتها (٧٨) ٠

ومما ساعد على تقدم صناعة النسيج تلك العلاقات التجارية النشطة بين مصر والبلاد الأجنبية ، وكثرة الطلب على مختلف أنواع النسيج المصرى (٧٩) ، هذا فضلا عن اهتمام الدولة بالاشراف الدقيق على هذه المصانع (٨٠) ، واهتمامها بتوفير الخبرة المدربة ، وتوفير الظروف الملائمة للصناع الأجانب الذين كانوا يعملون بها (٨١) ، كما كان الخلفاء الفاطميون يشجعون عمال النسيج المهرة بمنحهم المكافآت التشجيعية ٠ ويذكر ناصرى خسرو على سبيل المثال : « أن عاملا نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى » ، مكافأة له لدقة صنعتها وجمال منظرها (٨٢) ، كما اهتم كبار رجال الدولة بتشجيع هؤلاء الصناع مما أدى في النهاية الى زيادة الانتاج وحسن الصنعة (٨٣) ٠

ولقد اهتمت الدولة بهذه الصناعة نظرا لأهميتها للاقتصاد المصرى ولبيت مال الدولة نظرا لما يجبى عليها من ضرائب (٨٤) ٠

---

(٧٨) البراوى : المرجع السابق . ص ١٢٦ . ١٢٧ ٠
- زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٧ ، ١١٨ ٠
(٧٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ٠
(٨٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣١ ٠
- سميكة : دليل المتحف القبطى ، ج ١ ، ص ١١٨ ٠
(٨١) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤٣ ٠
(٨٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ ٠
(٨٣) زكى محمد حسن : المصدر السابق ، ص ٨٠ ٠
(٨٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٠ ٠

وقد ساعد توفر خامات النسيج فى مصر على ازدهار هذه الصناعة . فالكتان تتوفر زراعته فى ريف مصر ، والصوف المصرى يتوفر فى مناطق الفيوم وأخميم ، وأسيوط لكثرة تربية الأغنام على أيدى القبائل العربية التى نزلت وسكنت فى تلك المناطق (٨٥)٠

لكل هذه العوامل ازدهرت صناعة النسيج ، وأنتج النساجون الأقباط أفخر أنواع المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية التى ليس فى « جميع الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة » (٨٦) ، وبلغت تلك المنسوجات درجة من الرقى أذهلت المؤرخين والرحالة الذين زاروا مصر فى هذه الفترة (٨٧) ، وقد حملت هذه المنسوجات الكثير من أسماء المدن المصرية التى صنعت بها ، فهناك الثياب التنيسية ، والشطوية ، والدمياطى ، والدبيقى (٨٨) والشرب الاسكندرى (٨٩) ، والقماش القيسى والبهنساوى (٩٠) ٠

فقد اكتسبت مدينة تنيس على سبيل المثال شهرة عالمية بفضل مهارة عمال النسيج الأقباط الذين عرفوا « بحسن زيهم ولطافة صناعتهم (٩١) ، فقد أضفوا على مدينتهم مكانة مرموقة بين المدن

---

(٨٥) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ ٠
ـ البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٥ ٠
(٨٦) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ٠
(٨٧) المقدسى : المصدر السابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ٠
ـ ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ ، ٧١ ٠
(٨٨) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٥ ، ص ٧٩ ٠
(٨٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٦٢ ٠
(٩٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤
(٩١) ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٨ ٠

الصناعية الكبرى فى ذلك العصر · ولا يبالغ ناصرى خسرو عندما يذكر « أن سلطان الروم كان أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على ان يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان ، وكان عقده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » (٩٢) ، وهما من أهم وأفخر منسوجات تنيس ·

واذا كانت هذه مكانة مدينة تنيس التى كانت تضم حوالى الخمسين ألف نسمة من السكان (٩٣) وآلاف المناسج ، فماذا عن دمياط التى كانت « أحذق صناعا وأرفع بزا ، وأنظف عملا » (٩٤) ·

وأما أسيوط فكان يصنع بها « عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم (٩٥) ، هذا بينما كانت تصدر منسوجات أخميم الى أقصى البلاد » (٩٦) ·

ولا يسعنا أمام مهارة هؤلاء النساجين وجودة صناعتهم الا أن نذكر أهم أنواع تلك المنسوجات التى أنتجتها آلاف المصانع التى عمل بها الصناع الأقباط ومنها :

الدبيقى :

وهو ذلك النسيج الحريرى الذى ينسب الى قرية دبيق ، التى اشتهرت بالثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة التى كان يبلغ طول العمامة منها ذراع وتبلغ قيمتها خمسمائة دينار سوى الحرير

---

(٩٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ ·

(٩٣) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ ·

(٩٤) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ·

(٩٥) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٧٠ ·

(٩٦) ابن ظهيره : المصدر السابق ، ص ٦٣ ·

والغزل (٩٧) ، كما كانت الثياب الدبيقية من أهم منسوجات مدينة أسيوط التى غلب على سكانها الأقباط (٩٨) ·

ولشهرة الثياب الدبيقية (الدبيقى) أطلق هذا الاسم على منسوجاته أخرى مثل الدمقس والنسيج الحرير المشجر والثياب الكتانية ، ولجودة الثياب الدبيقية أطلق هذا الاسم على احدى قرى بغداد اسم دبيقية ، وكانت منسوجاتها تباع على أنها من انتاج مصانع دبيق المصرية ليقبل الناس على شرائها (٩٩) ·

القصـــب :

وهو نسيج من الكتان يمتاز بالنعومة الفائقة ، وكان ينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ودوقايات ومما يلبس النساء ، ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة ما غير تنيس (١٠٠) ، أما القصب الأبيض فقد اشتهرت بصناعته مدينة دمياط ، ويبلغ قيمة الثوب الأبيض وليس فيه ذهبا ثلاثمائة دينار (١٠١) ·

الشرب :

ويطلق على هذا النسيج اسم الشرابى ، وهو نوع من الحرير أو الكتان النقى الفاخر ، واشتهرت مدينتا دمياط وتنيس بصناعة أجود أنواع الشروب الفاخرة (١٠٢) ·

---

(٩٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ·
(٩٨) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ ·
(٩٩) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ·
ـ البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ ·
(١٠٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ·
(١٠١) ابن ظهيرة : المصدر السابق ، ص ٥٣ ، ٥٤ ·
(١٠٢) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص ١٤٣ ·
ـ كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، تحقيق د· سعد زغلول ، ص ٨٧ ·

كما كان الصناع الأقباط يصنعون بدبيق العمائم الشرب المذهبة وفيها رقمات منسوجة بالذهب · وقد استحدثت هذه العمائم لأول مرة فى خلافة العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥ م (١٠٣)، وكان فى « ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا يقال لها الشرب ، كل زنة درهم فضة ، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة » (١٠٤) ·

البدنـــة :

وهو اسم ذلك الثوب الثمين الذى كان يصنع للخلفاء ، ويقوم بصناعته نساج مهرة تخصصوا فى صنع ملابس الخلفاء ، ولا يدخل فى هذا الثوب من الغزل ـ سداء ولحمة ـ غير أوقيتين ، وفيه من الذهب أربعمائة دينار ، قد أحكمه صانعه باتقان بالغ بدون حاجة الى تفصيل أو خياطة غير الجيب والنبائق ، ويبلغ قيمة الثوب الألف دينـــار (١٠٥) ·

وكان ثياب البدنة ينسج فى مصانع الحكومة ، ولا يصرح ببيعه ، ولقد حاول أحد ملوك فارس أن يشترى بدنة فأرسل أعوانه الى تنيس بعشرين ألف دينار لكى يحصل على ثوب من البدنة ، فمكثوا بتنيس عدة سنوات ، ولكنهم فشلوا فى الحصول على بدنة واحدة من كسوة الخلفاء (١٠٦) ·

---

(١٠٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ·

(١٠٤) ــــــــ : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٢

(١٠٥) كتاب الاستبصار : ص ٨٧ ·

(١٠٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨

القبـــاطى :

وهو نسيج من الكتان أو التيل ، وكان العرب يطلقون على المنسوجات اسم القباطى ، ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية نســـبة الى قبط مصر الذين اشـــتهروا بمهارتهم فى صـــناعة النسيج (١٠٧) ، ومن القباطى البيض كان ينسج أجزاء من كسوة الكعبة (١٠٨) .

البوقلمـــون :

أحد أنواع المنسوجات التى اشـــتهرت بها مصر وبخاصة مصانع النسيج فى تنيس ، ويذكر ناصرى خسرو أن البوقلمون لم يكن ينسج فى مكان آخر فى ذلك العصر الا فى مدينة تنيس . وهذا القماش يمتاز بألوانه البراقة ، ويظهر فى ألوان مختلفة حسب تعرضه لضوء الشمس والوضع الذى يكون فيه واختلاف ساعات النهار ، وكان يصدر الى جميع بلدان الشرق والغرب لشدة الطلب عليه (١٠٩) .

العتـــابى :

وهو أحد أنواع المنسوجات الحريرية ، وكان هذا النوع ينسج بمدينة بغداد حيث كانت تنسج العتابية ، ثم استحدث هذا النسيج فى مصر وصنع فى عصر الفاطميين (١١٠) .

---

(١٠٧) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٣٤٩ .

(١٠٨) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ٢٩٠ .

(١٠٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ .

وسمى البوقلمون ايضا باسم القلمون ، وسماها بعض المؤرخين ابو قلمون وكتبها آخرون قليمون وهى لغة يونانية الاصل ، وهذا النسيج صنع فى بلاد اليونان ثم انتقلت صناعته الى مصر (نقولا يوسف ـ المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

(١١٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤

وكان للاتصال التجارى مع البلاد المجاورة وسفر بعض المصريين الى تلك الدول ، ومجىء التجار الأجانب الى مصر أثره الكبير فى تشجيع الصناع على اقتباس أنواع ممتازة وتقليد أجود أنواع الأقمشة التى كانت ترد الى البلاد المصرية مما يتفق وميول الفاطميين والشعب المصرى . ولذلك عرفت مصر فى العصر الفاطمى أنواعا جديدة من المنسوجات ، مثل الخسروانى ، والطميم ، والأرمنى ، والكردوانى والسندسى ، والتى تدل بعض أسمائها على أصلها الأجنبى (١١١) .

وقد اشتهرت تنيس بعمل قماش الخيام (١١٢) ، كما اشتهرت الفيوم بصناعة الخيش ، وسمالوط بعمل المنسوجات من شعر الماعز، والاسكندرية بالحرير السكندرى (١١٣) .

وكان الرهبان بالأديرة ينسجون الأقمشة ويحيكونها وفقا لاحتياجاتهم من أنواع الصوف والكتان اللازمين لعمل الملابس الخاصة بهم ، كما أن الراهبات اشتغلن بتطريز الملابس الكهنوتية ، وكذلك أفخر الملابس اللازمة لدفن الموتى كما جرت به عادة الأقباط عند دفن موتاهم (١١٤) .

واذا كان الخلفاء الفاطميون قد انشأوا دور الطراز « مصانع النسيج » فى كثير من المدن المصرية ، وأنهم استخدموا الصناع الأقباط فى هذه الدور ، فقد قامت الى جانب دور الطراز الحكومية مصانع أخرى خاصة لنسج الأقمشة التى يستعملها القبط (١١٥) .

---

(١١١) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(١١٢) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

(١١٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(١١٤) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(١١٥) ديماند : الفنون الاسلامية ، ص ٢٨ .

واهتم الصناع الأقباط بالزخرفة المنسوجة على الأقمشة فى العصر الفاطمى الأول ، وكانت أهم الألوان المستعملة وبالذات على الأقمشة الحريرية الأزرق والأسود والأحمر والأصفر والبنى والأخضر . وكانت الوحدات الزخرفية هى بعينها تلك الوحدات التى كان يستعملها النساج قبل العصر الفاطمى ، وكل ما هنالك من فرق هى أنها صارت ترسم بدقة ومهارة تدل على رقى الذوق وتقدم الفن (١١٦) .

واشتملت هذه الوحدات الزخرفية على رسوم حيوانات أو طيور أو أشكال آدمية (١١٧) ، على نساجى هذا العصر كانوا أميل الى استخدام صور الحمامة فى زخرفة المنسوجات فأكثروا من رسمها وتفننوا فى وضعها ، وترجع أسباب تفضيل هذا الطائر على غيره الى أن معظم عمال النسيج كانوا من الأقباط ، وأن هذا الطائر كان محببا اليهم ، ويرمزون به الى الروح القدس ، أو الى أنه ربما تكون هناك ثمة علاقة وطيدة بين الاكثار من استعماله فى الزخرفة وبين سياسة التسامح الدينى التى عاش تحت مظلتها جموع أهل الذمة فى ذلك العصر (١١٨) .

وكان الاتجاه العام فى زخرفة المنسوجات فى بداية العصر الفاطمى الأول يرمى الى العناية بالزخارف الخطية التى كانت تمتاز بجمالها وتنوعها ، بحيث يكون للزخرفة الخطية مكان الصدارة على الأقمشة ، ثم تأتى زخرفة الرسوم فى المحل الثانى ، الا أنه فى خلافة الحاكم بأمر الله وزعت العناية بين الخط والزخرفة فكانا متساويين تقريبا فى الاتساع ، على أن ذلك الحال لم يستمر طويلا .

---

(١١٦) مرزوق : المرجع السابق ، ص ١١٦ .
(١١٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
(١١٨) مرزوق : المرجع السابق ، ص ١١٨ .

فقد زاد الاهتمام مرة أخرى بالزخرفة ، فرسمت الزخارف أكبر فى الحجم من الكتابة ، موضع النســـاج الكتابة أسفل الزخرفة ولم يجعلها تمتد امتدادها كما كان الحال عليه من قبل (١١٩) ٠

واستمر التأثير القبطى على الفن الاسلامى فى الزخرفة على المنسوجات قائما ، وظل أثره واضحا حتى القرنين الخامس والسادس الهجرى / الحادى عشر والثانى عشر الميلادى والى أن كانت السيادة للخط النسخ ، وفقدت رسوم الحيوانات والطيور خواصها ، وصارت أشكالا تقليدية لا تمت الى الطبيعة بصلة كبيرة (١٢٠) ٠

وكانت أسماء الخلفاء تنسج فى الأقمشـــة الثمينة بخيوط الذهب والفضة أو الخيوط المتعددة الألوان تمجيدا لهم ودليلا على أنها صنعت فى عهدهم ، وشارة من شارات الملك ، ووثيقة لمن خلعت عليه للدلالة على درجته ووظيفته واشـــارة الى رضـــاء الخليفة عنه (١٢١) ٠

كما كان الخليفة يسمح بكتابة اسم وزيره فى الطراز تكريما له (١٢٢) ، وأحيانا كانوا يكتبون اسم المشرف على العمل فى دار الطراز ، ولكن قلما كانوا يذكرون اسم الصانع نفسه (١٢٣) ٠

(ب) الصـــناعات الخشـــبية :

بلغت الدقة فى الحفر على الخشب والصناعات الخشـــبة

(١١٩) ــــــــ : نفس المرجع ، ص ١٢٢ ٠
(١٢٠) ديماند : المرجع السابق ، ص ٢٨ ٠
(١٢١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٧ - ١١٨ ٠
(١٢٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ ٠
(١٢٣) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٣٩ ٠

مرحلة ممتازة على يد الصناع الأقباط فى عصر الفاطميين ، اذ كانت الريادة فى هذا الميدان لأهل البلاد من القبط (١٢٤) ٠

وشجع الخلفاء الفاطميون هؤلاء الصناع على الارتقاء بمستوى صناعاتهم نظرا للحاجة الشديدة الى تلك الصناعة وهذا الفن ، وساعد على تقديم الصناعات الخشبية وازدهارها فى عصر الفاطميين ما عرف عنهم من تسامح دينى عظيم (١٢٥) ٠

ونظرا لعدم صلابة الأخشاب المحلية كالجميز والسنط والنبق والسرو فقد استوردت مصر الأخشاب الصالحة لهذه الصناعة من أوربا (١٢٦) ، وذلك عن طريق تجار أمالفى وجنوة والبندقية (١٢٧) ، كما استوردت خشب الأرز والصنوبر من الشام وآسيا الصغرى ، أما خشب الأبنوس فكان مصدره السودان ، كما استوردت مصر خشب التك من الهند وشبه جزيرة الملايو (١٢٨) ٠

وبرع الصناع المصريون فى استخدام الأخشاب وبخاصة فى عمل السقوف والأبواب والنوافذ والمحاريب والقباب وما بها من

---

(١٢٤) سميكة : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٤٥ ٠
ـ على حسنى الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ، ص ٢٢٩ ٠
(١٢٥) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ٠
ـ ــــــ : كنوز الفاطميين ، ص ٢٠٦ ٠
(١٢٦) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ ٤ ، ص ٣٩٤ ٠
(١٢٧) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة دكتوراة من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م ، غير مطبوعة ، ص ١١٠ ٠
(١٢٨) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ ٤ ، ص ٣٩٤ ٠

حشوات جميلة (١٢٩) ، بجانب تصنيع كافة الأثاثات الفاخرة والتحف الخشبية الرائعة ٠

ونقش الصناع الأقباط فى الكنائس القبطية نفس الزخارف التى نراها على خشب الجوامع والأثاث الاسلامى ٠ ففى المتحف القبطى قبة مذبح أصلها من كنيسة المعلقة ، وعلى جزئها السفلى عقود وصلبان فى فروع نباتية محفورة حفرا دقيقا تذكر بالزخارف الجصية فى الجامع الأزهر ، مما يدل على ازدهار صناعة الحفر على الخشب ابان عصر الفاطميين على يد الصناع والفنانين من الأقباط والمسلمين على حد سواء (١٣٠) ٠

وازدهر هذا الفن ازدهارا يثير الاعجاب فى عصرى الظاهر والمستنصر وانتجت أيدى الصناع المصريين نماذج لصناعة النقش على الخشب تدل على أن هذا الفن بلغ أقصى درجات الفن والرقى فى عصر الفاطميين (١٣١) ٠

وكان للصناع والفنانين الأقباط أربع طرق لزخرفة الأخشاب منها : النقوش البارزة ، والنقوش بطريقة التفريغ ، وثالثة بتعشيق الخشب وتطعيمه بالعاج ، ورابعة بالخرط ، كما كانوا أيضا مهرة فى التطعيم بالعاج والصدف ، وطريقتهم فى ذلك أن ينقشوا قطعة العاج أولا على انفراد ، ثم يثبتونها فى اطار من الخشب قبل تركيبها فى الموضع المعد لها (١٣٢)

---

(١٢٩) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٠ ٠

(١٣٠) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٣٠٤ ٠

(١٣١) ——— : نفس المصدر ، ص ٢٠٧٠ ٠

(١٣٢) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥

ومن أبدع الأمثلة الباقيــة للتحف الخشــبية ــ الحفر على الخشب ــ فى بداية العصر الفاطمى حجاب الهيكل فى كنيسة الست بربارة بمصر القديمة ــ وهو معروض الآن بالمتحف القبطى بالقاهرة ــ ومع أنه لا مجال للشك فى أنه من صناعة الفنانين الأقباط . الا أننا نرى فى زخارفه خصائص الأســـلوب الفاطمى ، فالحجاب يتألف من خمس وأربعين حشوة خلاف دائرة القبة العليا ، والزخارف المحفورة متنوعة الموضـوعات لطيور وحيوانات مفترســـة وغزلان وأشخاص ومناظر للصيد والقنص ، يتخلل تلك الزخارف صلبان ، بجانب تفريعات نباتية تشكل مع غيرها من الرسوم وحدات زخرفية كاملة ، وتعتبر حشـــوات هذا الحجاب أجمل ما بقى من صناعة خشبية فى العصر الفاطمى ، وأصدق مثال على ازدهار صناعة الحفر فى الخشب على يد الصناع من القبط فى عصر الفاطميين (١٣٣) .

ولقد بقيت الرسوم الحيوانية والموضوعات الآدمية التى شاعت فى الحفر على الخشب فى بداية العصر الفاطمى مستمرة خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وفى مجموعة الألواح الخشبية والأبواب التى عثر عليها فى مارستان وقبة قلاوون وابنه الناصر محمد والتى يرجع تاريخ تصنيعها الى العصر الفاطمى الأول ، نرى زخرفة حافلة بالرسوم المختلفة ، لكن الحفر والرسوم فى تلك المجموعة أقرب الى الطبيعة ، وأكثر اتقانا من مثيله فى أوائل العصر الفاطمى وأقرب الى الواقعية ، ونرى تأثير الأسلوب القبطى فى الفن واضحا كما هو فى اســـتخدام الرســـوم الآدمية والحيـــوانات والطيــور (١٣٤) .

(١٣٣) ـــــــ : نفس المرجع ، ص ١٤٧ .
ـ ديماند : المرجع السابق ، ص ١١٩ .
ـ زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، ص ٤٥٢ .
ـ ـــــــ : كنوز الفاطميين ، ص ٢٠٤ .
(١٣٤) ديماند : المرجع السابق ، ص ١١٩ ، ١٢٠

واذا كان الكثير من الصناع الأقبـاط برعوا فى الصناعات الخشبية ، فانه مما يجدر ذكره أن الرهبان بالأديرة قد اشتغلوا بالنجارة لسد احتياجات الدير من الصناعات الخشبية (١٣٥) ٠

فاذا ما انتقلنا الى الريف فاننا نجد ان المهيمنين على الصناعات الخشبية بالقرى هم النجارون من القبط ، فقد ورث هؤلاء الأقباط عن أجدادهم سر هذه الصناعة واحتكروها مدة طويلة تصل الى القرن الثامن عشر الميلادى / الثـاني عشر الهجرى (١٣٦) ، وكانوا يستخدمون أخشاب الأشجار المحلية فى صناعة ما يلزم أهالى الريف من أثاث البيوت وعمل السواقى والطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل وغيرها من الآلات الريفية (١٣٧) ، والى عهد قريب كاد أن يـكون كل نجـارى القـرى المصرية من الأقبـاط (١٣٨) ٠

(ح) صناعة المعادن والعاج :

برع المصريون فى صناعة المعادن وسبكها وزخرفتها اذ كانت هذه الصناعة من الصناعات التى عرف دقائقها وأسرارها قبط مصر منذ عهد الفراعنة ، وعنهم أخذ المسلمون فى وادى النيل سر هذه الصناعة التى بلغت أرقى درجات الفن والجمال فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ٠ فقد عثر على كثير من التحف والأدوات المعدنية ذات الأغراض المختلفة والتى ترجع الى عصر الفاطميين ، وسواء أكانت من عمل الفنانين المسلمين أو الأقباط فانها دليل لا يقبل الشك على

---

(١٣٥) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٥٩ .

(١٣٦) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ ٠

(١٣٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٧١ ٠

(١٣٨) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ ٠

ازدهار هذه الصناعة فى مصر الفاطمية (١٣٩) ، وتفوقها عما كانت عليه فى عصر الولاة (١٤٠) .

وعرف عن الصناع من المصريين وبخاصـــة الأقباط مهارتهم الفائقة فى استخدام الذهب والفضة فى صنع أدوات الترف والحلى والسروج والسيوف والمصاحف المذهبة والملابس الموشاة وكثير من التحف التى رصعت بالأحجار الكريمة ونقشت عليها زخارف جميلة ، وكلها تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن ، ورواج صناعة الذهب والفضة وتقدمها ورقيها فى ذلك العصر (١٤١) ، والدليل على ذلك ما وجد بخزائن القصور الفاطمية ، وخزائن كبار رجال الدولة من تحف وذخائر من الذهب والفضة .

وكثر استخدام النحاس فى صناعة الأوانى والأدوات المنزلية ، فقد اكتشفت مجموعة من المصنوعات النحاسية فى خرائب الفيوم ترجع الى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى تشتمل على أدوات نحاسية للمائدة من صينية وأطباق نحاسية ووعاء للفاكهة (عليها رسوم أسماك ونصوص قبطية نقش عليها اسم صاحبها وتاريخ صناعتها) ، كما عثر على دست من النحاس (عليه رسوم طيور بارزة وعلى غطائه صورة السيد المسيح مصلوبا) ، وعلى ابريقين من نحاس نقش على واحد منهما رسم صليب ، وعلى الآخر أشكال نباتية وعلى الغطاء رسمت حروف قبطية ، هذا بجانب قدرتين من النحاس أيضا على واحدة منها نصوص قبطية وعلى الأخرى نصوص قبطية وتركية ، وكذلك وجدت عدة مسارج نحاسية .

---

(١٣٩) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٤٢ .

(١٤٠) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(١٤١) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

ـ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .

ومن بين هذه المجموعة قبة مذبح من نحاس ترتكز على أربعة أعمدة على كل منها صليب مفرغ ، وعلى القبة والصلبان نصوص قبطية باســــم الصانع والتاريخ ، كما وجدت بعض الأبواب وقد استخدم الصانع معدن النحاس في عمل النقوش عليها ، وكل هذه الأدوات النحاسية والنقوش التى عليها تعطينا دلالة واضحة على مهارة الصناع من الأقباط الذين برعوا فى هذه الصناعة (١٤٢) ٠

كما استخدم هؤلاء الصناع البرونز فى صناعة المباخر وصنابير الأوانى وغير ذلك من الأشياء الدقيقة التى عملت بعضها على هيئة الحيوان أو الطير (١٤٣) ٠

وفى خرائب الفيوم عثر على عدة أبواب من الخشب صنعت اطاراتها من البرونز وعلى بعضها رسوم بارزة من البرونز لصور الملائكة والقديسين ، ورســـــوم صلبان وعليها نقوش بارزة باللغة القبطية واليونانية ، وعليها اسم الصانع ، ومعظمها يرجع الى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ويرى علماء الآثار الاسلامية أن التحف القبطية العادية لا تختلف عن التحف الاسلامية الا فى اضافة صليب أو نص قبطى الى زخرفتها (١٤٤) ٠

وعرف عن الصـــناع المصريين دقتهم ومهارتهم فى التكفيت ، اذ وجدت فى القاهرة عدة حوانيت لعمل الكفت وهو ما تطعم أو تطلى

---

(١٤٢) سميكة : المرجع السابق ج ١ ، ص ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١١١ ٠

(١٤٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٣٤ ٠
ـ البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٣ ٠

(١٤٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٤٢ ٠

به أوانى النحاس من الذهب والفضة نظرا لاقبال الناس فى مصر على هذا الصنف من المصنوعات (١٤٥) .

واستخدم الحديد فيما يلزم صناعة البناء وبعض الصناعات والآلات البسيطة (١٤٦) ، واشتهرت بعض المدن الصناعية الكبرى فى ذلك الوقت بصناعة الآلات الحديدية ، ففى مدينة الفسطاط عرفت صناعة الحديد المستورد من أوربا وصقلية وبلاد المغرب (١٤٧) ، ويتحدث المقريزى عن « المناخ السعيد » وهو الحى الذى سكنته جالية كبيرة من الأجانب ، والذى كان مركزا لصناعة الحديد وآلات الأساطيل من الأسلحة « المعمولة بيد الفرنج القاطنين فيه » (١٤٨) ، ويذكر ناصرى خسرو ان الصناع فى مدينة تنيس كانوا « يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين » وأنه رأى مقراضا صنع بتنيس بلغ خمسة دنانير مغربية (١٤٩) ولا ننسى أن أغلب سكان تلك المدينة كانوا من الأقباط ، كما استخدم الحديد فى صنع بعض الأشياء البسيطة ، فقد وجد فى كنيسة أبى سيفين كرسى من الحديد يرجع الى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى (١٥٠) .

وقد استخدم العاج فى صناعة أشياء كثيرة كقطع الشطرنج والنرد والعلب الصغيرة الثمينة المطعمة بالعاج (١٥١) .

---

(١٤٥) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٥ .
(١٤٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .
(١٤٧) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٤ ، ص ٣٩٤ .
(١٤٨) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .
(١٤٩) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٠ .
(١٥٠) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(١٥١) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

وفى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى يتحدث ناصرى خسرو عن « أنياب الفيل » المستورد من زنجبار والتى شاهدها فى أسواق مدينة الفسطاط ، كما رأى الأمشاط ومقابض السكاكين والتى عدها ناصرى خسرو من طرائف ما شاهده بأسواق مصر (١٥٢) .

وكان التطعيم أكثر المجالات التى استخدم فيها العاج على يد الصناع من القبط ، وكان طبيعيا أن يتأثر الصناع المسلمون بأساليب الفن القبطى فى عمل حشوات العاج الكاملة ، اذ أن صناعة النقش على العاج التى برع فيها الصناع الأقباط تمركزت فى الأقاليم التى يكثر فيها السكان الأقباط (١٥٣) .

(د) صناعة الورق والتجليد :

اشتهرت مصر بصناعة ورق البردى وظلت تحتكر هذه الصناعة طوال عصر الولاة . وكان معظم الصناع المشتغلين بصناعة ورق البردى من القبط ، غير ان صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر حوالى القرن الرابع الهجرى ، وحل الكاغد الذى كان يصنع فى سمرقند والصين محل البردى فى الكتابة (١٥٤) .

ومع مجيء الفاطميين الى مصر اهتمت الدولة بالحركة العلمية ، وجمعت نوادر الكتب والمخطوطات لتضم الى خزانة الكتب الفاطمية

---

(١٥٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(١٥٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٥

(١٥٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٥

ـ متز : الحضارة الاسلامية فى ق ٤ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

لتصبح منافسا عملاقا لمكتبات بغداد وقرطبة ، كما شجع الخلفاء الباحثين والدارسين وطلاب العلم ، وكان الجامع الأزهر أعظم جامعة اسلامية فى ذلك العصر (١٥٥) ، وأصبحت « دار الحكمة » مفخرة العصر بما ضمته من كتب ومؤلفات وكل ما يمت الى الحركة العلمية بصـــلة (١٥٦) ٠

وكان لكبار رجال الدولة من أهل الذمة سواء من اعتنق منهم الاسلام حديثا أو ظل على دينه دور بارز فى هذا المجال ، فكان للوزير ابن كلس دوره الهام فى خلق نواة الجامعة الأزهرية التى كانت مركز اشعاع فى مصر الفاطمية (١٥٧) ، كما أنشأ ابن كلس فى قصره خزانة للدفاتر ، وجعل على رأسها ناظرا للاشراف عليها ، ووفر لها جماعـــة من النســـاخ والمشـــتغلين بتجليـــد الكتب والدفاتر (١٥٨) ٠

وقد ضمت المكتبات الخاصة بأهل الذمة وبخاصة الأطباء منهم الكثير من الكتب العلمية والمخطوطات النادرة ، أو الكتب العلميـة التى قاموا بتأليفها بتكليف من الخلفاء أو تقربا اليهم (١٥٩) ٠

كذلك امتلأت كنـــائس وأديرة الأقبـــاط بنفائس الكتب والمصنفات الدينية والمؤلفات والكتب المترجمة الى العربية . هذا بجانب اقتناء البعض من القبط العديد من الكتب ٠ وعلى الرغم من أن الكثير من الكتب والمخطوطات التى كانت فى حوزة الكنـــائس والأديرة والأفراد قد أهملت أو تبدد الكثير منها ، الا أنه قد بقيت بعض الكتب والمجلدات كاملة ، فقد عثر على بقايا كتب وقطع من

(١٥٥) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ٠
ـ ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٣٢٢ ٠
ـ سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٨ ، ٢١٩ ٠
(١٥٦) عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٠ ٠
ـ ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٣٢٢ ٠
(١٥٧) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٣١ ، ٣٢ ٠
(١٥٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥ ٠
(١٥٩) ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ٠

البردى والرقوق محفوظة الآن بمتاحف أوروبا وأمريكا والمتحف القبطى بالقاهرة ودار البطريركية القبطية بمصر (١٦٠) ٠

وقد استعمل الأقباط البردى فى الكتابة حتى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، ثم استبدل الأقباط البردى بالرقوق التى استمر استعمالها الى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ويوجد من هذه الرقوق عدة مجلدات كاملة ٠ ومن أحدث الكتب المخطوطة على الرق كتاب تكريز الكنائس الجدد بمكتبة دير السريان ، وتاريخه يرجع الى سنة ١١٨١ م ، ثم استعملوا أخيرا الورق الكتان (١٦١) ، وهو نوع من الورق المطبوخ من الكتان والقطن ٠ وكانت الفسطاط من أعظم مراكز انتاج الورق (١٦٢) ٠

وكانت عملية التجليد تشمل الجلد والبطانة والحرير ، كما استعمل الورق فى البطانة ، بعد أن حل البردى فى الكتابة ، واستعمل الصناع جلود العجول واستخدموا الحرير والديباج والأطلس فى التجليد وبخاصة تجليد المصاحف (١٦٣) ٠

وقد عثر على بعض الجلود التى ترجع الى القرن الرابع الهجرى، وهى عظيمة الشأن ، لأن تأثير الصناعة والفن القبطى ظاهر فيها ، ففى بعض الجلود زخارف مجدولة ووريقات شجر مهذبة تقليدية تتخذ أحيانا شكل القلب وفى بطانة جلدة منها نرى آثار رسوم هندسية ونباتات ورسم طائر صغير ووريدات جميلة ٠ ويرى علماء

---

(١٦٠) سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ ، ٣٩ ٠
(١٦١) ـــــــ : نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ ٠
(١٦٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٦٢ ٠
(١٦٣) ـــــــ : نفس المرجع والصفحة ٠

الآثار الاسلامية أنه من الصعب التمييز بين جلود العصر الفاطمى والجلود التى صنعت فى القرن الذى سبق قدوم الفاطميين الى مصر، لأن التطور كان بطيئا ، غير أن أساليب الصناعة قد استقرت فى هذا العصر ، وازدهر الفن طبقا لناموس العرض والطلب (١٦٤) .

(هـ) صناعة الزجاج والبلور الصخرى والخزف :

بلغت صناعة الزجاج أرقى درجات الفن فى عصر الفاطميين . وكثر الطلب عليها نظرا لضخامة النهضة العمرانية التى عمت البلاد ، وتعدد الأغراض التى استخدم فيها الزجاج ، فقد اشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج ومن أهمها الفساط ، والفيوم ، والأشمونيين ، والشيخ عبادة (بكورة البهنسا ، المنيا الآن) ، والاسكندرية (١٦٥) ، كما راجت تجارة الصناعات الزجاجية ، فقد عثر على بقايا تحف ونماذج زجاجية فى كثير من المدن مثل مدينة حابو ، وكوم بلال ، وقوص ، وأبيدوس ، وأخميم ، وأسيوط ، والمنيا ، والبهنسا ، واهناسيا المدينة ، وهوارة ، وأطفيح ، وسقارة وميت رهينة ، وكوم الأتريب (١٦٦) .

وكانت أرقى المصنوعات الزجاجية هى الزجاج المذهب المزين بزخارف لها بريق معدنى ، التى حاول فيه الصناع تقليد البلور الصخرى (١٦٧) .

---

(١٦٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(١٦٥) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ ٤ ، ص ٣٩٧ .

(١٦٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٥٦ ، وكذلك الحاشية رقم ٢ بنفس الصفحة .

(١٦٧) ـــــــ : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

أما عن صناعة البلور الصخرى ، فقد تحدث عن تلك الصناعة ناصرى خسرو أثناء جولته « بسوق القناديل » بالفسطاط ، فقد رأى معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال « وكان يستورد من بلاد المغرب كما كان يستخرج بالقرب من ساحل البحر الاحمر (١٦٨) ، وكان وجود البلور الصخرى فى مصر سببا فى انخفاض ثمنه ووفرة انتاج التحف البلورية ، وفى خزائن القصور الفاطمية شاهد أحد المستخدمين فى بيت المال صندوقا من الصناديق التى نهبت من قصور المستنصر ذات يوم ، وهو مملوء بأباريق من البلور النفيس بعضها منقوش بزخارف ورسومات جميلة وبعضها غير منقوش ويبدو أنها كانت لشراب الفقاع (١٦٩) .

وتركت الرسوم والزخارف القبطية أثرها على الخزف ذى البريق المعدنى الذى كان فخر صناعة الفخار فى مصر الفاطمية ، وقد تفوقت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى على أيدى الصناع المصريين ، فصنعوا منه الأزيار الكبار والأوانى المستعملة فى حفظ العطور والبخور وكثيرا من الأشياء التى يستخدمها الناس ، كما امتلأت الخزائن فى قصور الخلفاء الفاطميين وكبار رجال الدولة بروائع التحف الخزفية (١٧٠) .

وكان لتوفر الطين الأصفر بمصر الذى يصنع منه الخزف (١٧١) ، أن توافر انتاج الأوانى الخزفية الممتازة ، وقد شاهد ناصرى خسرو فى أسواق الفسطاط الأقداح والصحاف التى

---

(١٦٨) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(١٦٩) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ .
(١٧٠) ——— : نفس المرجع ، ص ١٥٧ .
- ديماند : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .
(١٧١) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق : ص ٥٣ .

بلغ من جودتها أنه رأى يده بوضوح بظهر الاناء ، وكان التجار يضعون ما يبيعونه فى أوانى من الخزف بدلا من الورق (١٧٢) ٠

وكان أشهر صانعى الخزف فى مصر الفاطمية مسلم وسعد ، وقد اشتهرت مدرسة مسلم وتلاميذه بالزخارف الحيوانية والآدمية والنباتية فى زخرفة الأوانى الخزفية فضلا عن الحروف الكوفية (١٧٣) ٠

وتبدو الصلة بين ما أنتجه سعد ومدرسته وبين الخزف ذى البريق المعدنى قبل العصر الفاطمى ، ولاسيما فى رسوم الحيوانات (١٧٤) ٠

ولا غرو فقد كانت رسوم الحيوان والرسوم الآدمية العنصر الأساسي فى زخارف العصر الفاطمى ، بجانب رسوم الطيور والفروع النباتية والأوراق ، ذلك أن الفن القبطى ترك أثرا واضحا فى زخرفة الخزف ، وهناك قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى عليها رسم السيد المسيح ، وحولها اكليل النور المعروف ، كما ظهر فى الرسوم الأسلوب البيزنطى واضحا ، وهذه القطعة من انتاج مدرسة سعد ، وظن ذلك لوجود صورة السيد المسيح على أنه من المحتمل أن سعدا كان من سلالة الأقباط (١٧٥) ٠

أما عن صناعة الفخار الذى كان يصنع من الطين ، فكانت صناعته واسعة الانتشار فى بلاد الصعيد الأعلى حيث يوجد أجود أنواع الطمى ، ومنه كانوا يصنعون الأزيار والقلل وأوعية الخل

---

(١٧٢) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٦٧ ٠

(١٧٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٥٧ ٠

(١٧٤) ديماند : المرجع السابق ، ص ٢١٦ ٠

(١٧٥) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ٠

والنبيذ والسمن وجرار العسل وكثيرا من الأشـــياء التى كان يستخدمها العامة (١٧٦) ٠

على أن الكثير من أوانى الخل والفقاع والنبيذ وجرار العسل والمزر والنيدة قد تعرضت للكسر والابادة ابان خـــلافة الحاكم بأمر الله تنفيذا لما جاء بالسجلات التى أصدرها الحاكم بشـــأن المسكرات (١٧٧) ، وقد أثر ذلك على صناعة الفخار (١٧٨) ٠

(و) صناعة الخمور :

ان ما ساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى العصر الفاطمى الأول من ازدهار وانتعاش ، ومن انتشار روح اللهو والمرح وبخاصة فى الاحتفالات والمواسم والأعياد المختلفـــة التى كثرت فى ذلك العصر ، وما شاب هذه الاحتفالات من المجون والفساد قد أدى الى انتشار عادة شرب المسكرات بمختلف أنواعها بين كثير من الناس٠

لذلك انتشرت صناعة الخمور انتشارا كبيرا لكثرة الطلب عليها ، وازدهرت تلك الصناعة فى المراكز الصناعية والتجارية الكبرى فى مصر ، فكانت الفسطاط والقاهرة من مراكز صناعة الخمـــور ، وكانت الاسكندرية بوجـــه خاص من أهم مراكز تلك الصناعة (١٧٩) ٠

---

(١٧٦) البراوى : المرجع السابق : ص ١٦٧ ٠

(١٧٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ ٠

ــ النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٦ ٠

(١٧٨) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ ٠

(١٧٩) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ٠

كما وجدت معاصر الخمـــور فى المدن الصـــناعية الكبرى كتنيس حيث تكثر حولها مزارع الكروم ويغلب على سكانها الصناع من القبط (١٨٠) ٠

وفى ريف مصر كانت الخمور تعصر بكثرة وبخاصـــة فى موسم نضج محصول العنب ، « ففى شهر مسرى يكون وفاء النيل، وفيه يعصر قبط مصر الخمر » (١٨١) وكان معظم الانتـــاج من النبيذ فى الريف يستهلك محليـــا ولا يصل منه المدن الكبرى الا كميات قليلة ، ولذلك ارتفعت أسعار النبيذ فى المدن لكثـرة الاقبال عليها (١٨٢) ٠

واشتهرت منطقة شبرا ونواحيها التى يغلب على ســكانها الأقباط من أهل البلاد بأنها كانت واحدة من أكبر مراكز عصر الخمور فى مصر ، وكان فلاحو شبرا يعتمدون دائمـــا فى وفـاء الخراج على ما ينتجونه من الخمـــر وما يبيعونه منه فى عيـــد الشهيد (١٨٣) ٠

وفى الأديرة كانت تزرع الأعناب ومنها يعصر الرهبـــان النبيذ ، ويصنعون الزبيب لاستعمالهم داخــــل الدير (١٨٤) ، كمـــا أن بعض هذه الأديرة كان مقصــــد النـــاس للنزهة والتسلية (١٨٥) ٠

---

(١٨٠) ابن دقماق : المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٨ ٠

(١٨١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ ٠

(١٨٢) ــــــ : نفس المصدر ، ص ١٢٩ ، ٣٦٧ ٠

(١٨٣) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٦٧ ، ٦٨ ٠

(١٨٤) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ٩٦ ٠

ـ ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ ٠

(١٨٥) ــــــ : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٣٧٣ ٠

ويعتبر النبيذ المستخرج من الكروم من أجود أنواع الخمور، وكان استعماله يكاد يكون قاصرا على الأثرياء وأفراد الطبقة العليا في المجتمع لارتفاع ثمنه (١٨٦) ، أما الغالبية العظمى من المستهلكين للمسكرات فكانوا يحتسون الفقاع ، وهو نوع من البيرة كان شائعا فى القاهرة ابان عصر الفاطميين (١٨٧) ، كما كانوا يشربون المزر والنيدة ، وكانا يصنعان من القمح والشعير (١٨٨) ، هذا بجانب أنهم كانوا يتخذون من العسل شرابا مسكرا (١٨٩) ٠

والواقع أن صناعة عصر الخمور كانت منتشرة فى أنحاء مصر وكان الانتاج وفيرا ، وليس أدل على كثرة الخمور وانتشارها فى البلاد من تلك الكميات التى كانت تباع فى ناحية شبرا وحدها والتى بلغت قيمة ما بيع منها فى أحد أيام عيد الشهيد بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبا (١٩٠) ٠

وعلى الرغم من انتعاش صناعة عصر الخمور فى بداية العصر الفاطمى ، فان صناعة المسكرات لم تتعرض للحد من انتاجها والتضييق عليها الا فى القليل النادر أيام خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله الفاطمى ، عندما كانت تصدر الأوامر بالغاء بعض الأعياد أو تقييدها ، ثم العودة اليها مرة ثانية ٠

وكان لكثرة ما ارتكب فى بعض احتفالات الأعياد والمواسم من المعاصى والفجور ، وما اقترن بها من كثرة شرب المسكرات وانتشار الفساد بصورة فاضحة وعلى نطاق واسع (١٩١) ،

---

(١٨٦) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ ٠

(١٨٧) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٤٩ ٠

(١٨٨) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٨٤ ٠

(١٨٩) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، ج ١١ ، ورقة ٤٠٢ ٠

(١٩٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٧ ، ٦٨ ٠

(١٩١) ـــــ ٠ نفس المصدر ، ص ٢٢٤ ؛

أن أخذ الحاكم بأمر الله يطارد صناعة المسكرات وعصر الخمور بصورة لا تعرف الكلل ، وأصدر عدة سجلات فرضت القيود على تلك الصناعة ، وأخذ يصادر الكروم ومخازن النبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ويشدد من تعليماته في هذا الشـــأن بهدف ابادتها ، وكان الباعث على اصدار هذه التعليمات ما أملته روح الاصلاح الحقة ، فقد كان الحاكم يهدف الى رفع المســـتوى الخلقي بين أفراد رعيته (١٩٢) ٠

ومن هنا صدرت سلسلة من المراسيم والسجلات بين الحين والآخـــر تطارد هذه الصناعة وتضيق الخناق على المشتغلين بها ٠ ففي ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ منع الحاكم من أكل الزبيب وأحرق كميات منه في جيزة مصر (١٩٣) ، كما صدر الأمر بمنع بيع النبيذ وألا يظهر شيء منه وكسر ما كان للخمارين وأصحاب المواخير منه ، وأمر بازالة الأماكن التي كان أهل الفساد والفجور يأوون اليها ويجتمعون بها وفرق جموعهم (١٩٤) وفي ربيع الأول من سنة ٣٩٢ هـ قرئ سجل الحاكم بمنع المسكرات ، كما صادر عدة أماكن وأراق ما بها من مسكرات (١٩٥) ٠

وتخوفا من عصر الخمور أمر الحاكم بأمر الله في السنة التالية بقطع الكروم في أنحاء مصر وبخاصـــة في الفسطاط والقـاهرة والصعيد والاسكندرية ودمياط وأباد معظمها (١٩٦) ، وفي المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله مرسوما بمنع عمل الفقاع والترمس العفن ، وأمر بالتشدد في تنفيذ أوامره والمبالغة في تأديب

(١٩٢) لين بول : المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ ٠

(١٩٣) ابن ظافر : المصدر السابق ، ورقة ٥٦ ٠

(١٩٤) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ٠

(١٩٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٤٤ ٠

(١٩٦) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ورقة ٢٧٦ ٠

المخالفين ، وتعقب فى كل مكان المشتغلين بصناعة الفقاع وبيعه ، وعاقبهم بالضرب والشهر ، وقل من نجا منهم من القتل (١٩٧) ، وكسر كل ما عثر عليـــه من أوانى الخمـــور وأريق ما بهـــا من مسكرات (١٩٨) ٠

غير أن الناس وجدوا الفرصة سانحـــة فى العودة الى شرب الفقاع أثناء انشغال الحاكم بأمر الله بمطاردة أبى ركوة الذى كان قد خرج على طاعته ، ثم ان الحاكم بأمر الله نفسه أقبل على شرب النبيذ بعد أن جنح الى مشورة طبيبه يعقوب بن نسطاس لما للنبيذ من منافع ، فاطمأن الناس وزاد اقبالهم على احتساء الخمور وخاصة أنه لم يبال بما سبق أن أصـــدره من مراسيم وسجلات فى هذا الشأن ، بل انه استدعى الى مجلسه جماعة المغنين وأصحاب الملاهى، وشرب على أنغامهم وخلع عليهـــم وقربهـــم اليه ٠ على أنه بوفاة يعقوب بن نسطاس الطبيب امتنع الحاكم عن شرب النبيذ ، وعاد مرة أخرى الى سابق عهده يطارد المسكرات وصناعتها وتجارتهـا وكسر الأوانى والجرار التى كانت تعبأ فيها (١٩٩)

وفى سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٦ م منع الحاكم بأمـــر الله من التظاهر بالغناء ومن ركوب البحـــر (لانخفض النيـــل) ، وبيع المسكرات ومنع الفقاع ، وفى شهر صفر من العام نفسه قبض على بعض المشتغلين بالفقاع وضربهم وشهرهم لمخالفتهم أوامره (٢٠٠) ٠

---

(١٩٧) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٦ ٠

ـ العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٦٧٨ ٠

(١٩٨) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٥ ٠

(١٩٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٨ ٠

(٢٠٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٨٦ ٠

وفى سجل أصدره فى ربيع الآخر سنة ٣٩٩ هـ أمر بألا يحمل شيء من النبيذ والمزر ولا يتظاهر بشيء منه ولا بشيء من الفقاع والترمس العفن ، وأمر بقتل من يضبط سكرانا (٢٠١) ، وفى صفر من العام التالى شهر بجماعة بعدما ضربوا بسبب الفقاع والترمس (٢٠٢) ٠

ولقد وصلت الينا صورة من سجل أصدره الحاكم فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، نهى فيه الكافة عن الالمام بالمسكر ، أو شربه ، على اختلاف أصنافه وأسمائه وألوانه وطعومه ، قليلة وكثيرة ، كما نهى عن اقتنائه أو عمله واعتصاره ، وطالب رجال دولته المسئولين بتعقب المخالفين لأوامره (٢٠٣) ٠

وفى شهر رمضان سنة ٤٠١ هـ أصدر الحاكم بأمر الله منشورا عاما فى سائر أنحاء دولته بشأن المسكرات ، جدد فيه التحذير من عمل النبيذ ومن شربه سرا وجهرا ، وحذر مشددا من اخفائه أو استبقاء شيء منه ، كما أمر بكسر ما عند الناس من الجرار والظروف الفرغ والدنان وأراق ما بها من نبيذ وعسل وزبيب ، وتعقب دور الملاهى فأغلقها وكسر ما بها من أوانى للخمور ، وأمر بنفى المغنين وأصحاب الملاهى ، ولما استغاثوا به عفا عنهم شريطة عدم العودة الى ما كانوا عليه ، وحظر على النصارى تقديم شراب النبيذ أثناء اقامتهم للشعائر الدينية فى الأعياد ، على أن الناس لم يلتزموا بذلك ، ففى موسم العنب من هذا العام أخذ الناس فى اعتصاره سرا مما دعا الحاكم بأمر الله الى تغريق العنب فى النيل (٢٠٤) ٠

---

(٢٠١) ابن أيبك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٠ ٠

(٢٠٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤١ ٠

(٢٠٣) رسائل الدعاة : مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧ عقائد ونحل ، ورقة ١٠ ،، ١١ ٠

(٢٠٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ ٠

وفى المحرم سنة ٤٠٢ هـ قلدت الشرطتان ، لمحمد بن نزال، وصدرت اليه الأوامر بمضاعفة الحزم والرقابة فى تتبع المسكرات ومنعها (٢٠٥) . كما جاء فى سجل تعيين عين أحد حكام القاهرة فى عهد الحاكم بأمر الله والصادر فى تاسع ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ تعقب صناعة النبيذ وجميع أنواع المسكرات (٢٠٦) ، وفى شهر شعبان من نفس العام ، أصدر سجلا شاملا بتعقب تلك الصناعة ومصادر صناعتها فى سائر أنحاء الدولة ، واباد كميات كبيرة من الزبيب ، وبلغ جملة ما أحرقه من زبيب فى خمسة عشر يوما حوالى ألفين وثمانمائة وأربعين قطعة زبيب ، وبلغت تكاليف ما أنفق فى أحراقها خمسمائة دينار (٢٠٧) .

وواصل الحاكم بأمر الله حملته على المسكرات أينما وجدت ، ففى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م أراق كثيرا من الخمور وأحرق كميات ضخمة من الزبيب ، وكسر جرار العسل ، وكان جملة ما أحصى ما بين ظرف وزير وخابية عدته احدى عشرة ألف قطعة (٢٠٨) .

واذا كانت أنواع المسكرات كالنبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ــ حيث يصنع من الأخيرين المسكر ــ قد تدهورت صناعتها فى خلافة الحاكم بأمر الله الذى أصدر القوانين الصارمة بمنعها وتعقبها وانزال أقصى العقوبات بالمشتغلين فى مجالها ، فان هذه الصناعة قد انتعشت من جديد فى خلافة الظاهر لاعزاز

---

(٢٠٥) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٠ .

(٢٠٦) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢٠٧) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٨٦ .

(٢٠٨) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٦ .

ـ ابن أيبك : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ١٧٢ .

دين الله عندما أغفل ما سبق صدوره مـن القوانين المحرمة لشرب المسكرات ، فأقبل الناس على احتسائها وارتياد الملاهى ، بل ان الخليفة الظاهر نفسه أقبل على شرب الخمر ، ومجالس الطـرب والغنـاء ، فازداد حب النـاس لحياة اللهو والمغـانى وشرب المسكرات (٢٠٩) ٠

وشهد عصر المستنصر بالله الفاطمى مزيدا من اقبال الناس على شرب الخمور ، وبالتالى ازداد الطلب عليها وراجت صناعتها٠

فكان الخليفة المسـتنصر بالله يشرب الخمر ، ويسـقيها الناس ، وكان يخرج فى كل سنة مع النساء والحشـم الى جب عميرة بهيئة أنه خارج للحج على سبيل الهزؤ والمجانة ومعه الخمر فى الروايا عوضا عن الماء ويسقيه الناس (٢١٠) ٠

هذا مع ما صاحب عصر المستنصر بالله فى أيام الرخاء من اقبال الناس على الحفلات والأعياد والمناسبات والمتنزهات ، وطلب الناس شرب المسكرات مما أدى الى ازدهـار وانتعاش صـناعة النبيذ والزبيب والفقاع والمزر والنيدة وكل ما يتخذ منه مسكرا ٠

(ز) صناعة السكر والعسل :

شـهدت مصر فى العصر الفاطمى الأول انطـلاقة كبيرة فى صناعة السكر والعسل ، فقد عرفت البلاد فى هذا العصر العديد من الأعياد والمناسبات والمواسم والاحتفالات التى شـدت اهتمام الناس على اختلاف طبقاتهم ، بجانب ما أدخـله الفاطميون مـن

---

(٢٠٩) المقريزى الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٢٩ ٠

ـ ـــــ : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٤ ٠

(٢١٠) ـــــ : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ ٠

تقاليد وما جرت به العادة فى شتى المناسبات على عمل الأسمطة التى زخرت بألوان الطعام والشراب وأنواع الحلوى ، كما كانت الولائم تعتبر من وسائل التسلية فى هذا العصر ، وتطلب ذلك الاهتمام بصناعة السكر والعسل والحلوى والفطائر والكعك (٢١١) .

وحيث توجد مناطق زراعة القصب تكثر مراكز صناعه السكر ومعاصر القصب ومعامل العسل ، ومن أشهر مراكز صناعة السكر والعسل فى العصر الفاطمى الأول مدينة الفسطاط (٢١٢)، والفيوم (٢١٣) ، وقفط (٢١٤) ، وسمهود (٢١٥) . وأسيوط (٢١٦) ، وترنوط (٢١٧) ، وفى بعض هذه المراكز كالفيوم وأسيوط وترنوط يغلب عليها السكان من القبط .

وكثرت مطابخ السكر ومعامل العسل فى مدينة الفسطاط ، وكانت بعض تلك المطابخ والمعامل فى حوزة عدد من اليهود القاطنين فى تلك المدينة الصناعية الكبرى (٢١٨) ، واشتهرت مدينة قفط بكثرة ما بها من مسابك السكر ومعاصره (٢١٩) ، كما كانت أسيوط تنتج سائر أنواع السكر (٢٢٠) ، ويتضح مما

---

(٢١١) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢١٢) ابن دقماق : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢١٣) ابو عثمان الصفدى : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ .

(٢١٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٢١٥) ابن ظهيره : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٢١٦) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٢١٧) البراوى : المرجع السابق ، ص ١٧٨ ، حاشية ١ .

(٢١٨) ابن دقماق : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢١٩) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٢٢٠) ياقوت : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

ذكره أبو عثمان الصفدى أن معاصر القصب كانت منتشرة فى بلاد الفيوم وأن العديد من تلك المعاصر الملحقة ببعض النواحى كان أصحابها من الأقباط ، وأن تلك المعاصر كانت تكون من حجرتين وتدور بالأبقار (٢٢١) ·

وعرف عن سمهود أنها كانت « كثيرة المعاصر لقصب السكر » (٢٢٢) ، وكان لكثرة مطابخ السكر ومعامل العسل ومعاصر القصب ووفرة الانتاج أن رخصت أسعار الحلوى وكثرت أسواقها ·

غير أن صناعة العسل تعرضت للتدهور عدة سنوات ابان خلافة الحاكم بأمر الله ، وانخفض انتاج العسل بسبب قراراته بشأن تحريم المسكرات ، اذ كان يتخذ من العسل مسكرا ، مما دفع الحاكم بأمر الله الى أن يأمر باراقة كميات ضخمة من العسل وكسر جراره أينما وجدت ، وحددت الكمية للمستهلك عند الشراء ، بل قل وجوده فى الأسواق ، وارتفع ثمنه لكثرة الطلب عليه ، بالدرجة التى كان يعادل ثمن أوقية بدينار فلم توجد (٢٢٣) ·

وبانتهاء عصر الحاكم بأمر الله زاد الاقبال على الاحتفال بالمناسبات والأعياد وأقبل الناس على مظاهر الترف واللهو ، وزاد الطلب على السكر والعسل ، مما أدى الى انتعاش تلك الصناعة ، وانتاج كميات كبيرة منها ، ويؤكد هذه الحقيقة فى عصر المستنصر بالله الرحالة ناصرى خسرو بقوله « وتنتج مصر عسلا وسكرا كثيرا » (٢٢٤) ·

---

(٢٢١) الصفدى : المصدر السابق ، ص ٢٩ ، ٤٠ ·

(٢٢٢) ابن ظهيره : المصدر السابق ، ص ٦٤ ·

(٢٢٣) ابن أيبك : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ١٧٢ ·

(٢٢٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٠ ·

النشاط التجارى لأهل الذمة

كان لاهتمام الخلفاء الفاطميين بالتجارة أثره فى ازدهار الحركة التجارية فى مصر فى العصر الفاطمى الاول ، ففى هذا العصر كثرت الحاصلات الزراعيه نتيجة للاهتمام بالزراعة ، وازدهر الكثير من الصناعات ، وزاد الطلب عليها ، كما توفر عنصر الامن وشمل الجميع العدل والطمأنينة ، واحكمت الرقابة على الأسواق ، ومنح الخلفاء الفاطميون التجار الأجانب الذين يفدون الى مصر العديد من الامتيازات ، كما منحوهم حق الاقامة فى فنادق خاصة بهم ، بل والسكن فى أحياء خاصة (٢٢٥) ، وكذلك شجعت الحكومة بناء الوكالات والقياسر والخانات ، هذا بجانب انشاء أسطول تجارى مصرى ساعد على تنشيط الحركة التجارية (٢٢٦) ، ومما ساعد على ذلك أيضا نشاط أهل الذمة من التجار الذين استخدموا رؤوس أموالهم الضخمة وسفنهم التجارية فى خدمة الحركة التجارية المحلية والعالمية (٢٢٧) .

---

(٢٢٥) سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

(٢٢٦) البراوى : المرجع السابق ، ٢٠٩ـ٢١٤ .

(٢٢٧) القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٩٠ .

وكان التجار من أهل الذمة فى مصر على درجة كبيرة من المهارة فى الأعمال التجارية ، كما وجدوا فى سياسة التسامح الدينى واهتمام الدولة بالتجارة ما يشجعهم على القيام بهذا الدور الهام فى هذا المجال ·

ففى مجال التجارة الداخلية زخرت القرى التى يغلب عليها السكان الأقباط بالأسواق العامرة بما يسد حاجة سكانها ، فكانت « منية الأمراء » على مقربة من شبرا يعمل بها سوق كل يوم أحد يباع فيه البقر والغنم والغلال والبضائع وكان سوقها من أسواق مصر المشهورة (٢٢٨) ·

كما كان سوق بلدة « بموية » بالفيوم يقام يوم الخميس من كل أسبوع ، وكانت تلك البلدة زاخرة بالعطارين ودكاكين البزازين (٢٢٩) ·

ويذكر ناصرى خسرو أن مدينة تنيس ــ تلك المدينة الصناعية الكبرى التى يغلب على أهلها السكان الأقباط ــ كان بها ما يزيد على عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار ، ويرابط فى مينائها حوالى ألف سفينة (٢٣٠) ، أما فى المدن الكبرى فقد كان فى بعض الأحياء الخاصة التى سكنها أهل الذمة سوق لسد حاجة القاطنين بها (٢٣١) ·

واشتغل كبار التجار من أهل الذمة بتجارة الغلال · ويذكر ناصرى خسرو أن الخليفة المستنصر بالله أرسل الى أحد التجار

---

(٢٢٨) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ١٢٩ ·
(٢٢٩) الصفدى : المصدر السابق ، ص ٦٩ ·
(٢٣٠) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ ·
(٢٣١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٠ ·

النصارى الأثرياء أثناء احدى المجاعات التى انتشرت بالبلاد ، يطلب منه امداد المخازن الحكومية بالغلال « أما نقدا ، وأما قرضا » ، فرد هذا النصرانى على الخليفة بقوله : « ان لدى من الغلة ما يمكننى من أطعام أهل مصر بالخبز ست سنوات » ، ويتعجب ناصرى خسرو من مقدار ثروة هذا التاجر النصرانى بقوله : « ان كل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار (٢٣٢) ، ويذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم اسحق كان من كبار التجار الأثرياء بمدينة قفط (٢٣٣) ·

ولما كان بيع الخمور محرما على المسلمين بحكم الشريعة الاسلامية فان أهل الذمة اشتغلوا بتجارة وبيع المسكرات ، كما كان فلاحو شبرا يعتمدون فى سداد ما عليهم من الخراج على ما يبيعونه من خمر وخاصة فى يوم الاحتفال بعيد الشهيد ، فكان يباع فى هذا اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهبا ، ويذكر المقريزى أن أحد التجار النصارى باع من الخمر فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة (٢٣٤) ·

ووفقا لسياسة الاصلاح الاجتماعى التى اتبعها الخليفة الحاكم بأمر الله فان الخليفة أخذ يطارد تجارة المسكرات كالنبيذ والمزر والنبيذ والفقاع ، وكل ما يعمل منها ، وتكررت السجلات التى تحرم بيع المسكرات بجميع أنواعها ، وحددت بعض السجلات التى أصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله الكميات المباعة من العنب والرطب والعسل بحيث لا يباع للمستهلك منها الا ما يكاد يكفى حاجته · ففى سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب الا خمسة أرطال فما دونها (٢٣٥) ، كما منع بيع العنب الا أربعة أرطال فما دونها · وفى

---

(٢٣٢) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٣ ·

(٢٣٣) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ١٣١

(٢٣٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٨ ، ١٢٩ ·

(٢٣٥) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٢٠ ·

ربيع الآخر من نفس العام أمر بالامتناع عن بيع العسل وألا يتجاوز في بيعه أكثر من ثلاثة أرطال لمن لا يتسبب في امره ان يتخذ منه مسكرا (٢٣٦) ، ولما أمر بمصادرة مخازن العسل واهراقه في النيل ندر وجوده في الأسواق وارتفع سعره حتى عادل ا طلب أوقية بدينار فلم توجد (٢٣٧) ·

ونتيجة لتلك القرارات أضير التجار من أهل الذمة المشتغلين بتجارة المسكرات وما يصنع منها ، بل ان الحاكم تشدد في تلك الفترة مع أهل الذمة فمنع من التعامل معهم بالبيع أو الشراء ، مما أثار استياء التجار والباعة من أهل الذمة ولجأ كثير منهم الى التظاهر بالاسلام والتشبه بالمسلمين « ليظن من يراهم أنهم قد أسلموا » ، ولكن بعد مدة خرج أمر الحاكم بأمر الله بالتعامل مع اهل الذمة بالبيع والشراء كما جرت به العادة (٢٣٨) ·

واشتغل أهل الذمة بتجارة الرقيق ، الا أنه في سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م أصدر الحاكم بأمر الله سجلا حرم بمقتضاه على أهل الذمة تجارة الرقيق · وشدد على النخاسين وتجار الرقيق في المنع من بيع العبيد والاماء لأهل الذمة (٢٣٩) ، ثم كرر هذا الأمر في السجل الذي أصدره في عام ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ، وأمر بتتبع آثار المخالفين لأوامره (٢٤٠) ·

(٢٣٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٦ ·

(٢٣٧) ابن أيبك : المصدر السابق ، ج ٦ ، ورقة ١٧٢ ·

(٢٣٨) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٥٧ ·

(٢٣٩) المقريزى / اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٥٣ ·

(٢٤٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ·

وبوفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠م ألغيت جميع القيود التى تحد من حرية التعامل التجارى مع أهل الذمة ، فمارسوا نشاطهم التجارى فى حرية مطلقة ، وكان بعضهم مقربا من دار الخلافة ، ويذكر ناصرى خسرو الذى زار مصر فى خلافة المستنصر أن أبا سعيد التسترى التاجر اليهودى « كان مقربا من السلطان » الذى كان يعتمد عليه فى شراء ما يريد من الجواهر الكريمة (٢٤١)٠

وكانت أعمال الصيرفة وتجارة الذهب والجواهر من الأعمال التجارية التى نجح فيها أهل الذمة ، وخاصة اليهود ٠

فقد نبغ فى أيام الحاكم بأمر الله الأخوان اليهوديان أبو سعيد ابراهيم وأبو نصر هارون ابنا سهل التسترى ، اذ نبغ أبو سعيد فى الأعمال التجارية ، وكان واحدا من كبار التجار الاثرياء الذين اشتغلوا بتجارة الجواهر والآثار والتحف الثمينة وتجارة الرقيق ، وكثيرا ما استخدم الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أبا سعيد هذا فى ابتياع ما يحتاج اليه من صنوف الأمتعة ٠ أما أبو النصر هارون فقد برع فى أعمال الصيرفة واستيراد البضائع من العراق ٠ وقد اكتسب هذان الأخوان ثقة التجار فى الداخل والخارج لأمانتهما ، واظهار ما يكون عندهما من الودائع لمن يفقد من التجار (٢٤٢) ٠

ومع ذلك فقد وجد بين تجار الذهب والصيارفة اليهود من كان مثالا سيئا فى المعاملات بانكار ما لديهم من ودائع ٠ فيروى أن أحد اليهود من تجار الذهب كانت امرأة كافور الاخشيد قد أودعته قباء لؤلؤ منسوج بالذهب ، فلما طالبته به أنكر القباء ، فلما بلغ الخليفة المعز لدين الله ذلك ، أمر باحضار الصائغ اليهودى ، وأمر برد

---

(٢٤١) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ ٠

(٢٤٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ ٠

ما فى ذمته من ودائع لزوجـة كافور ، فأصر على انكاره ، مما دعـا الخليفة المعز الى ارسال رجاله الى دار اليهودى ، فاستخرجوا منها القباء وسلموه لصاحبته (٢٤٣) ٠

وقد تمتع تجار الجواهر والصيارفة بالأمن والطمأنينة فى عصر الفاطميين ، وكانوا « لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده الى شىء منها (٢٤٤) ، ولم يكن يتأتى ذلك الا باستقرار الأمن وقوة الحكومة المركزية (٢٤٥) ٠

وصاحب انتعاش الحركة التجارية بالأسواق نشاطا ملحوظا للأسطول التجارى ٠ ولقد تعجب المقـدسى من كثرة المراكب التى تجوب نهر النيل ، كما تعجب من كثرة المراكب الراسية أمام ساحل الفسطاط ٠ أما ناصرى خسرو فانه كان يقدر عدد السفن الراسية حول مدينة تنيس بألف سفينة منها « ما هو ملك للتجار وكثير منها للسلطان » (٢٤٦) ، كما يذكر أنه رأى فى الفسطاط نصرانيا من كبار أثرياء مصر امتلك اعدادا من السفن ، وقيل ان مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد ، وأن سفنه كانت تسير فى النيل حاملة الحاصلات الزراعية والسلع والبضائع الى كثير من الموانى والمراكز التجارية الواقعة على النيل (٢٤٧) ٠

---

(٢٤٣) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٢٧٤ ٠

ـ السيوطى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٢ ٠

(٢٤٤) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤ ٠

(٢٤٥) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ٠

(٢٤٦) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٩ ٠

(٢٤٧) ـــــــــ : نفس المصدر ، ص ٦٢ ٠

دور أهل الذمة فى التجارة الخارجية

من الجدير بالذكر أن مصر في العصر الفاطمى الأول احتلت مركزا ممتازا فى مجال التجارة الخارجيــة ، وأضحى لها المكانــة التجارية الأولى فى العالم الاسلامى (٢٤٨) . ولذلك أصبحت موانيها على البحرين الأحمر والمتوســط ملتقى التجار من الشرق والغرب نتيجة ظروف وعوامل داخلية ودولية (٢٤٩) .

ولما كان المصريون لا ينزحون عن مصر للتجارة مع العالم الخارجى الا فى القليل النادر ، فان أهل الذمة وخاصة يهود مصر قاموا بنشاط ملحوظ فى هذا الميدان (٢٥٠) ، وذلك أن التجارة كانت من أهــم

---

(٢٤٨) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٣

(٢٤٩) البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ــ٢١٤ .

ــ ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، ص ٢٩٩ــ٣٠١ .

(٢٥٠) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ــ القاهرة ١٢٧٩هـ/١٩٦٠م ، ص ٢٣٠ .

ــ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٢٩٣ .

الأعمال التى فى أيدى اليهود ، وحرصوا على الاشتغال بها (٢٥١) ، وكان ليهود مصر صلات تجارية وثيقة مع يهود الشرق والغرب ، فأسهموا برؤوس أموالهم فى تجارة أبناء عمومتهم اليهود الراذانية (٢٥٢) ، وهؤلاء هم تجار البحر الذين كانوا يسافرون بين الشرق والغرب . ويحملون معهم من الغرب الى مصر وبلاد الشرق السلع والبضائع القيمة كالديباج وجلود الخز والفراء والسمور ، كما كانوا يستأثرون بأهم ما تصدره أوروبا وهو الغلمان والجوارى البيض ، وعند عودة هؤلاء التجار من الشرق الأقصى كانوا يحملون معهم المسك والعود والكافور والبهار والدراصينى وغيرها من السلع (٢٥٣) .

وكان يهود الشرق من أنشط تجار العالم الاسلامى فى هذه الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، اذ كشفت وثائق الجنيزة من امتلاكهم للسفن التجارية (٢٥٤) ، وكما كانت لهم جاليات فى كثير من موانى الشرق ومدنه التجارية ، كما وفد الى مصر كثير من يهود الشرق المشتغلين بالتجارة لممارسة نشاطهم بها (٢٥٥) . واتخذ بعضهم من مصر مستقرا له . وعلى سبيل المثال ، فان يعقوب بن كلس اليهودى الأصل عمل وكيلا للتجار بمدينة الرملة بفلسطين قبل مقدمه

---

(٢٥١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢٢ .

ـ سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، ص ٤١ .

(٢٥٢) القوصى : المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢٥٣) متز : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٣ .

ـ حسن ابراهيم : تاريخ الأسلام ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧

(٢٥٤) Goite in : Jewsons Arabe New York, 1955, p. 107.

(٢٥٥) بنيامين التطيلى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

ـ متز : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥

الى مصر ، ثم رحل اليها فى عهد كافور الاخشيد ، وواصل احترافه للتجارة ، فاشتهر أمره ، حتى أصبح أول من تولى منصب الوزارة فى مصر فى عهد الفاطميين (٢٥٦) • كما أن الأخوين اليهوديين أبا سعيد ابراهيم وأبا نصر هارون ابنا سهل التسترى كانا من أشهر وأنبغ تجار الشرق الذين استوطنوا مصر ، ويرجع أصلهما الى مدينة تستر بخوزستان تلك المدينة التى كان معظم تجارها من اليهود ، واشتغل الأخوان فى تجارة الشرق وبخاصة فى تجارة الرقيق والتحف والجواهر ، وعرف عن الخليفة الظاهر أنه استخلص أبا سعيد فى ابتياع ما يحتاج اليه قصر الخلافة من سلع الشرق (٢٥٧) ، كما أنه كان يمد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بما يلزم قصر الخلافة من صنوف الأمتعة والسلع • ولقد ربح أبو سعيد من تجارته ثروة طائلة • وقيل أنه لم يكن يعرف مدى غناه الا الله » (٢٥٨) •

ويبدو أن ثروة مصر واتساع تجارتها اجتذبت كثيرا من يهود الشرق والغرب (٢٥٩) ،فقد قام يهود الشرق برحلات تجارية الى مصر ، كما كانت السفن التجارية من « الممالك النصرانية كافة » تفد الى الموانى المصرية وبخاصة الاسكندرية ، ولقد شاهد بنيامين التطيلى فى ميناء الاسكندرية تجارا من جميع المدن التجارية والدول الأوروبية المعروفة فى ذلك الوقت ، كما شاهد التجار الوافدين الى مصر من شمال أفريقية، وجزيرة العرب ،وبلاد الهند ، والحبشة ، واليمن ، والعراق ، والشام ، وبيزنطة ، مع تكالب التجار النصارى على شراء التوابل والعطور وجميع السلع التى يحملها تجار الشرق

---

(٢٥٦) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩
(٢٥٧) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٢٣ •
(٢٥٨) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٥ •
(٢٥٩) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٤١ •

الى مصر (٢٦٠) • كما وجد أثناء زيارته لمصر أعدادا ضخمة من اليهود الذين يقطنون فى الموانى المصرية والمراكز التجارية والصناعية، وأن بينهم عددا من كبار الأغنياء (٢٦١) •

ويذكر ابن ميسر أن بدر الجمالى عند قدومه الى مصر سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م نزل دمياط وتنيس ، واقترض من تجار تنيس ـ وكان معظمهم من القبط ـ أموالا كان فى حاجة اليها (٢٦٢) •

واذا كان أهل الذمة قد امتلكوا رؤوس الأموال ، فانهم قد امتلكوا ـ أيضا ـ القياسر ، وأن بعض هذه القياسر قد أوقفت على الأديرة • ويستدل على ذلك من عبارة وردت فى مرسوم أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م بتجديد عمارة دير القصير ورد الأوقاف التى كانت محبسة على الدير من ضياع وقياسر (٢٦٣) •

كذلك وجد من التجار النصارى من اشتغل فى مجال التجارة الخارجية فقد كان الأنبا ابراهام السوريانى ـ قبل أن يصبح البطريرك الثانى والستين للكنيسة القبطية ـ من كبار التجار الأثرياء ، وتردد الى مصر عدة مرات للتجارة ثم استقر بها ، وكان يمد الخليفة المعز لدين الله وكبار رجال الدولة بما يحتاجون اليه من بضائع وأمتعة ، ومن ثم نشأت صداقات وثيقة بين الأنبا ابراهام والخليفة المعز ورجال دولته (٢٦٤) •

---

(٢٦٠) بنيامين التطيلى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ •

(٢٦١) ــــــ : نفس المصدر ، ص ١٧٣ •

(٢٦٢) ابن ميسر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢ •

(٢٦٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٢٠ •

(٢٦٤) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، المجلد الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١٠٠ •

ويرى المؤرخون أن التجار من اليهود فى مصر قد أسهموا بنصيب كبير فى تجارة الكارم طوال عهد الفاطميين ، جنبا الى جنب مع التجار المسلمين ، اذ كانت روح التعاون سائدة بين كل من احترف هذه المهنة من كل الأديان . كما كان لهؤلاء اليهود نشاط تجارى واسع بين مصر والهند واليمن والمغرب والأندلس (٢٦٥) ، وكانت سفنهم تجوب الموانى التجارية الكبرى التى تقع على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى والبحر المتوسط . فكان يهود الشرق يفدون الى مصر لأعمال تجارية (٢٦٦) . كما كان تجار مصر يبحرون بسفنهم الى موانى البحر المتوسط التجارية (٢٦٧) ، مما أدى الى قيام صلات تجارية وثيقة بين مصر والجاليات اليهودية التى وجدت بتلك الموانى ، وارتبط كثير من يهود مصر برباط المصاهرة مع يهود تلك الجاليات ، وقامت علاقات تجارية نشطة بين مشايخ التجار اليهود بالقاهرة وغيرهم من تجار يهود الشرق المشتغلين بتجارة الكارم ، بل كانت هناك مشاركة فى الأعمال التجارية ورؤوس الأموال اللازمة للتجارة بين يهود مصر ويهود تلك البلاد فى كثير من الأحيان (٢٦٨) . وحقق هؤلاء التجار أرباحا كبيرة وأموالا طائلة من اشتغالهم بتجارة الكارم . وكان الفلفل والبهار من أهم سلع تجار الكارم ، بجانب السلع الأخرى مثل الحاصلات الزراعية والملبوسات والحرير الخام فضلا عن الرقيق الذى كان يصدر الى أوربا حيث يباع بأسعار مضاعفة (٢٦٩) . كما كانت مصر من أعظم أسواق الرقيق الأسود

---

(٢٦٥) القوصى : المرجع السابق ، ص ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ .

(٢٦٦) بنيامين التطيلى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٢٦٧) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٥٠ ، ٧٧ ، ٩٠ .

(٢٦٨) القوصى المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٢٦٩) ــــــ : نفس المرجع ، ص ٩٤ ، ٢١٣ .

فى ذلك الوقت (٢٧٠) ، فقــد اشتغل فى تلك التجـارة يهـود مصر (٢٧١) .

ولقد عمرت أسواق مصر بسلع الشرق ، ولم تكن تلك السلع تستهلك جميعها محليا ، بل احتفظ التجار المصريون بكميات كبيرة منها لبيعها للتجار الفرنج وتجار الروم بأسعار عالية ، وبذلك كان تجار مصر يقومون بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب . كما كان التجار الفرنج يقومون بشراء الحاصلات الزراعية والصناعات المصرية التى اكتسبت شهرة فى الأسواق العالمية (٢٧٢) .

ويرى المؤرخون ـ من واقع وثائق الجنيزة ـ أن غالبية اليهود الرازانية الذين انخرطوا فى تجارة الشرق قد قل دورهم فى مجال التجارة الخارجية مع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . وأن دورهم أخذ فى الاضمحلال بعد أن دخلت الحكومة الفاطميــة فى علاقــات ومعاهـدات تجاريـة مع المــدن والدول الأوروبية (٢٧٣) ، وفضـلا عن ذلك فقد استقرت أعداد من هؤلاء التجار اليهود زمن الفاطميين فى مصر والهند واليمن (٢٧٤) ، ويبدو أن اليهـود الذين استقروا فى مصر قصروا نشاطهـم على التجـارة الداخلية والنشاط المصرفى والأعمال الماليــة (٢٧٥) . كما اعتنق

---

(٢٧٠) سيدة كاشف وحسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢٧١) القوصى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢٧٢) ــــــ : المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢٧٣) Goitein : Op. Cit., p. 107.

(٢٧٤) متز : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ .

ـ القوصى : المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ١٦٤ .

(٢٧٥) عاشور : المرجع السابق ، ص ٤١ .

بعضهم الاسلام حفاظا على مكاسبهم المالية التى كانوا يحققونها من الإشتغال فى هذه الأعمال ، واحتماء بالاسلام مما قد يتعرضون له من وقت لآخر ـ من اضطهاد (٢٧٦) .

وهكذا يتضح مما سبق أن أهل الذمة فى مصر قد شاركوا فى الحياة الاقتصادية ، وأسهموا بنصيب وافر ودور له أهميته فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة فى العصر الفاطمى الأول ..

---

(٢٧٦) القوصى : المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة

(أ) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة

ــ القبط واليهود في مصر في العصر الفاطمي الأول :

عندما فتح العرب مصر كان معظم أهلهــا فى ذلك الوقت من الأقباط ، والى جانبهم أقلية من اليهود • كلما كان يعيش فيها بعض الطوائف التى تنتسب الى شعوب أخرى كانت أهمها طائفة الروم الملكانيين (١) •

وفى السنوات الأولى من الفتح سكن العرب المــدن الكبرى • وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط ، ثم بدأوا ينزلون الى الريف ، وينتشرون فى ريف مصر رويدا رويدا • وعلى الأخص ابتداء من القرن الثانى للهجرة حيث كثر انتشارهم بقرى مصر ونواحيها ، ومشاركتهم الأقباط سكنى الريف والمدن الصغيرة ••

---

(١) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٦٤

وقد قام الأقباط في ريف مصر بعدة ثورات في سنوات ١٠٧هـ، ١٢١ هـ ، ١٣٢ هـ ، ١٥٠ هـ ، ١٥٦ هـ ، وكان الدافع الى قيامهم بتلك الثورات ، عدم رضاهم عن سياسة الولاة المالية (٢) ، وعادة ما كان يتبع اخماد تلك الثورات تحول عدد كبير من الأقباط الى الدين الاسلامي ، كما كان لقرارات الخلفاء والولاة - في القرون الثلاثة الأولى للهجرة - من تعريب الدواوين ، واحلال المسلمين محل الموظفين من أهل الذمة في الوظائف (٣) ، واسقاط الجزية عن كل من يعتنق الاسلام أثر كبير في تحول كثير من القبط الى الاسلام (٤) ٠

ثم كانت ثورة ٢١٦ هـ - في عهد الخليفة المأمون - التي قام بها الفلاحون الأقباط في الوجه البحري - وخاصة أهالي البشمور - والتي اشترك فيها العرب الذين زاد عددهم في الريف تضامنا مع الأقباط بسبب سوء سيرة العمال وفداحة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ٠ ولما استفحل أمر هذه الثورة ، جاء الخليفة المأمون الى مصر للعمل على تهدئة الثورة واخمادها باللين ، ولما لم يستجب الأقباط لنداء الخليفة ، سار بنفسه على رأس قواته التي نجحت في اخماد الثورة في صفر سنة ٢١٧ هـ (٥) ٠

وبانتهاء تلك الثورة التي كانت أكبر وآخر الثورات التي قام بها الفلاحون الأقباط ، أخلد الأقباط الى السكينة والهدوء ، ودخل

---

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ ٠
- البراوى : المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠

(٣) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ١٧٩ ، ١٨٠

(٤) ـــــ : نفس المرجع ، ص ٢١١-٢١٢ ٠

(٥) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ٠
- سيدة كاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٠٩ - ٢١١ ٠

كثير منهم فى الاسلام (٦) ، واختلطت انسابهم بأنساب المسلمين ، كما اتخذ العرب الذين يسكنون الريف الزراعة حرفة لهم (٧) ٠

ثم جاء قرار الخليفة المعتصم سنة ٢١٨ هـ باسقاط العرب من ديوان العطاء ، وقطع أعطيات من فى الديوان منهم ، فأصبح العرب لا يتميزون عن أهل البلاد الا من الناحيتين الدينية واللغوية ، وفقدوا مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية ، مما اضطرهم الى الانتشار فى الريف بصورة أكثر مما كان عليه الامر فى القرنين الأول والثانى الهجريين واشتغالهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغيرها من الأعمال التى كانوا يترفعون عن الاشتغال بها ، وقد ترتب على تعايشهم مع المصريين على هذا النحو الواسع أن اشتد اقبال المصريين على اعتناق الاسلام ، وهو ما ترتب عليه أيضا ازدياد اختلاط العرب بهم عن طريق الزواج ٠ وقد شهدت نهاية القرن الثالث الهجرى تحول الغالبية الكبرى من القبط الى الاسلام مع ما ترتب على ذلك من التعريب (٨) ٠

غير أنه ــ فى القرن الرابع الهجرى ــ يذكر ابن حوقل أن « معظم رساتيق مصر وقراها فى الحوف والريف ، وأهلها نصارى قبط ولهم البيع الكثيرة العزيزة الواسعة » ، وأنهم أهل يسار وذخائر وأموال (٩) ٠ كما يذكر أبو الصلت أن : « سكان أرض مصر اخلاط

---

(٦) المقريزى : المرجع السابق ، ص ٨١ ٠

(٨) سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢٢٩)٢٣٠ ٠

ــ حسن محمود : حضارة مصر الاسلامية ، العصر الطولونى ، ص ٢١٥ ٠

(٩) ابن حوقل : صورة الارض . مطبعة دار الحياة ببيروت ، ص ١٥٠ ٠

من الناس مختلفوا الأصناف والاجناس من قبط ، وروم ، وعرب ، وأكراد ، وديلم ، وحبشان ، وغير ذلك من الأصناف ، الا ان جمهورهم قبط » (١٠) · اما المقدسى الذى زار اقليم مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فيقول ان « عامه ذمته نصارى يقال لهم القبط ، ويهود قليل » (١١) ·

وهكذا نرى الاقباط فى العصر الفاطمى الاول يمثلون اقليه كبيرة غنية من أهل مصر ، وبالذات فى الصعيد الذى كان معظم أهله منهم (١٢) ، فقد كان يوجد وقتذاك كثير من « قرى النصارى الصعايدة » التى كان يتكلم أهلها اللغه القبطيه ويفسرونها بالعربية (١٣) ، كما كان النصارى يشكلون غالبية سكان بعض القرى مثل « أبنوب » و « طنبدى » من قرى الصعيد (١٤) ، فضلا عن كثير من قرى الفيوم التى غلبوا على سكانها (١٥) · وفى الوجه البحرى وجدت أيضا بعض القرى التى كان النصارى أكثر سكانها (١٦) ·

---

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٧ ·

وأبو الصلت هو امية بن عبد العزيز ابي الصلت العلامة الأندلسى الذى زار مصر فى أيام وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فى خلافة الامر باحكام الله ، وتوفى سنة ٥٢٨هـ (عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ٥٧) ·

(١١) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ·

(١٢) غرس الدين خليل : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . طبعة باريس سنة ١٨٩٣م ، ص ٣٣ ·

(١٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ ·

(١٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٥ ·

(١٥) أبو عثمان الصفدى : المصدر السابق ، ص ١٢ ، ٦٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ·

(١٦) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢٩ ·

فاذا انتقلنا الى المراكز الصناعية والتجارية ، نجد أن الكثير من أهل الذمة قد سكنوا في تلك المراكز . فمدينة تنيس التي يقدر ناصرى خسرو سكانها بخمسين ألف نسمة كان القبط يشكلون أكثر سكانها (١٧) ، كما كانت مدينة دمياط يسكنها الكثير من القبط الذين كانت تقع أكثر دورهم على شاطىء البحر (١٨) ، أما شطا تلك القرية الصناعية الكبرى – والتى تقع بين تنيس ودمياط – فقد كان أكثر سكانها عمال النسيج من الاقباط (١٩) .

كما أن أكثر مدن الصعيد الكبرى كاسيوط وأخميم – على سبيل المثال – كانت غالبية سكانها من القبط نظرا لما كانت تتمتع به هذه المدن من أهمية صناعية وتجارية فى مصر الفاطمية (٢٠) .

وعلى الرغم من أنه ليس لدينا بيان شامل بتعداد أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، الا أنه كما سبق أن أوضحنا ، فان نصارى مصر كانوا يشكلون أقلية كبيرة العدد تقدر بحوالى ثلث سكان اقليم مصر (٢١) .

هذا بينما نجد بنيامين التطيلى الذى زار مصر حوالى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م ، أى فى أواخر العصر الفاطمى يقدر تعداد اليهود فى مصر ببضعة آلاف . فحسب تقديره كان فى المحلة حوالى خمسمائة يهودى ، وفى بلبيس ثلاثة آلاف ، وفى أبى تيج مائتان ، وفى الفيوم مائتان ، وفى دميرة سبعمائة ، وفى الاسكندرية ثلاثة آلاف ، وفى دمياط مائتان ، وفى حلوان ثلاثمائة ، وفى قوص ثلاثمائة ، كما

---

(١٧) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(١٨) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٩) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(٢٠) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١١٦ .

(٢١) ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، ص ٢٩٠ .

قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بألفي يهودى كان من بينهم عدد كبير من الأثرياء وكبار العلماء (٢٢) · ولا بد أن عدد يهود مصر فى العصر الفاطمى الأول كان أكبر بكثير مما قدره بنيامين ، اذ يذكر ابن اياس أن عدد من ارتد من اليهود ـ بعد أن تظاهروا بالاسلام ـ فى يوم واحد فى عهد الحاكم بأمر الله كان أكثر من سبعة آلاف يهودى (٢٣) ·

كما كشفت وثائق الجنيزة عن حقيقة هامة ، وهى أن اليهود لم يعيشوا فى الموانى والمدن الرئيسية السالفة الذكر فقط ، بل عاشوا فى الريف المصرى أيضا ، ولعبوا دورا هاما فى التجارة والأعمال المالية (٢٤) ·

أما فى الواحات ، فقد كان الغالب على الفرفرون (الفرافرة) السكان من القبط ، ولم يكن يوجد بالواحات من اليهود أحد (٢٥) ·

ولم تمدنا المصادر التاريخية التى وصلت الينا من العصر الاخشيدى بما يشير الى وجود أحياء مخصصة لأهل الذمة فى مدينة الفسطاط ، وان كان طبيعيا أن يفضل أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين (٢٦) ·

أما فى القاهرة الفاطمية فقد وجدت أحياء خاصة بأهل الذمة · فعندما اختطت القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ، اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، واختط الروم الواصلون صحبة جوهر القائد

---

(٢٢) بنيامين التطيلى : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ·

(٢٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥١ ·

(٢٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٦٤ ·

(٢٥) ابن حوقيل : المصدر السابق ، ص ١٤٥ ·

(٢٦) سيدة كاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ، ص ٢١٤ ·

حارة عرفت بهم ونسبت اليهم (٢٧) ، ويذكر الأنطاكى أنه كان للروم الملكانيه حارة بالقاهرة يسكنون بها فأخرجوا منها ، وهدمت مبانيها ، وحولوا منها الى الموضع المعروف بالحمراء ، فعملوا لهم بها حارة ، واتخذوا منها موضعا لسكناهم (٢٨) ·

أما اليهود فقد سكنوا حارة الجودريه ـ نسبة الى احدى طوائف العسكر فى أيام الحاكم بأمر الله ـ ، وظلوا مقيمين بها ، الى أن بلغ الحاكم بأمر الله أنهم يجتمعون بها أوقات خلواتهم ، ويهزءون بالمسلمين ، ويسخرون منهم ، ويخوضون فى الديانة الاسلامية ، ويتعرضون الى ما لا ينبغى سماعه ، فسد الحاكم بأمر الله أبواب الحارة عليهم ليلا وأحرقها ، ثم أفرد لهم حارة زويلة (٢٩) ، وأمرهم فى سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م بأن يلزموا حاراتهم ، وألا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم (٣٠) ·

وكان الصناع الأجانب يسكنون فى المناخ السعيد بالقاهرة ، ويظهر أن هؤلاء الصناع اجتذبهم الفاطميون بالرواتب المغرية والمعاملة السمحة ، أو أنهم كانوا من الرقيق أو الأسرى الذين علموهم مختلف الصنائع والحرف (٣١) ·

أما مدينة الاسكندرية فكان يسكن بها كثير من الأجانب المشتغلين بالتجارة والذين ينتمون الى جاليات أجنبية مختلفة ، وكان لكل جالية فندق خاص بها (٣٢) ·

---

(٢٧) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٣٥٧ ·
(٢٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ·
(٢٩) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ،ص ٤ ·
(٣٠) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥١ ·
(٣١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٤٤٣ ·
(٣٢) سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ٢٠٣ ·

وكان الفتح العربى لمصر عاملا مساعدا على احياء اللغة القبطية على حساب اللغــة اليونانيــة التى كانت منتشرة فى مصر فى ذلك الوقت ، فأصبحت الدروس تقرأ فى الكنيسة باللغة القبطية بعد أن كانت تقرأ باليونانية وتشرح بالقبطية ، وبعد أقل من نصف قرن من الفتح تقريبا بدأ العرب يتجهون الى تعريب البلاد والى جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية وذلك لعدممعرفتهم باللغة القبطية ، وقد بدىء فى تعريب الدواوين فى مصر سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م فى ولاية عبد الله بن عبد الملك ، مما اضطر المصريين العــاملين فى دواوين الحــكومة الى تعلم اللغــة العربية حفاظا على الوظائف التى كانت بأيديهم (٣٣) • وفى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى بدأت اللغة القبطية فى الاضــــمحلال والتلاشى أمام اللغة العربية نتيجة لما حدث من اتمام حركة التعريب فى مصر (٣٤) •

وعلى الرغم من أن اللغــة العربية أخذت فى الانتشار ، وأن المصريين أقبلوا على تعلمها ، الا أن عامة أهل مصر – على حــد تعبير المقدسى – كانت « لغتهم عربيــة ركيــكة ••• وذمتهــم يتحدثون القبطية » (٣٥) •

وكان القبط يتكلمون القبطيــة بلهجات متعــددة ، فاللهجــة البحرية كانت تستعمل فى الاسكندرية وما جاورها والدلتا ووادى النطرون ، ثم أصبحت هى اللهجة الرسمية للكنيسة القبطية منذ أن نقل البابا خريستودولوس البطريركية الى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى (٣٦) •

---

(٣٣) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٧٩ •

(٣٤) زكى شنودة : موسوعة تاريخ الأقباط ، الطبعة الثانية ، الجزء الأول ، ص ١٠ •

(٣٥) المقدسى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ •

(٣٦) زكى شنودة : المرجع السابق ، ص ١٠ •

ويذكر المقريزى أن نصارى قرى الصعيد الأعلى كانوا يتكلمون « القبطى الصعيدى » ـ اللهجة الصعيدية ـ وأن نساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا القبطية الصعيدية ، وأن لهم أيضا معرفة باللغة الرومية « اليونانية » (٣٧) ٠

وكان من عادة نصارى مدينة أسنا أنهم كانوا يحضرون أفراح المسلمين ويطوفون فى أسواق المدينة وشوارعها أمام العرائس وهم يهللون ويغنون بعبارات قبطية صعيدية (٣٨) ٠

وفى الصعيد كانت هناك أيضا لهجات قبطية فرعية مثل اللهجة الاخميمية التى كانت تستعمل فى أخميم واللهجة الأسيوطية التى كانت تستعمل فى أسيوط ، واللهجة الفيومية التى كانت تستعمل فى الفيوم ٠ وأما فى شرق الدلتا فقد كان القبط يتحدثون باللهجة البشموية (٣٩) ٠

وفى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى أخذ بعض علماء الأقباط يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية ٠ فقد كتب البطريك الملكانى سعيد بن بطريق (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٤٠ م) كتابه فى التاريخ باللغة العربية ، كما أن ساويرس بن المقفع (ت أواخر القرن الرابع الهجرى/ أواخر القرن العاشر الميلادى) أسقف الأشمونيين كتب مؤلفه « سير الآباء البطاركة » باللغة العربية أيضا ، هذا بجانب القيام بجمع الوثائق اليونانية والقبطية وترجمتها الى العربية (٤٠) ٠

---

(٣٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٠٥ـ٥٥٦ ٠

(٣٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ ٠

(٣٩) زكى شنودة : المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١١ ٠

(٤٠) سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ١٨٠ ٠

غير أن اللغتين القبطية واليونانية ظلتا مستعملتين فى المعاملات الخاصة الى أن بطل استعمالهما فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى · ففى هذا القرن اصبحت اللغة العربية لغة التخاطب السائدة (٤١) ·

ـ المكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمـة :

كان لسياسة التسامح الدينى التى اتبعها الفاطميون ازاء أهل الذمة أثرها الكبير عليهم كطبقة اجتماعية عاشت فى المجتمع المصرى، اذ كان منهـم الوزراء والوسطاء وكبـار رجال الدواوين ، والكتاب والأطباء والمتقبلين ، والضمان ، والصناع المهرة ، والتجار الأثرياء ، والملاك أصحاب الضياع فى مصر ، ووصل الكثيرون منهم الى مكانة اجتماعية سامية ، فكانوا من الطبقة العليا فى المجتمع ذات الصلة الوثيقـة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الاقطاعات والضياع والمنح والأموال والعطايا فى شتى المناسبات ·

ففى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م ولد للوزير ابن كلس ولد ، فأرسل اليه العزيز بالله مهدا من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار ، وخمسة عشر فرسا بسروجها ولجمها ، منها اثنان لهبا ، كما اشتملت الهدية على كثير من الطيب ، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار (٤٢) ·

---

(٤١) زكى شنودة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣ ·

ويذكر المؤلف أن اللغة القبطية ظلت لغة التخاطب فى القرى البعيدة فى الصعيد الاعلى حتى القرن السابع عشر الميلادى (القـرن الحـادى عشر الهجرى) ، وفى القرن الثامن عشر الميلادى بدأ الأقباط يكتبون اللغـة العربية بحروف عربية ، وفى القرن التاسع عشر انتهى الكلام والتخاطب باللغة القبطية وان كانت قد ظلت لغة الكنيسة حتى القرن العشرين (زكى شنودة نفس المرجع ، ونفس الصفحة) ·

(٤٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٥٢ ·

وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الذمة ـ الذين سبقت الاشارة اليهم ـ بالأموال والهدايا تشجيعا وتكريما لهم (٤٣) ، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر ، وكما شمل الخلفاء أولاد أطبائهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة والهبات فعاشوا فى رغد من العيش (٤٤) ٠

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود والنصارى ، اذ كانوا هم الطبقة التى اعتمد عليها فى ادارة دواوين الحكومة ، ففى عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة فى بلاط الخلافة وتولى الاشراف على الادارة المالية فى الدولة ، وليس هناك أدل على علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم ، من تلك العلاقة والصداقة التى وجدت بين العزيز بالله ووزيره ابن كلس ، وفى كلمات العزيز له وقت احتضاره ، ما يؤكد حب الخليفة له، ومكانته الاجتماعية(٤٥)، وفى رسالة العزيز الى طبيبه ابن مقشر ما يشير الى علو منزلة الطبيب عند الخليفة وتقديره له ٠ كما أن الحاكم بأمر الله زار ابن مقشر عندما مرض ، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد وفاته (٤٦) ٠

وجالس ابن نسطاس الطبيب النصرانى الخليفة الحاكم بأمر الله ، وشرب معه عندما أشار عليه بذلك ، وكان من خواصه وندمائه ، وواحد من القلائل الذين يفضى اليهم بأسراره ، كما جالس

---

(٤٣) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ٠

(٤٤) القفطى : المصدر السابق ، ص ٤٣٨ ٠

ـ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٤٨ ٠

(٤٥) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ٠

(٤٦) القفطى : المصدر السابق ، ص ٤٣٨ ٠

ـ ابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٥٠ ٠

ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين ابن جوهر ، وأبو الحسن الرسى ، والمسبحى ، والقاضى عبد العزيز ابن محمد بن النعمان ، وكان يخالطهم ، ويحضر مجالسهم الخاصة (٤٧) .

وامتلك كثير من أهل الذمة الأموال الطائلة والقصور الفخمة التى امتلأت بالخدم والعبيد ، واكتظت بأثمن ما عرف فى هذا العصر من موجودات وتحف وذخائر ومقتنيات .

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الخراج بفلسطين فى عهد الخليفة المعز ما يزيد على تسعين ألف دينار (٤٨) ، كما امتلك الوزير يعقوب بن كلس الاقطاعات والضياع والأموال ، وكان قصره واحدا من أعظم قصور القاهرة الفاطمية ووجد فى تركته بعد وفاته (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار ، ومن الملبوس والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار ، ووجدا له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ، سكنوا فى المكان المعروف بالحارة الوزيرية التى اتخذها سكنا لحاشيته وعبيده ومماليكه وحشمه ، ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار (٤٩) .

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان محبا لجمع المال فالكل قد اتخذ من الوزارة أو الوساطة وسيلة للثراء (٥٠) ، وليس أدل على ثرائه الفاحش غير المشروع من تلك الغرامة التى بلغت

---

(٤٧) ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ، القسم الثانى ، ص ص ٣٦٢ ، ص ٣٦٣ .

(٤٨) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤٤ .

(٤٩) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢٠ .

(٥٠) المناوى : المرجع السابق ، ص ٨٦ .

ثلاثمائة ألف دينار ، والتى دفعها الى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله لسوء سياسته (٥١) ٠

أما منشا بن ابراهيم القزاز اليهودى الذى كان عاملا على الشام ، فقد جمع ثروة بالابتزاز ، مما اضطر الخليفة العزيز الى مصادرته (٥٢) ٠ كما استحوذ فهد بن ابراهيم النصرانى على كثير من الاقطاعات والضياع والأموال وبلغ راتبه السنوى ستة آلاف دينار (٥٣) ٠

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الثراء ، وعندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله فى سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار عينا يفدى بها نفسه فلم يجب الى ذلك (٥٤) ٠

ويحدثنا ناصرى خسرو عن ثروة أبى سعيد التسترى بقوله أنه « يهودى وافر الثراء ٠٠٠ وقيل أنه لا يعرف مدى غناه الا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة ، زرع فى كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة » (٥٥) ٠ وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفزع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فورا لخزانة الدولة مائتى ألف دينار ، غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس ، وتمزيقها على الملأ ، وخاطب الجميع قائلا « كونوا آمنين ، وعودوا الى بيوتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لمال أحد » (٥٦) ٠

---

(٥١) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٩ ٠

(٥٢) أبو شجاع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ٠

(٥٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٩ ٠

(٥٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٥١ ٠

(٥٥) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٦٤،٦٥ ٠

(٥٦) ـــــــ : المصدر السابق ، ص ٦٥ ٠

كما يذكر ناصرى خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصرانيا من كبار أغنياء مصر ، قيل أن مراكبه وأمواله واملاكه لا يمكن أن تعد . وأن لدى هذا النصرانى من الغلال ما يمكنه من اطعام اهل مصر « الفسطاط » ست سنوات (٥٧) · وعلى الرغم من أن ناصرى خسرو كان مبالغا فيما رواه . الا أن فى روايته الدليل القوى على ثراء الكثير من أهل الذمة فى مصر الفاطمية ·

وكان أبى المليح الملقب بمماتى واحدا من نصارى أسيوط الأثرياء ، وأنه كان يمتلك أيام الغلاء والشدة العظمى فى عصر المستنصر بالله قمحا كثيرا ، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبوه وشكروه لحسن صنيعه (٥٨) ·

ويذكر أبو صالح الأرمنى أن واحدا من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال كان ذا مال وجاه ، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحلاوى فيقبلها منه ، ويخلع عليه ويقضى حوائجه (٥٩) · أما المعلم اسحق الذى كان واحدا من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط ، فقد امتلك من الأراضى والأموال والماشية الشىء الكثير (٦٠) ·

ولم تكن الدولة تصادر ممتلكات وثروات واقطاعات كبار موظفيها من أهل الذمة طمعا فيها ، وانما كانت تصادر هذه الثروات بسبب سوء سياستهم الادارية والمالية أو استفحال نفوذهم ،

(٥٧) ——— نفس المصدر ، ص ٦٢ ·

(٥٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٩ ·

(٥٩) أبو صالح الأرمنى المصدر السابق ، ص ٣٢ ·

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١٢٠ ·

(٦١) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٤٢٠ ·

وانحيازهم لبنى ملتهم ، وجمعهم الثروات بطرق غير مشروعة ، أو بسبب ترفعهم وشكوى الرأى العام الاسلامى منهم ٠

وقد إمتلك أهل الذمة ــ وبخاصة الأثرياء ــ الرقيق ، ليعملوا خدما في القصور ٠ فقد وجد فى تركه ابن تنس أربعة آلاف عبد ومملوك (٦١) ، كما امتلأت قصورهم بالجوارى والقينات ، وكان اليهود المشتغلون فى تجارة الشرق يشترون الجوارى لاتخاذهم خدما لهم (٦٢) . ومن الجدير بالذكر ان زوجة العزيز بالله أم ست الملك كانت جارية رومية (٦٣) ، كما كانت أم المستنصر بالله جارية لأبى سعيد التسترى أهداها للخليفة الظاهر لاعزاز دين الله (٦٤) ، وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من طوائف الشعب أن تهافت الأقباط ــ وخاصة الموظفين منهم ــ على تعدد السرارى فى بيوتهم بدون عقد شرعى، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية (٦٥) ٠

ونتيجة لهذا الثراء وتلك المكانة الاجتماعية ، كان أهل الذمة يلبسون الملابس الجليلة ، وكان عمال النصارى يلبسون أثوابا كأثواب عظماء المسلمين ، ويركبون البغال ويمتطون الخيول (٦٦) ٠

على أن الكثيرين من أهل الذمة كانوا يجعلون لأنفسهم مقاما عاليا أمام الطبقة الدنيا ، وكانت مغالاتهم وترفعهم على هذه الصورة أمام جمهور المسلمين تؤدى الى ارتفاع أصوات المسلمين

---

(٦٢) القوصى : المرجع السابق ، ص ٢١٣ ٠

(٦٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٥١

(٦٤) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١ــ٣ ٠

(٦٥) بتشر : تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ، جـ ٢ ، ص ١٦

(٦٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ ٠

بالاستنكار (٦٧) ، فتصدر أوامر الخلفاء الفاطميين بفرض قيود اجتماعية ضدهم ـ سنوضحها فيما بعد . وكانت هذه القيود تطبق بمنتهى الصرامة فى حينها ، ثم لا تلبث أن تخفف شيئا فشيئا ، ولذلك كان الأمر يستلزم تكرار فرض تلك القيود فى صورة مراسيم متتالية صادرة من دار الخلافة .

وقد أنعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل الذمة بالألقاب تكريما لهم ، ودلالة على مكانتهم فى الدولة . فابن كلس الوزير لقب « بالوزير الأجل »(٦٨)، ولقب عيسى بن نسطورس « بسيدنا الأجا » (٦٩) . أما ابن عبدون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب « الكافى » (٧٠) ، كما انعم على زرعة بن عيسى ابن نسطورس بلقب « الشافى » (٧١) ، ولقب أخوه صاعد بن عيسى ابن نسطورس « بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالى ذو الجدين»(٧٢). أما المستنصر بالله الفاطمى فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحى اليهودى الأصل لقب « الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفى أمير المؤمنين » (٧٣) ، كما منح أبو على الحسن بن أبى سعد ابن ابراهيم بن سهل التسترى لقب « العميد علم الكفاة » ، وخوطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصرانى الأصل ـ فى خلافة

ـ بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية . ترجمة حمزة طاهر . ص ٢٤ .

(٦٧) ـــــــ : نفس المرجع والصفحة .

(٦٨) المقريزى : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٦٩) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ .

(٧٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٧١) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٧٢) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(٧٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

المستنصر ــ بلقب « الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف الكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين » (٧٤) ٠

وعلى الرغم من أن هذه الألقاب تدل على نفوذ هؤلاء الوزراء والوسطاء الا أن فى الألقاب الأخيرة ما يشير الى ازدياد نفوذهم ، واستفحال أمرهم ، وعلو مكانتهم الاجتماعية وبخاصة فى عهد المستنصر بالله خامس الخلفاء الفاطميين فى مصر ٠٠

ـ القيود الاجتماعية التى فرضت على أهل الذمة :

التزم أهل الذمة فى الدولة الاسلامية من الناحية الشرعية بعدة قيود تتعلق بالمظهر الاجتماعى ، وتشكل جانبا مما اصطلح على تسميته « بالعهد العمرى » أو « الشروط العمرية » المنسوبة الى الخليفة عمر بن الخطاب ٠

وتمثلت تلك القيود الاجتماعية فى الزام أهل الذمة بلبس الغيار فان كان يهوديا وضع على كتفه خيطا أحمر أو أصفر ، وان كان نصرانيا شد فى وسطه زنارا وعلق فى عنقه صليبا ، وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر أسود ، واذا دخل

(٧٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٦ ٠

الذمي الحمام ينبغى أن يكون فى عنقه طوق من حديد أو نحاس أو رصاص تمييزا له من المسلم (٧٥) ٠

كما اشترط على أهل الذمةألا تعلو أصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم ، وألا تعلو أبنيتهم فوق أبنية المسلمين ، وألا يتجاهروا بشرب الخمر واظهار الصلبان والخنازير ، وأن يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهروا بالندب عليهم ولا نياحة وان يمنعوا من ركوب الخيل (٧٦)٠

تلك هى بعض الشروط التى وردت « بالعهـد العمرى » أو « الشروط العمرية » التى تنظم تصرفات أهل الذمة فى المجتمـع الاسلامى ٠ ولم يكن أغلب الحكام المسلمين يلجأون الى الزام أهل الذمة بهذه الشروط الا فى حالات الاضـطهاد والحروب (٧٧) ٠ ويرى البعض أن تلك الشروط المشـــار اليها والتى عرفت باسم « الشروط المستحبة » انما هى من وضع الفقهاء فى مرحلة متأخرة ،

---

(٧٥) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص ١٠٦ ٠

وروى أن نصارى الشام شرطوا على أنفسهم فى كتابهم الى عمر بن الخطاب أن لا يتشبهوا بالمسلمين فى شىء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية ،وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا ، وأن يشدوا الزنار على أوساطهم ، ويرى أصحاب الامام الشافعى أن أهل الذمة يلزمهم أن يتميزوا فى اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس تميزهم عن قلانس المسلمين بالحمرة ويشدوا الزنار على أوساطهم ، ويكون فى رقابهم خاتم من نحاس أو رصاص أو جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا العمائم أو الطيلسانات ٠ وأما المرأة فانها تشد الزنار تحت الأزار ، وقيل فوق الازار ، وهو الأولى ، ويكون فى عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض (الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف ، جـ ١ ، ص ١١٠ـ١١٢) ٠

(٧٦) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ٢١ (نقلا عن أبن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، جـ ١ ، ص ٢٣٦) ٠

(٧٧) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٩٥ ، ٩٦ ٠

مغالاة منهم فى فرض القيود على أهل الذمة الذين لم تفرض عليهم هذه الشروط في عهد النبى صلى الله عليه وسلم (٧٨) ٠

وفى بداية العصر الفاطمى الأول لم يلجأ الخليفتان المعز لدين الله وولده العزيز بالله الى فرض أية قيود على أهل الذمة وبخاصة فيما يتعلق بالملابس ، والركوبات ، والحمامات ، واستخدام المسلمين لدى أهل الذمة ، فالتسامح كان أساسا لسياستهما تجاه أهل الذمة ٠٠

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من توليه الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التى نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة ـ باستثناء الخيابرة ـ (٧٩) ، وتلزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار ، وذلك تنفيذا لما اصطلح على تسميته « بالشروط العمرية » ولكن الحاكم بأمر الله بالغ فى هذه الشروط وزاد عليها ، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم الى تطبيق هذه الشروط وزيادته عليها امتحانا لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه فى عهود الاضطهاد السابقة (٨٠) ٠ ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة فى تطبيقها بالدرجة التى فاقت احتمال الكثيرين منهم (٨١) ٠

ففى النصف الأول من شهر المحرم سنة ٣٩٥ هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلا ألزم النصارى ، واليهود ـ دون الخيابرة ـ بشدة الزنانير فى أوساطهم ، ووضع العمائم السود على رؤوسهم ـ اذ كان السواد هم شعار العباسيين وهم العصاة فى نظر

(٧٨) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٢١ ٠

(٧٩) وهم يهود يرجع أصلهم الى خيبر وما جاورها ، الذين أمر عمر بن الخطاب بنقلهم من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وذلك جريا على السنة الاولى منذ أيام النبى صلى الله عليه وسلم (ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ٩٦) ٠

(٨٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٣٥٤ ٠

(٨١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٥٩ ٠

الفاطميين – وأعلن هـذا السـجل فى جوامع مصر ، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة فى أنحاء الدولة (٨٢) ٠

وفى سنة ٣٩٧ هـ/١٠٠٦ م اشتدت القيود صرامة ، ففى هذا العام أمر النصارى ، واليهود – دون الخيابرة – بلبس السواد ، وأن يحمل النصارى الصلبان فى أعناقهم ، وأن يحمل اليهود فى أعناقهم قرامي الخشب والجلاجل (٨٣) ٠

وفى العام التالى أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمة بالشدة فيما يتعلق بالغيار ، واشترط على من يقيم فى دولته منهم فى مصر أن يلتزم بمـا شرط عليهم من الشروط التى زاد فيهـا على الشروط العمرية ، فشرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة ، وعلى اليهود قرامى الخشب على هيئة رأس العجل ٠ فاتخذ النصارى صلبـان الذهب والفضة ، فأنكر الخليفة ذلك ، وأمر المحتسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صلبان الخشب واليهود بتعليق القرامى ، كما أمر بالنداء فى أهل الذمة بأنه من أراد الدخول فى الاسلام فله ذلك ، ومن أراد الانتقال الى بلاد الروم كان آمنا الى أن يخرج ، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه ، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة الى الدخول فى الاسلام (٨٤) ٠

كما نودى فى سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٨ م بأن لا يمشى اليهود والنصارى الا بالغيار والا ضربوا على ذلك ٠ ويذكر المقريزى أنه فى

---

(٨٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ٠
– المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ٠
(٨٣) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٣
(٨٤) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٣١٣ ٠
– ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ٠

سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م اشتد الأمر على أهل الذمة فى الزامهم لبس الغيار (٨٥) • وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة الزامهم لبس الغيار (٨٥) • وفى العام التالى أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة من النصـارى واليهود بتغيير الزنانير الملونة التى يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمائم السود على رؤوسهم (٨٦) •

وفى سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م أمر النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ بلبس العمائم السود ، وأن تحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسـة أرطال ، وأن تحمل اليهود فى أعناقهم عند خروجهم الى الأسـواق قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى (٨٧) •

ويذكر ابن اياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله ألزم النصارى أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة ، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه (٨٨) •

وجدد الحاكم بأمر الله هذا المرسوم فى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢م ، فأمر أن تلبس النصارى واليهود ـ دون الخيابرة ـ طيالسة سود ، وعمائم شديدة السواد وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلبـــان

---

(٨٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٦ ، ٨١ •

(٨٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ •

ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٨٥ •

(٨٧) القضاعى : المصدر السابق ، ورقة ١٨٠ •

ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠ •

ـ العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٦٧٨ •

(٨٨) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٢ ، ٥٣ •

الخشب مضافا الى الزنار فى أوساطهم ، فلبسوا صلبانا طولها فتر . ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر فى شبر . فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى بتعظيم الصلبان التى فى رقابهم ، وأن يكون طولها ذراع فى عرض مثله ، وفتحها ثلثى شبر وسمكها أصبع (٨٩) ، غير أن الأنبا ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصفا على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة ، وأن يعلقوه فى رقابهم بحبال من ليف (٩٠) . كما نودى على اليهود بأن يعلقوا فى رقابهم قرامى الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل منها خمسة أرطال تعلق فى رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم (٩١) ، وعلى أن تكون هذه الصلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم الى الأسواق بحيث يراها الناس (٩٢) وأذن للناس فى البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم (٩٣) ، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت مخاوفهم ، وخلت الطرقات أياما لم ير فيها نصرانى (٩٤) ، واذا وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض للاهانة والغرامة ، مما أدى الى أن ضاق أهل الذمة ذرعا بتلك القيود التى فرضت على الملابس . ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود ، ومن مضايقات المسلمين لهم ،

---

(٨٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٩٠) الأنبا ميخائيل ، المصدر السابق، ج ٣ ، ورقة ٥٦ .

(٩١) ——— : نفس المصدر ، ص ٥٦ .

— الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(٩٢) المقريزى : الخطط : ج ٢ ، ص ٢٨٧ .

(٩٣) عنان : المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٩٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٣٠٤ .

فاذا نسي نصراني منهم صليبه ومشى فى طرقات المدينة بلا صليب تعرض للأذى ولقى كثيرا من الاهانة والسخرية (٩٥) ٠

غير أنه قد خفف من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله لرعاياه من أهل الذمة فى صفر سنة ٤٠٤ هـ بالانتقال الى بلاد الروم أو النوبة أو الحبشة ، أو التزام الغيار اذا رغبوا فى البقاء (٩٦) ، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها الى نزع الغيار والصليب والزنار والتشبه بالمسلمين ، والتظاهر بالاسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الاسلام (٩٧) ٠

كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التى أصدرها بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات ٠٠

ففى سنة ٣٩٨ هـ و ٣٩٩ هـ/١٠٠٧ م و ١٠٠٨ م ، أمر الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة عند دخولهم الحمامات بعلامات تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب يعلقونه فى رقابهم ، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب ، كما نودى ألا يدخل أحد الحمام الا بمئزر ، وأخذوا بالشدة والضرب فى تنفيذ تلك الأوامر ، كما كبست الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بتلك السجلات ٠ غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة ، ولم يعد أهل الذمة يكترثون بتنفيذها (٩٨) ٠

---

(٩٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٥٧ــ٥٩ ٠

(٩٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ٠

(٩٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٥٧ ٠

ــ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ٠ ويذكر المقريزى تاريخ هذا المرسوم فى ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ ٠

(٩٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٥ ٠

ــ ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ٠

ــ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٦ ٠

وفى المرسوم الذى أصدره الحاكم سنة ٤٠٢ هـ/١٠١١ م أكد ما سبق أن أصدره من أوامر بشأن الحمامات ، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين • وأمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة ـ كذلك الحمام الذى أنشأه ابن أبى الدم اليهودى كاتب الانشاء فى عهد الحاكم ـ ، ووضع على حمامات النصارى الصلبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامى الخشب ، كعلامات مميزة تعرف بها ، مع التزامهم بتعليق الصلبان والقرامى الخشب فى رقابهم عند دخولهم الحمامات (٩٩) • وتأكد ذلك مرة أخرى فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م ، كما تكررت تلك القيود فى المرسوم الصادر من دار الخلافة فى شهر المحرم من السنة التالية (١٠٠) •

أما فيما يتعلق بالركوبات ، فانه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك ، كما نعموا بحرية إستعمالها فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم (١٠١) ، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال ، وكانت لهم الاصطبلات المعدة لتربيتها • ويذكر المقريزى أن فهد ابن إبراهيم النصرانى كان يمتلك العشرات من الخيول والبغال ، وأنه حمل الى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال ، وعشرون فرسا منها عشرة مطهمة باللجم والسروج المحلاة وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة • كما أن الحاكم بأمر الله صرح

(٩٩) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٥٥ •
ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ٣٨٠ •
ـ النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٦ •
(١٠٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ، ١٠٠ •
(١٠١) ـــــ الخطط ، جـ ١ ، ص ٦٨ •

لأولاد فهد فى شعبان سنة ٣٩٢ هـ باسترداد ما أخـذ منهم من سروجهم المحلاة بالذهب ، وأمرهم بالركوب (١٠٢) ، وعندما خلع الحـاكم بأمر الله فى ربيع الأول سـنة ٣٩٤ هـ على أبى يعقوب ابن نسطاس الطبيب ، حمله على بغلين ومعه الثياب الفاخرة ، ولما توفى ابن نسـطاس استطب الحـاكم بأمر الله صـقر اليهودى (ت ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م) وخلع عليه فى سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م ، وحمله على بغلة محلاة بالسرج واللجام الفخمة ، وأهداه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال (١٠٣) .

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التى أصدرها لفرض بعض القيود على أهل الذمة شملت أيضا قيودا على الركوبات ففى سجلاته الصادرة فى سنتى ٤٠٢ هـ و ٤٠٣ هـ/١٠١١ م و ١٠١٢ م منع أهل الذمة من ركوب الخيل ، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحمير وبسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة ، وأن تكون من جلود سود، وألا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز ، وأمر أيضـا أن يضرب بالجرس فى القـاهرة ومصر (الفسطاط) ألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميا ، كما منع الملاحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة (١٠٤) .

ولما كان الأغنياء من أهل الذمة يتهافتون على تعدد السرارى فى بيوتهم ـ مخالفين بذلك شريعتهم ـ (١٠٥) ، وشراء الجوارى ،

---

(١٠٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٤٤ .
(١٠٣) ـــــــ : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٣ .
(١٠٤) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٥٥ ، ٥٦ .
ـ الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
ـ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٤ .
ـ ـــــــ : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .
(١٠٥) تبشر : تاريخ الأمة القبطية ، جـ ٣ ، ص ١٥ .

واتخاذ الرقيق واستخدامهم فان الحاكم بأمر الله أمر فى السجل الذى أصدره فى سنة ٣٩٥ هـ /١٠٠٤ م بمنع بيع العبيد والاماء لأهل الذمة ، ثم جاء فى المرسوم الذى أصدره فى سنة ٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ م ألا يستخدم الذميون مسلما وألا يقتنوا عبدا مسلما أو جارية مسلمة ، وقد تتبع آثار المخالفين لأوامره (١٠٦) ٠

وأمام اقبال نصارى مصر على تربية الخنازير وأكل لحومها ، أمر الحاكم بأمر الله بقتل الخنازير التى فى اقليم مصر ، فقتلت جميعهـا ، وكانت خنـازير كثيرة لاسيما التى كانت فى منطقـة البشمور (١٠٧) ٠

ولكن ازاء صرامة القيود التى فرضها الحاكم على أهل الذمة ، وتشدده فى تنفيذها ، فقد جأروا بالشكوى ، بل بلغ بهم الأمر أن تشبهوا بالمسلمين وتظاهروا بالاسـلام فرارا من قسـوة القيود المفروضة عليهم ٠ ثم كان قرار الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م بالتصريح لهم المضى الى بلاد الروم أو الحبشة والنوبة دون التعرض لهم (١٠٨) ، وبهذا القرار وضع أهل الذمة موضع الخيار : أما الالتزام بمـا فرض عليهم من قيـود ٠ أو الاسـلام ٠ أو الهجرة (١٠٩) ٠ ثم كانت مجموعة السجلات التى أصدرها الحاكم بأمر الله لأهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠ م ، وحملت فى مضمونها التخفيف من غلواء سياسته التى اتبعها ازاءهم (١١٠)٠

---

(١٠٦) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٣٦ ، ورقة ٥٦ ٠

– المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ، ٩٤ ٠

(١٠٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٥٥ ٠

(١٠٨) ——— : نفس المصدر ، جـ ٣ ، ورقة ٥٧ ٠

– الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ٠

(١٠٩) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠١ ٠

(١١٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ – ٢٣٣ ٠

وفى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله نعم أهل الذمة بقدر كبير من التسامح فخففوا من الغيار الذى عليهم ، واقتصر الأكثرون منهم على لباس الزنار وعمامة سوداء (١١١) · كما أن كبار أهل الذمة لم يلتزموا بتلك القيود فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ، اذ يذكر أبو صالح الأرمنى أن المعلم سرور الجلال كان يخرج للقاء الخليفة المستنصر للسلام عليه ، وعليه الثياب الفخمة « وعمامة صقلى مشدود الوسط بشملة دبيقى مذهبة » (١١٢) ·

وكيفما كان الأمر فلم يكن يطلب من أهل الذمة الالتزام بهذه الشروط حرفيا حسبما ورد فى عهد عمر المشهور ، فكان موظفو الدولة من أهل الذمة يلبسون الثياب الفخمة ، كأثواب كبار رجال الدولة من المسلمين ، وفى الوقت نفسه يجعلون لأنفسهم مقاما عاليا أمام الرعية ، غير أن مغالاتهم واستعلاءهم على هذه الصورة كانت تسبب من وقت لآخر ارتفاع أصوات المسلمين بالاستنكار ، وبالتالى العودة الى الزامهم بهذه الشروط (١١٣) ·

---

(١١١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ·

(١١٢) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ٣٢ ·

(١١٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٥ ·

ـ المقريزى : الخطط ، ج ١، ص ٣٦٦ ·

ـ بارتولد : المرجع السابق ، ص ٢٤ ·

(ب) أعيـــاد أهل الذمة

أخذت معظم الأعيـــاد الدينية لأهل الذمة فى مصر فى عصر الفاطميين طابعـــا فريدا ، ذلك أن الخلفـــاء الفاطميين شاركوا فى الاحتفال بأهم هذه الأعياد بنصيب وافر ، وصبغوا تلك الاحتفالات بالصبغة الرسمية الاجتماعية ، كما اشترك المسلمون فى مصر فى الجانب الاجتماعى المسلى من تلك الأعياد (١١٤) ·

لكن أهل الذمة انتهزوا حسن معاملة الفاطميين لهم والحرية التى منحوها اياهم ، فأظهروا شعائرهم الدينية وخاصة فى الأعياد الدينية فى جلبة وضـــوضاء وبطريقة صارخة (١١٥) واذا كانت هذه الأعياد قد حفلت بمظاهر الفرح والابتهاج · الا أنه فى بعضها قد شابها الكثير من مظاهر الفساد والانحلال والمجون ، مما دعا الخلفاء الفاطميين الى فرض القيود على بعض هذه الأعياد الدينية ··

---

(١١٤) متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ ·

ـ جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ ·

(١١٥) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم فى مصر ، ص ٣٥٤ ·

أعياد النصـــاري :

وكان لقبط مصر الذين ينتحلون مذهب اليعقوبية أربعة عشر عيدا شرعيا سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا ، وسبعة يسمونها أعيادا صغارا (١١٦) ، وهناك أعياد أخرى ليست عندهم من الأعياد الشرعية لكنها من المواسم العادية ، هذا بجانب اقامتهم الاحتفالات بذكرى الآباء والقديسين (١١٧) ، وفيما يلى عرض لهذه الأعيـاد الكبـار ٠

١ ـ عيد البشـــارة :

هذا العيد يحتفل به قبط مصر فى اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهات ، ويعتقد النصارى أنه فى هذا اليوم نزل جبريل عليه السلام على السيدة مريم يبشرها بميلاد السيد المسيح (١١٨) ٠

٢ ـ عيد الزيتونة :

ويعرف « بعيد الشعانين » ومعناه التسبيح ، وهو ذكرى اليوم الذى دخل فيه السيد المسيح مدينة القدس راكبا أتانا ، فاستقبله أهلها بالترحاب وبأيديهم أغصان الزيتون ، وهم يسبحون بين يديه الى أن دخل الهيكل ٠ وكان قبط مصر يحتفلون به فى اليوم الثانى والأربعين من الصوم (سابع أحد من الصوم) (١١٩) ٠

---

(١١٦) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ٠

(١١٧) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٥ ٠

(١١٨) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ٠

ـ القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٥ ٠

(١١٩) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ١ ، ص ٩٤ ٠

ـ القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٥ ٠

وفى هـذا العيد تزين الكنائس بأغصـــان الزيتون وقلوب النخيل ، ويفرق منها على الناس على سبيل التبريك (١٢٠) ٠

وكان نصارى الاسكندرية يشقون شوارع المدينة فى الليل يوم الزيتونة حاملين أغصان الزيتون وسعف النخيل ، ويبتهلون بالدعاء والقراءة والتمجيد والصلبان فى أيديهم (١٢١) ٠ كما كان من عادة نصارى مدينة أخميم فى يوم الزيتونة أن يخرج القسس والشمامسة بالمجامر والمباخر والصلبـــان والأناجيل والشـــموع ، ويقفون على باب القاضى ، فيبخروا ويقرءوا فصـــلا من الانجيل ، ويمدحونه ، ثم يكرروا ذلك المشهد على أبواب أعيان المسلمين (١٢٢) ٠

على أن الحاكم بأمر الله فى العاشر من رجب سنة ٣٧٨ هـ منع النصارى فى عيد الشعانين من تزيين الكنائس وحمل الخوص وأغصان الزيتون كما جرت به العادة ، وأنذر كل من يحمل شيئا منهـا فى هـذا العيد ، ثم أمر بالقبض على جماعة ممن لم يمتثلوا لأمره (١٢٣) ٠ وفى سنة ٣٩٨ هـ/١٠٠٧ م منع نصـــارى بيت المقدس من الاحتفال بالشعانين ، وكذلك سائر نصارى مصر ، وأمر بالا تحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخيل ، والا تزين كنيسة من الكنائس بهـــا ، والا يلحظ شىء منهـا فى يد مسلم ولا نصرانى ، والا تعرض لأشد العقوبات (١٢٤) ٠

---

(١٢٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ٠

(١٢١) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٧٧ ٠

(١٢٢) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ٠

(١٢٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ٠

(١٢٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ٠

على أن نصارى مصر عادوا الى الاحتفال بهذا العيد فى خلافة الظاهر وكذلك فى خلافة المستنصر ، ويروى الأنبا مخائيل أن نصارى مدينة الاسكندرية فى خلافة المستنصر كانوا يقيمون شعائر هذا العيد كما جرت به العادة فى أمن وسلام ، واذا اعترضهم المسلمون بها ، ساروا فى حماية والى المدينة (١٢٥) ٠

٣ ـ عيد الفصح :

وهو ما يسمى « بعيد القيامة » ، وهو العيد الكبير عند النصارى ، وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر ، ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه ، ودخل على تلاميذه ، وسلم عليهم ، وأكل معهم ، وأوصاهم وأمرهم بأمور قد تضمنها انجيلهم (١٢٦) ٠

وكان نصارى مصر يحتفلون بالفصح احتفالا عظيما ، وقد شاركهم المسلمون وكذلك الخلفاء الفاطميون مظاهر الاحتفال بهذا العيد ٠ ويلقى المقريزى بعض الضوء على احتفالات النصارى بالفصح فى حوادث سنة ٤١٥ هـ /١٠٢٤ م ، فيذكر أنه لخمس بقين من المحرم فى هذا العام كان الاحتفال بفصح النصارى فاجتمع بقنطرة المقس جماهير غفيرة من النصارى والمسلمين فى الخيام المنصوبة وغيرها ، وقضوا طول نهارهم فى لهو ومجون وتهتك قبيح ، واختلط الرجال بالنساء وهم يعاقرون الخمر ، واستشرى الفساد فى هذا اليوم بالدرجة التى حملت النساء فى قفاف الحمالين من شدة السكر ٠ كما يذكر المقريزى ـ أيضا ـ أن الخليفة الظاهر

---

(١٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٧٧

(١٢٦) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، جـ ١ ، ص ٨٠ ٠
ـ القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ .

لاعزاز دين الله شاهد الاحتفال بهذا العيد اذ ركب فى هذا اليوم في موكب رائع الى المقس وعليه أفخر الثياب وأجملها ، فتفقد مكان الاحتفال ودار هناك طويلا ثم عاد (١٢٧) ٠

٤ ـ خميس الأربعين :

ويعرف أيضا « بعيد الصعود » ويعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام بعد أربعين يوما من القيام ، خرج مع تلاميذه حيث باركهم ثم صعد الى السماء ، وقد أكمل ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، فرجع التلاميذ الى أورشليم « بيت المقدس » ، وقد وعدهم باشتهار أمرهم (١٢٨) ٠

٥ ـ عيد الخميس :

ويسمى أيضا « عيد العنصرة » ، وكان المسيحيون يحتفلون به فى السادس والعشرين من شهر بشنس بعد خمسين يوما من قيامة المسيح كما يقولون ٠ ويعتقدون أنه فى هذا اليوم اجتمع الحواريون فى علية صهيون فتجلى لهم روح القدس ، وتكلمت ألسنتهم بجميع اللغات ثم تفرقوا فى البلاد يدعون الناس الى دين المسيح (١٢٩) ٠

٦ ـ عيد الميلاد :

ويعتقد المسيحيون أنه اليوم الذى ولد فيه المسيح ببيت لحم ،

---

(١٢٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ٠

(١٢٨) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ ٠
ـ المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ٢٦٤ ٠

(١٢٩) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ ٠
ـ المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ٠

ويحتفل به قبط مصر فى التاسع والعشرين من كهيك ، وتزين الكنائس فى هذا العيد ، فيوقد النصارى المصابيح فى الكنائس عشية ليلة الميلاد (١٣٠) ٠

وكان هذا العيد من الأعياد المشهورة فى مصر الفاطمية ، فكان يفرق فيه على كبار رجال الدولة والأمراء وسائر الكتاب وغيرهم سائر أنواع الحلوى ، والسمك المعروف بالبورى ، وكان من عادة النصارى فى عيد الميلاد اللعب بالنار ، ومن أحسن ما قيل :

ما اللعب بالنار فى الميلاد من سفه

وانما فيه للاسلام مقصود

ففيه بهت النصارى أن ربهم

عيسى بن مريم مخلوق ومولود

وفى هذا العيد تباع الشموع المزهرة بالأصباغ والألوان الزاهية ، والتماثيل البديعة ، ولا يبقى أحد من الناس على كافة مستوياتهم الا ويشترى منها لأولاده وأهله ، وكان الناس يسمونها الفوانيس ، ويعلقون منها الكثير فى الأسواق والحوانيت ، ويتنافسون فى المغالاة فى الانفاق على تزيينها ، وكان ذلك يعد نوعا من البذخ والترف فى هذا العصر ، وكان علية القوم من الأغنياء يتصدقون على الفقراء فى هذا العيد بصغار الفوانيس (١٣١) ٠

---

(١٣٠) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ ٠

(١٣١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ ٠

ـ متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص

٧ ـ عيد الغطاس :

ويحتفل به في اليوم الحادى عشر من شـهر طوبة ، وفيه يغطس قبط مصر في النيل ، وأصـله عند النصـارى أن يحيى ابن زكريا ـ عليهما السلام ـ والمعروف عندهم بيوحنا المعمدانى عمد المسيح ـ أى غسله ـ في مياه الأردن ٠ وعندما خرج من الماء اتصل به روح القدس ، ورغم شدة البرد فان النصارى في هذا اليوم يغمسون أولادهم في الماء (١٣٢) ٠

وكان لليلة الغطاس في مصر شأن عظيم ، اذ لا ينام الناس فيها فهى أحسن الليالى سرورا وبهجة ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثر أهل مصر في النيل ، ويزعمون أن في ذلك وقاية من الأمراض (١٣٣) ٠

وفى ليلة الغطاس يركب متولى الشرطة بالفسطاط في أول الليـل في موكب كبير وهو يرتـدى الملابس الفخمة ، وبين يديه الشموع والمشاعل ، ويطوف شوارع الفسطاط والقاهرة ، وينادى في الناس بألا يختلط المسلمون مع النصـارى في تلك الليلة ، وألا يأتوا بما يعكر صفو الاحتفال ، حيث يخرج النصارى في سحر تلك الليلة الى شاطىء النيل ، ويغطس الكثيرون منهم في مياهه ، وكان من عادة النصارى الملكيين أن يخرجوا من كنيسة القديس مكائيـل بقصر الشـمع في جموع غفيرة بالقراءة الملحنة والنغمات المعلنة ، حاملين الصلبان والشموع المضيئة ، حتى اذا وصلوا الى

---

(١٣٢) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٦ ٠

(١٣٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٤ ٠

شاطىء النيل وقف الأسقف يخطبهم باللغة العربية ويدعو للخليفة ولمن شاء من خواصه ، ثم تعود الجموع الى كنيستهم على الطريقة التى خرجوا بها ، ليتمموا الصلاة (١٣٤) ٠

وكان الناس فى هذا العيد يتجاهرون بشرب الخمر ، ويجتمع أرباب الملاهى والملاعب من كل فن ، ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والخلاعة والفجور مما أدى الى أن فرض بعض الخلفاء الفاطميين قيودا على هذا العيد (١٣٥) ٠

ومن ذلك أن الخليفة المعز عندما شاهد الاحتفال بليلة الغطاس بعد مدة قصيرة من اقامته فى مصر ، ووقف على ما يحدث فى تلك الليلة من مظاهر البغى والفساد ، أمر بالغاء الاحتفال بليلة الغطاس فى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ومنع النصارى من النزول فى المراكب وضرب الخيام على شاطىء النيل ، وهدد المخالفين لأمره بالاعدام (١٣٦) ٠

وأغلب الظن أن نصارى مصر لم يلتزموا بالقيود التى فرضها الخليفة المعز على بعض أعيادهم ، واستغلوا سياسة العزيز بالله المتسامحة ، وعادوا الى الاحتفال بليلة الغطاس ، مما أدى الى أن يصدر أمره فى سنة ٣٦٧ هـ /٩٧٧ م بمنع الاحتفال بهذا العيد ، وهدد المخالفين بابعادهم عن القاهرة (١٣٧) ٠

---

(١٣٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ ٠

(١٣٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ٠

(١٣٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ٥٨

(١٣٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ٠

وفى خلافة الحاكم بأمر الله ، لم يمنع أهل الذمة من الاحتفال بأعيادهم فى أول الأمر . فعاد النصارى الى الاحتفال بليلة الغطاس ، ويذكر المقريزى أنه فى شهر المحرم سنة ٣٨٨ هـ كان الاحتفال بتلك الليلة ، فضربت الخيام والأسرة فى عدة مواضع على شاطئ النيل . ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرانى ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وبين يديه أهل الغناء والملاهى والطرب فجلس الرئيس فهد مع أهله يشرب الى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف (١٣٨) .

وكان اشتراك فهد فى هذا العيد الذى حفل بمظاهر الأبهة والعظمة دليلا على اشتراك الدولة بصورة رسمية فى الاحتفال به . هذا ويذكر الأنطاكى أن الحاكم بأمر الله كان يحضر احتفالات النصارى بليلة الغطاس فى كثير من الأعوام فى صورة متنكرة يشاهد ما يقوم به النصارى من شعائر دينية ، وما يحدث فيها من مظاهر اللهو والطرب ، وما يشوبها من مظاهر الانحلال والفساد . ولذلك أمر الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م بمنع جميع الطوائف النصرانية فى سائر أنحاء الدولة من الاحتفال بليلة الغطاس . وعدم الاستعداد له فى السنوات القادمة ، وصرف النظر عن الاحتفال بهذا العيد كلية (١٣٩) ، كما جدد الحاكم الأمر بمنع الاحتفال بالغطاس فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٤١١ هـ ، فلم يغطس أحد من نصارى مصر فى النيل (١٤٠) .

واذا كان الحاكم بأمر الله قد أصدر مرسوما فى شعبان سنة ٤١١ هـ بالعفو الشامل والتسامح المطلق فى سياسته ازاء أهل الذمة (١٤١) ، فان الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله صرح للنصارى

---

(١٣٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(١٣٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(١٤٠) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٤١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

فى سنة ٤١٥ هـ/١٠٢٤ م باقامة عيد الغطاس ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل شارك فيه بنفسه مع أهله وحرمه وكبار رجال دولته . ويذكر المقريزى أنه فى ليلة الأربعاء رابع ذى القعدة من تلك السنة ، كان غطاس النصارى فأمر الخليفة الظاهر بأن تجرى مظاهر الاحتفال كما كان يحتفل به ، على ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند غطاسهم فى النيل ، وركب الخليفة لنظر الغطاس ومعه الحرم والحاشية ، وأمر بأن توقد النار والمشاعل فى الليل ، وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فأدوا مراسم الاحتفال ثم غطسوا وانصرفوا (١٤٢) .

وفى هذه الليلة كانت المراكب النيلية والزوارق تمتلىء بالسواد الأعظم من المسلمين والنصارى على اختلاف طبقاتهم ، وتزين المراكب بالقناديل والشموع المضيئة ، كما تكثر المشاعل على ضفاف النيل ، وكان يشعل على جانبيه ما يزيد على ألف مشعل وألف فانوس ، كما كان ينزل رؤساء القبط فى المراكب النيلية ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة والمجون ، ولا يغلق فى تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وتتجاهر الناس بشرب المسكرات (١٤٣) ، وكان اقبال الناس على عادة شراء أصناف الفاكهة والضأن وغيره من أصناف الطعام والشراب (١٤٤) ، حيث تصرف الأموال الطائلة فى المآكل والمشارب ، وترسل الهدايا الى رؤساء الأقباط فى تلك الليلة بأطنان القصب والسمك البورى والحلوى والكمثرى والتفاح والسفرجل والأترج والنارنج والليمون المراكبى وباقات النرجس وغير ذلك من الهدايا القيمة (١٤٥) ، كما

---

(١٤٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٤ .
ـــــــ : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
(١٤٣) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٨ .
(١٤٤) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ .
(١٤٥) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٩ .

جرت العادة أيضا فى ليلة الغطاس أن يضاء سوق الشماعيين كأعظم ما تكون الاضاءة ، وتظل الحوانيت تعمل الى منتصف الليل (١٤٦) .

وأما الأعياد الشرعية الصغار فعددها سبعة أيضا وهى : ـ

١ ـ الختــــان :

وهو السادس من شهر بؤنة ، ويعتقدون أن المسيح ختن فى هــذا اليوم وهو الثامن من الميلاد (١٤٧) ، وكان من أهم الأعياد العائلية عند قبط مصر ، حيث أنهم يختنون أولادهم بخلاف غيرهم من النصارى (١٤٨) .

٢ ـ الأربعــــون :

وهو عند النصــــارى فى الثامن من شهر أمشــير ، ويعتقد النصــارى أنه فى هذا اليوم دخل الكاهن سمعان الهيكل وبارك السيد المسيح بعد أربعين يوما من ولادته (١٤٩) .

٣ ـ خميس العهد :

وهو الخميس الذى يحتفل فيه النصارى بانجيلهم وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام ، وسنتهم فيه أن يقوم البطريرك بغسل أرجل النصارى اعتقادا منهم أن السيد المسيح فعل هذا مع تلاميذه ليعلمهم التواضع وكان عامة أهل مصر يسمونه « خميس العدس » حيث يطبخ فيه النصارى العدس على ألوان شتى (١٥٠) ، كما كان يباع

(١٤٦) متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

(١٤٧) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٤٨) متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ـ٢٥١ .

(١٤٩) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

ـ المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

(١٥٠) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

فى أسواق القاهرة من البيض المصبوغ ما يتجاوز حد الكثرة . ويهادى النصارى بعضهم بعضا ، ويهدون الى المسلمين أنواع السمك مع العدس المصفى والبيض (١٥١) . وكان أهل الاسكندرية يخرجون فى هذا اليوم الى المنارة ، ومعهم مآكلهم - ولابد أن يكون العدس من بينها - فيفتح باب المنار ويدخله الناس ، فمنهم من يذكر الله ، ومنهم من يصلى ، ومنهم من يلهو ويلعب ، وكانوا يستمرون على هذه الحال حتى منتصف النهار ثم ينصرفون (١٥٢) .

وجرت العـــادة فى خلافة الفاطميين أن رؤساء القبط كانوا يضربون فى يوم خميس العدس خمسمائة دينار ذهبا عشرة آلاف خروبة ، تفرق على أرباب الدولة على سبيل التبرك (١٥٣) .

٤ - سبت النـور :

ويحتفل به قبل الفصح بيوم واحد ، ويعتقد النصارى أن النور فى هذا اليوم يظهر على قبر المسيح ، ومنه تستمد مصابيح كنيسة القيامة كلها نورها (١٥٤) .

٥ - حد الحدود أو « الأحد الجديد » :

وهو بعد الفصح بثمانية أيام ، وهو مناسبة عند المسيحيين لتجديد الآلات والأثاث والملابس ، وفيه تنشط المعاملات التجارية ، ويجعلونه بدءا للأعمال ، وتاريخا للشروط والقبالات (١٥٥) .

---

(١٥١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

(١٥٢) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ١٥٦ .

(١٥٣) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٥٩٤ .

(١٥٤) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٥٥) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٩٦ .
- القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ .

٦ ـ عيـد التجلى :

ويحتفل به فى ثالث عشر شهر مسرى ، ويعتقد النصـارى أن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد ما رفع ، فتمنوا عليه أن يحضر لهم « ايلياء وموسى » عليهما السلام ، فأحضرهما اليهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد الى السماء وهما معه (١٥٦) .

٧ ـ عيـد الصليب :

وهو فى اليوم السابع عشر من شهر توت ، ففى هذا اليوم من عام ٣٢٨ م وجدت الملكة هيلانة ـ أم الامبراطور قسطنطين ـ الصليب الذى صلب عليه السيد المسيح ، فأمرت بأن يكون على خشبات الصليب غلاف من ذهب وأن تبنى الكنيسة المعروفة بكنيسة القيامة ببيت المقدس على قبر المسيح (١٥٧) ..

وكان هذا العيد من أجل أعياد مصر ، وكان فيه النصارى يلبسون الملابس الفخمة ، ويظهرون زينتهم ، كمـا كانوا يقيمون الشعائر بالكنائس (١٥٨) .

ولما كان المحتفلون بعيد الصـليب يتظاهرون بالمنكرات من جميع أنواع المحرمات ، ويفعلون ما يتجاوز الحد فى الطرقات عند خروجهم الى بنى وائل بظاهر الفسطاط فان العزيز بالله الفاطمى أصدر أمره فى رابع شهر رجب سـنة ٣٨١ هـ يمنع الناس من الخروج الى بنى وائل ، وضبط الطرقات والدروب وتشديد الرقابة عليها خوفا من تفشى المنكرات والفسوق (١٥٩) ، على أن العزيز

(١٥٦) ـــــــ نفس المصدر ، ونفس الصفحة .
(١٥٧) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
ـ المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .
(١٥٨) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة .
(١٥٩) ـــــــ : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

بالله الذى عرف بعطفه على النصارى بوجه خاص أعاد الاحتفال بهذا العيد فى سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م ، واحتفل به فى الرابع عشر من شهر رجب من تلك السنة جريا على سياسته المتسامحة ازاء أهل الذمة (١٦٠) .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله كان سجله الصادر فى شهر صفر سنة ٤٠٢ هـ والذى قرىء بجامع عمرو بالفسطاط وفى الطرقات يتضمن أمر الخليفة بمنع النصارى من الاحتفال بعيد الصليب ، مع عدم الخروج الى بنى وائل ، وألا يقيموا مظاهر الزينة والملاهى فى هذا العيد ، وألا يقربوا كنائسهم لاقامة الشعائر (١٦١) ، نظرا لما كان يشوب مظاهر الاحتفال بهذا العيد من فسق ومجون .

كما كان هذا العام (٤٠٢ هـ/١٠١١ م) والعام الذى يليه من أكثر الأيام قسوة وصرامة بالنسبة للقيود التى فرضها الحاكم بأمر الله على أهل الذمة (١٦٢) ، واستمر الأمر كذلك الى أن كان مرسومه الصادر فى شعبان سنة ٤١١ هـ بالعفو الشامل والتسامح المطلق فى سياسته ازاء أهل الذمة (١٦٣) .

وكان لنصارى مصر بعض الأعياد والمواسم الخاصة بهم التى اتخذت طابعا شبه قومى ، اذ شاركهم المسلمون فى الاحتفال بتلك الأعياد . وقد ارتبطت بعض هذه الأعياد بنهر النيل ، وفى ذلك

---

(١٦٠) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الجزء ، ص ٢٧٦ .

ـــــــ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

(١٦١) ـــــــ : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

ـــــــ الخطط ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

(١٦٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

(١٦٣) ـــــــ : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

دلالة على امتداد جذورها الى أيام قدماء المصريين (١٦٤) ، ومن هذه المواسم والأعياد :

عيد الشهيد :

وكان عيد الشهيد فى الثامن من شهر بشنس ، وكان واحدا من أعظم الأعياد النصرانية ، ويعتقد قبط مصر أن النيل لا يزيد فى موسم الفيضان فى كل سنة حتى يلقوا فيه فى عيد الشهيد تابوتا من خشب ، فيه أصبع من أصابع أحد أسلافهم الموتى (القديسين والشهداء) ، ويخرج النصارى من جميع القرى والمدن للاحتفال بهذا العيد ، كما كان يخرج عامة أهل القاهرة والفسطاط على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم ، وينصبون الخيام على شاطىء النيل وفى الجزر المقابلة للشاطىء ، حيث يحتفلون بعيد الشهيد ، وفى هذا اليوم « لا يبق مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغى ، ولا مخنث ، ولا ماجن ، ولا خليع ، ولا فاتك ، ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد (١٦٥) ٠

ففى هذا العيد تصرف الأموال الكثيرة ، ويتجاهر الناس بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق ، وتثور الفتن ، ويقتل أناس ، ويقبل الكثير على شرب الخمر التى يباع منها فى ذلك اليوم ما يزيد على مائة ألف درهم فضة وخمسة آلاف دينار ذهبا فى جهة شبرا وحدها ٠ ذلك أن اجتماع الناس لعيد الشهيد كان دائما بناحية شبرا من ضواحى القاهرة ، وكان اعتماد فلاحى شبرا دائما فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى هذا العيد ٠ ففى يوم

(١٦٤) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٩٦ ٠

(١٦٥) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٦٨ ـ ٧٠

واحد باع نصرانى ـ حسبما يذكر المقريزى ـ باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر (١٦٦) ٠

عيد الخروج :

وكان من الأعياد الكبرى عند نصارى مصر ، والتى كان يشارك المسلمون فى الاحتفال به ٠ وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا فى هذا العيد ـ قبل الخروج للسجن ـ أسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم وحدث فى عام ٤١٥ هـ/١٠٢٥ م أن اشتد الغلاء ، فامتنع التجار عن الدفع ، ولما علم بذلك الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أمرهم بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وبأن يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية . فخرجوا الى سجن يوسف بالجيزة ، ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والسماجات ٠ وخرج الخليفة الى الجيزة ، وأقام يومين لمشاهدة جماعة المحتفلين ، فضحك منهم وأعجب بهم واستظرفهم (١٦٧) ٠

عيد النيروز :

وهو أول السنة القبطية فى مصر ، وموعده اليوم الأول من شهر توت ، ومعنى النيروز أو « النوروز » : اليوم الجديد (١٦٨) ،

---

(١٦٦) ــــــــ : نفس المرجع ، ص ٦٧ ، ٦٨ ٠
ـ متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٥ ٠

(١٦٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ ٠
ـ متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ٠
ـ سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢١٦ ٠

(١٦٨) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩

وكان الاحتفال بهذا العيد يأخذ طابع الاحتفالات القومية بمصر ، لأنه فى أغلب الظن من الأعياد والمواسم التى أخذت عن قدماء المصريين (١٦٩) ، وفى هذا اليوم تعطل الأسواق وتقل الحركة التجارية ، ويستعد الناس للاحتفال بالنيروز (١٧٠) ·

ومن مظاهر احتفال العامة بمصر بيوم النيروز ، أنهم كانوا ينتخبون رجلا يسمونه « أمير النيروز » يطلى وجهه بالدقيق أو الجير ، ويضع لحية مستعارة ، ويرتدى ثوبا أحمر أو أصفر ، ومعه جمع غفير من العامة ، فيتسلط على الناس فى طلب رتبة وفى يده دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يرش بالماء ممزوجا بالأقذار · وفى هذا اليوم يجتمع المغنون وأصحاب الملاهى تحت قصر الخلافة وبأيديهم الملاهى ، وترتفع الأصوات ، ويشرب الناس الخمر والمزر فى الشوارع والطرقات شربا ظاهرا دون حياء ، والعامة يتراشون بالماء ، وبالماء ممزوجا بالأقذار ، وان أخطأ مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه بالماء ، ويفسد ثيابه ، ويستخف بحرمته ، فاما أن يفدى نفسه واما أن يلقى ما لا يرضيه ، كما يرتكب أهل المنكر فى هذا اليوم كثيرا من المعاصى ، ويخرجون عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور ، وقلما كان ينقضى يوم نيروز الا وقتل فيه قتيل أو أكثر لخروج الناس عما هو مألوف ، كما أن رجال الشرطة كانوا لا يعترضون عما يحدث فى هذا اليوم (١٧١) ·

---

(١٦٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٦ ·

(١٧٠) ـــــــ : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ ·

(١٧١) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٧ــ٢٦٨ ·

ـ متز : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦ ·

ولما كان الاحتفال بيوم النيروز يشوبه من المنكرات والفسوق ما يخرج عن الحد ، ويفوق ما يحدث ليلة الغطاس من مجون وخلاعة ، فان الخليفة المعز لدين الله أصدر أمره سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٢ م بالمنع من وقود النيران ليلة النيروز في الطرقات ، ومن صب الماء يوم النيروز (١٧٢) . الا أنه في سنة ٣٦٤ هـ /٩٧٤ م ، خرج الناس في الاحتفال بعيد النيروز عن كل ما هو مألوف اذ زاد اللعب بالماء ، وكثر وقود النيران وطاف أهل الأسواق ومعهم الملاهي وخرجوا الى القاهرة بلعبهم وأظهروا السماجات في اللعب بالأسواق ، مما جعل الخليفة المعز ــ بعد ثلاثة أيام من استمرار الاحتفال بهذا العيد ــ ان يأمر بالنداء بالكف عن كل ما يحدث ، وأنزل العقاب بمن لم يمتثل لندائه ، فحبس قوم خالفوا أمره ، وأخذ آخرون فطيف بهم كعقاب لهم لخروجهم عما أمر به (١٧٣) .

الا أنه في خلافة العزيز بالله عاد النصارى للاحتفال بيوم النيروز ويذكر النويرى أنه لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٢ هـ ، كان الاحتفال بهذا العيد ، فأكل الناس الرطب قبل النيروز على عادتهم (١٧٤) .

وفى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، وفى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٨٨ هـ كان نوروز الفرس فأهدى الأتراك وقوادهم وكبار رجال الدولة منهم الى الحاكم بأمر الله كثيرا من الخيل

---

(١٧٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

(١٧٣) المقريزى : الخطط ،جـ ١ ، ص ٢٦٧ .

ـــــــ : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ . .

(١٧٤) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ .

والسـلاح ، فقبل بعضـا من هديتهم ورد الباقى اليهم شاكرا لهم (١٧٥) ٠

كما يذكر المقريزى أن الحاكم بأمر الله صرح بالاحتفال بيوم النيروز فى ذى القعدة من عام ٣٩٥ هـ ، فاحتفل به الناس حسبما جرت به العادة (١٧٦) ٠

واذا كان الظاهر لاعزاز دين الله قد صرح باقامة الكثير من الأعياد الدينية لأهل الذمة ، وكذلك المواسم والأعياد القومية ، الا أنه فى تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ٤١٥ هـ فرض قيودا على الاحتفال بهذا العيد ، فأمر بأن يضرب فى هذا اليوم بالأجراس فى آخر النهار بألا يلعب أحـد بالماء فى يوم النيروز فى مدينتى الفسطاط والقاهرة (١٧٧) ، وربما كان دافعه الى اتخاذ مثل هذا القرار كثرة ما يحدث فى هذا اليوم من فسق ومجون ٠

على أن النصارى احتفلوا كذلك بالعديد من المواسم والأعياد سوى ما تقدم ، لكنها كانت عندهم من المواسم العادية ، وقد أحصى القلقشندى منها مائة وثمانية وسبعين عيدا وموسما موزعة حسب ترتيب الشهور القبطية ٠ كما انفرد أقباط مصر بالاحتفال ببعض هذه الأعياد والمواسم حسبما جرت به العادة (١٧٨) ٠

(١٧٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٨ ٠

النوروز أول سنة الفرس ، وهو الرابع من شهر آذار وجرت فيه العادة أن يهدى العبيد السادة ٠ (المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٧ ، القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ٠

(١٧٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ٠

(١٧٧) ــــــــ : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٩

(١٧٨) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣٥ ٠

ـ أعيــاد اليهــود :

واذا كان نصارى مصر يحتفلون بالعديد من أعيادهم الدينية ، فان يهود مصر قد احتفلوا أيضا بالعديد من أعيادهم الدينية ومنها :

١ ـ عيد رأس السنة اليهودية :

ويسمونه بالعبرية عيد « رأس هيشا » أى عيد رأس الشهر ، وهو فى اليوم الأول من شهر تشرى أحد الشهور اليهودية وهو عندهم بمنزلة عيد الأضحى عند المسلمين ، ويقولون فى ذكراه أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيــه ابراهيم عليه الســلام بذبــح ولده اسماعيل ، فلما امتثل الاثنان لأمر الله ، فدا الله اسماعيل بذبح عظيم (١٧٩) . ويعتبر هذا العيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود لخلاصهم من فرعون ، ويذكر المقريزى أنه عيد البشــــارة بعتق الأرقاء (١٨٠) ، ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد عند الربانيين أنهم ينفخون فى الأبواق أثناء اقامتهم للصــلاة فى المعــابد ، بناء على تفسيرهم لبعض النصوص الواردة فى التوراة بشأن هذا العيد . أما القراءون فيقومون بالصلاة والتهليل حمدا وشكرا لله لأنه يوم عتق الأرقاء (١٨١) .

٢ ـ عيــد صومـاريــا :

ويســـمونه (الكبــور) ، ومعنـــاه عيــد الغفـــران أو الاستغفار (١٨٢) . وربما سموه العاشور ، وهو فى اليوم العاشر من شهر تشرين اليهودى ، ويقولون أنه فى هذا اليوم فرض الله الصوم الكبير على اليهود (١٨٣) ، ومدته عند القرائين أربعة وعشرون

(١٧٩) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ .
(١٨٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ .
(١٨١ قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .
(١٨٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ .
(١٨٣) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٤٣٦ .

ساعة ، ويبدأ الصوم من اليوم التاسع من شهر تشرين قبل غروب الشمس الى ما بعد غروبها فى اليوم العاشر ، أما الربانيون فيجعلون مدة هذا الصوم خمسة وعشرين ساعة (١٨٤) ، ويشترط لجواز الافطار رؤية ثلاثة كواكب عند الافطار (١٨٥) ، وتشدد السامرة فى صيام ذلك اليوم ، فلم يستثنوا منه الأطفال الرضع ، ويعتقد اليهود أن هذا الصوم هو تمام الأربعة الثالثة التى صامها موسى عليه السلام (١٨٦) ، ومن لم يصم منهم هذا اليوم يقتل شرعا طبقا للشريعة اليهودية ، وعند الربانيين لا يجوز أن يقع هذا الصوم فى يوم الأحد ، وفى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة • ويعتقد اليهود أن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم فى هذا اليوم جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، وجحده ربوبية الله عز وجل (١٨٧) •

وفى هذا اليوم ينقض اليهود عهودهم ومواثيقهم التى قطعوها على أنفسهم لغير اليهود ، كما يأكلون الديون التى عليهم لغير اليهود ، مما أدى الى معارضة بعض فقهاء اليهود فى العصر الحديث لتلك المزاعم (١٨٨) •

٣ ـ عيد المظلة :

ويكون الاحتفال به فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرى ، وهو سبعة أيام كلها أعياد عندهم ، وهو فريضة على المقيم دون

---

(١٨٤) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ •

(١٨٥) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ •

(١٨٦) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ •

(١٨٧) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٦ •
ـ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ •

(١٨٨) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ •

المسافر (١٨٩) ومن مظاهر هذا العيد أنهم لا يخرجون من بيوتهم - كما هو يوم السبت - ، وفى اليوم الثامن يحتفلون بعيد يقال له عيد الاعتكاف (١٩٠) ، وفى تلك الأيام السبعة التى أولها خامس عشر تشرى يجلسون تحت سعف النخيل الأخضر وأغصان الزيتون ، وسائر الأشجار التى لا يتناثر ورقها ، ويرون أن ذلك تذكارا منهم لاظلال الله آباءهم فى التيه بالغمام (١٩١) ، ويصوم القراءون فى اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر ، ويعرف هذا الصوم بصوم كداليا ، وعند الربانيين يكون هذا الصوم فى ثالثه (١٩٢) .

ويرى البعض أن هذا العيد يرجع الى أصول زراعية ورعوية ، استنادا الى أن أسماء هذا العيد بالعبرية « جج ها اسيف » أى « عيد التخزين » (١٩٣) .

٤ - عيـــد الفطـــير :

وهو رابع الأعيـــاد الشرعية عند اليهود ، ويسمى أيضـــا « عيد الفصح » ، ويكون فى الخامس عشر من نيسان ، وهو من أجل الأعياد عند اليهود (١٩٤) ، ومدة الاحتفال به عند القرائين سبعة أيام ، وثمانية عند الربانيين ، أما عند السامرة فمدته ستة أيام (١٩٥) ، وفى أيام هذا العيد يأكلون الفطير ، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير (١٩٥م) ، اذ يعتقدون أنه فى هذه الأيام خلص

---

(١٨٩) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(١٩٠) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ .

(١٩١) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(١٩٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٧٢

(١٩٣) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(١٩٤) القلقشندى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٩٥) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

الله فيه بنى اسرائيل من يد فرعون وأغرقه ٠ فخرجوا الى التيه (الصحراء) يأكلون اللحم والخبز والفطير ، فأمروا باتخاذ الفطير وأكله في هذه الأيام ، ويعتقدون أنه فى آخر هذه الأيام كان غرق فرعون في البحر (١٩٦) ، ويعتبر هذا العيد عند اليهود من أعياد التضحية ومواسم الحج (١٩٧) ٠

٥ ــ عيــد الأســـابيع :

وهو خامس الأعياد الشرعية عند اليهود ، ويسمى أيضـــا « عيد العنصرة » و « عيد الخطاب » ، وموعده بعد عيد الفطـــير بسبعة أسابيع ، فى اليوم السادس من شهر سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط (١٩٩) ، ولا يكون هـــذا العيد عند الربانيين أبدا يوم الثلاثاء ، ولا يوم الخميس ، ولا يوم السبت (٢٠٠) ، على أن القرائين لا يتقيدون بذلك (٢٠١) ، ويعتقد اليهود أنه فى هذا اليوم خاطب الله فيه بنى اسرائيل من طور سيناء مع موسى عليه السلام ، ونزلت على بنى اسرائيل فيه الفرائض (٢٠٢) والوصايا العشرة (٢٠٣) ، كما استمعوا فيه الى كلام الله تعالى من الوعد والوعيد (٢٠٤) ٠

---

(١٩٦) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٨ ٠
(١٩٧) ابن الوردى : تتمة المختصر فى اخبار البشر ، جـ ١ ، ص ٧٧ ٠
(١٩٨) عبده قاسم : المرجع السابق ، ص ١٤٩ ٠
(١٩٩) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٤٣٧ ٠
(٢٠٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ ٠
(٢٠١) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ٠
(٢٠٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٣ ٠
(٢٠٣) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ . ص ٤٣٧ ٠
(٢٠٤) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٨ ٠
ــ ابن الوردى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٧٧ ٠

ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد ، أنهم كانوا يأكلون فيه القطائف ، ويتفننون فى صنعها ، ويجعلونها بدلا من المن الذى أنزله الله عليهم فى هذا اليوم ، ويسمى هذا العيد بالعبرية « عشرتا » ومعناه « الاجتماع » وهو من مواسم حجهم (٢٠٥) ٠

ولليهود أعياد أخرى لكنها مستحدثة ، ويعتقدون أن التوراة نصت عليها ، وهما : عيد الفوز ، وعيد الحنكة (٢٠٦) ٠

١ ـ عيد الفوز :

وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة ، كما يتبادلون فيه الهدايا ، ويكون الاحتفال به فى اليوم الرابع عشر من شهر آذار ، ويسبقه فى الثالث عشر من هذا الشهر صوم يسمى « صوم أستير »٠

ولذلك رواية مؤداها أنه بعد تدمير بيت المقدس على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق٠م ، نقل اليهود من فلسطين الى بابل ، وأثناء اقامتهم هناك وقع كسرى الفرس « اكسركسيس » والمعروف عند المؤرخين العرب باسم « أردشير بن بابك » فى غرام فتاة يهودية ـ من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا ـ ابنة حبر يهودى يسمى مردوخاى ، ولما تزوج كسرى من الفتاة أصبح لليهود مكانة مرموقة ونفوذا كبيرا ، مما أثار حقد هامان الوزير الفارسى الذى صمم على استئصال شأفة اليهود وانهاء وجودهم فى بلاده ، فدبر مؤامرة ضدهم ، وحدد اليوم الثالث عشر من شهر آذار موعدا لتنفيذها غير أن أستير زوجة كسرى اليهودية علمت بالمؤامرة قبل وقوعها ، ونقلت تفاصيلها الى كسرى ، وأوعزت اليه بقتل وزيره هامان ، فقتله ، وأمر بملاحقة اتباع الوزير وقتلهم ، ثم كتب لليهود عهدا بالأمان والبر والاحسان فى هذا اليوم ٠ لذا اتخذ اليهود من الثالث

---

(٢٠٥) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٧ ٠

(٢٠٦) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

عشر من آذار عيدا ، ويصومون قبله ثلاثة أيام شكرا لله تعالى . وجعلوا بعده يومين اتخذوهما أيام فرح وسرور ، كما يتبادلون فيها الهدايا ، ومن مظاهر الاحتفال أيضا بهذا العيد ، انهم كانوا يعملون تماثيل من الورق رمزا للوزير هامان ، ويملأونهـا نخالة وملحا ويلعبون بها ، ثم يلقونها فى النار لحرقها (٢٠٧) .

٢ ـ عيد الحنكة :

ومعناه التنظيف ، وهو ثانى الأعياد اليهودية المستحدثة ، ويحتفل به الربانيون ثمانية أيام أولها الخامس والعشرون من شهر كسليو اليهودى ، يوقدون فى الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا ، وفى الليلة الثانية سراجين ، وهكذا الى أن يسرجوا فى الليلة الثامنة ثمانية سروج (٢٠٨) ، ومناسبة هذا العيد ترجع الى سـنة ١٦٥ ق.م عندما كانت بلاد الشام تحت حـكم البطالمة ، وحاول انتيوخوس آبيفانيس ارغام اليهود على عبـادة الأصنام ، الا أن كاهنهم الأكبر المسمى « مناتيا » قاومه مقاومـة شـديدة مع أبنائه الثمانية ، واسـتطاع ابنه الأصغر « يهوذا » استعادة الهيكل من جيوش البطالمة ، وفى الخامس والعشرين من شهر كسليو حطم « يهوذا » التماثيل الاغريقية التى كانت بالهيكل ، وزود « متانيا » وابنه « يهوذا » الهيكل بمذبح جديد ، وفتح الهيكل لممارسة الشعائر الدينية (١٠٩) ، غير أنهم لم يجدوا الزيت الكافى

---

(٢٠٧) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٣٩ .

ـ قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢٠٨) أبو الفدا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٩ .

(٢٠٩) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

لاضـــاءة الهيكل ، فوزعوا ما عندهم من الوقود اليسير على عـدد المصابيح التى يوقدونها على أبواب دورهم فى كل ليلة الى تمام ثمان ليال ، فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه « الحنكـة » وهو كلمة عبرية تعنى التنظيف ، لأنهم نظفوا فيه الهيكل من تماثيل الآلهة الوثنية (٢١٠) ٠ على أن القرائين لا يعترفون بهذا العيد (٢١١) ٠

(٢١٠) القلقشندى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ ٠

(٢١١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ ٠

ـ وتذكر بعض الروايات أن أحد الحكام اليونانيين تغلب على بيت المقدس ٠ وفتك باليهود ، وافتض أبكارهن قبل الاهداء الى أزواجهن ، وكان لرجل من اليهود ثمانية بنين وبنت واحدة ، وخاف اليهودى على ابنته التى سوف تتزوج ، وحرض بنيه على قتل ذلك الحاكم ، فاحتال أصغرهم عليه وقتله ، ففرح بنو اسرائيل بذلك ، واتخذوا من ذلك اليوم عيدا فى ثمانية أيام تذكارا للاخوة الثمانية (ابو الفدا : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٩) ٠

(ب) سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهل الذمة

ـ موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجال الكنيسة المسيحية ـ

تمتع أهل الذمه في مصر بسياسه التسامح الديني التي سار عليها الخلفاء الفاطميون في العصر الفاطمي الأول ـ باستثناء فترة من عصر الحاكم بأمر الله ـ ونعموا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة ٠

فالخليفة المعز لدين الله الفاطمي ـ باجماع المصادر النصرانية كان متسامحا في سياسته الدينية بوجه عام ازاء أهل الذمة ، ومع النصارى بوجه خاص ، اذ لم يتدخل في الشئون الداخلية الخاصة بالكنيسة ، علاوة على أنه أقام علاقات وطيدة مع رجالها ٠

فعندما توفي الأنبا مينا البطريرك الحادي والستين للكنيسة القبطية ، اجتمع أساقفة الكنيسة وأعيان القبط سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٦٨ م لانتخاب خلف له من بينهم ، ووقع اختيارهم على تاجر سوري اسمه إبراهيم بن زرعة ـ الذي اشتهر بتقواه وعلمه ـ ، ورسموه بطريركا باسم الأنبا ابراهام السبورياني ، ليكون البطريرك

الثـاني والستين للكنيســـة القبطية · ولم يعترض الخليفة المعز لدين الله على هذا الاختيار · بل نشأت بينه وبين البطريرك الجديد صداقات طيبة وكان يستدعيه الى مجلسه بقصر الخلافة ، ويستقبله باكرام واحترام بالغين ، كما كان البطريرك ابراهام محل تقدير واحترام كبار رجال الدولة الفاطمية ، مما كان له الأثر الطيب فى العلاقة بين الدولة والكنيسة ، كما أثار حقد رجال الدولة من اليهود الذين كانت لهم صلة وثيقة بقصر الخلافة (٢١٢) ·

وكان الخليفة المعز لدين الله يستدعى الى مجلسه بعض كبار الدين المســيحي واليهـودى حيث كانت تجرى بينهم وبين بقيــة الجالسين من المسلمين مناقشات دينية ، وفي هذه المجالس التى كان يعقدها فى قصره تدعمت العلاقات الطيبة بينه وبين رؤساء الطوائف الدينية من أهل الذمة ، ونشأت صداقات بينه وبينهم دعمتها روح التسامح الدينى التى تحلى بها (٢١٣) ·

أما العزيز بالله الفاطمي فقد شمل أهل الذمة جميعا برعايته وعطفه (٢١٤) فضلا عن أنه قلد المناصب العليا في الدولة لكبار رجال أهل الذمة من اليهود والنصاري دون أن يكره أو يشترط على أحد منهم اعتناق الاسلام ، كما كانت علاقته برؤساء الطوائف الدينية لأهل الذمة ، وخاصة المسيحية ، فى أحسن حالاتها ، اذ كان للعزيز بالله ـ وكما سبق أن أوضحنا ـ زوجة نصرانيــة على

---

(٢١٢) ابن الراهب : تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣ ، ص ١٣٣ ·

ـ ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، نشرة عزيز سوريال وآخرون ، المجلد الثانى ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ·

(٢١٣) الانبا ميخائيل (اسقف اتريب) : السنكسارى ، ج ١ ، ص ١٣٤ ·

(٢١٤) الخربوطلى : مصر العربية الاسلامية ، ص ١٦٠ ·

المذهب الملكانى ، أنجب منها ابنته المعروفة بست الملك ، وكان لهذه الزوجة النصرانية وابنتها نفوذ كبير فى قصر الخلافة ، فقد كان العزيز بالله يعمل بمشـورتهما ممـا أدى الى استفحال نفوذ رجال الكنيسة الملكانيـة واتباع المذهب الملكانى فى مصر • فقد تدخل العزيز بالله فى الشئون الخاصة بالكنيسة الملكانية ، وأصدر قرارا فى رمضان سنة ٣٧٥ هـ بتعيين صهره أريستيس خال ابنته ست الملك بطريركا على بيت المقدس ، كما عين صهره الثانى أرسانيوس (أرسانيبس) بطريركا للملكانية على القاهرة ومصر • وطبيعى أنه كان للرجلين نفوذهما المؤثر فى دار الخلافة وادارة الدولة ، فازدهر حال الكنيسة الملكانية فى عهده ، واستبد أهل تلك الطائفة بشئون البلاد ، كما عانى النصارى اليعاقبة والكنيسة القبطية من استفحال هـذا النفوذ فقد حاول أرسـانيوس مستغلا قرابته للعزيز بالله الاسـتيلاء على كنيستى المعلقة والسيدة العذراء بقصر الشـمع بالفسطاط ، وحـدث نزاع خطير بين رؤسـاء الكنيستين ، أنهاه الخليفة العزيز بالله لصالح الملكانيين ، بأن أخذت الملكانية كنيسة السيدة العذراء وتسلمها أرسانيوس ، بينما بقيت كنيسة المعلقة للأقباط اليعاقبة (٢١٥) ، غير أن الأقباط استطاعوا استرداد كنيسة السيدة العذراء من الملكانية بعد وفاة العزيز بالله (٢١٦) •

ولم يتدخل الخليفة الحاكم بأمر الله فى الشـئون الداخلية الخاصـة بالكنيسة القبطية ، مثال ذلك انه لم يتدخل في عـام ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م فى انتخاب بطريرك اليعاقبة (٢١٧) • الا أنه

---

(٢١٥) الانبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، جـ ٣ ، ورقة ٥١ •
ـ الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ١٦٥ •
ـ المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٤ •
(٢١٦) رؤوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية القديمة ، ص ٤٤ •
(٢١٧) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٩٥ •

اتخذ موقفا متشددا من الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين ، اذ أمر بحبسه واعتقاله لمدة ثلاثة شهور ، ثم رميه للسباع الجائعة التى لم تضره ـ طبقا لما ذكرته الرواية الكنسية ـ وكان ذلك بسبب وشاية أحد الرهبان القبط ـ ويدعى يونس الراهب ـ ، كان حاقدا على البطريرك زخاريا الذى رفض أن يرسمه أسقفا ، فقابل الراهب المذكور الخليفة الحاكم بأمر الله ، وشكى اليه سوء سياسة البطريرك فيما يتعلق بأمور الكنيسة الخاصة ، وبيعه للوظائف الدينية ، وما يتمتع به البطريرك من النفوذ والجاه والسلطان على أبناء ملته ، وما تحت يديه من الثروة والأموال الطائلة ، ثم عرض على الحاكم بأمر الله رسالة قال فيها : « أنت ملك الأرض ، ولكن للنصارى ملك لا يعبأ بك ، لكثرة ما كنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع الأسقفية بالمال (٢١٨) وعدد الراهب للحاكم مثالب البطريرك ، ومساوىء معاونية من رجال الكنيسة مما أوغر صدر الحاكم بأمر الله على البطريرك ، وأثار غضبه ، ودفعه الى اتخاذ موقف متشدد ازاء أهل الذمة الذين استفحل أمرهم فى الدولة ٠ فأصدر ضدهم العديد من القرارات والقيود التي اتسمت بالصرامة والعنف فى المدة من ٣٩٥ هـ الى ٤٠٥ هـ /١٠٠٤ ـ ١٠١٤ م ٠ وفى تلك الفترة لحق بالكثير من أهل الذمة ضرر بالغ لم يألفوه من قبل (٢١٩) ٠

أما بالنسبة لموقف الحاكم بأمر الله من رؤساء الطائفة الملكانية ، فان الانطاكى يذكر أن ارسانيوس بطريرك الملكانية قد قتل سرا فى ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، دون أن يشير الى قاتله أو الى ظروف الحادث (٢٢٠) ٠ وقد ظل منصب بطريرك الملكانية بمصر شاغرا طوال بقية خلافة الحاكم بأمر الله (٢٢١) ٠

---

(٢١٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ ٠

(٢١٩) ــــــ : نفس المصدر ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ ـ ٥٩ ٠

(٢٢٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٧ ٠

(٢٢١) ماجد : الحاكم بأمر الله ١٠٢

الا أن الحاكم بأمر الله كان له يد فى اختيار بطريرك الروم المكانية ببيت المقدس ، فبعد وفاة ثاوفيلس بطريرك الملكانية بالقدس فى رمضان سنة ٤١٠ هـ ، تقدم اليه قس من طائفة الروم المكانية اسمه نقفور ــ وكان يعمل نجارا بقصر الخلافة ــ ، والتمس منه تعيينه بطريرك على بيت المقدس ، فأجابه الى ملتمسه (٢٢٢) . كما أعطاه بعد ذلك سجلا فى جمادى الأخرى سنة ٤١١ هـ بحماية الكنائس والأديرة الباقية هناك مع اطلاق الحرية الدينية فى كافة دور العبادة فى بيت المقدس (٢٢٣) .

ولم يتعرض الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله لرجال الدين من أهل الذمة بما يسيء اليهم ، كما لم يتدخل فى الاجراءات الخاصة بانتخاب البطاركة فعند خلا كرسى بطريركية الروم الملكانية بالاسكندرية بوفاة أرسانيوس سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وظل المنصب شاغرا الى أن اجتمع قساوسة وأساقفة الكنيسة الملكانية بمصر ورسموا فى ذي الحجة سنة ٤١١ هـ الأنبا جورجيوس ــ أحد رهبان دير طور سيناء ــ بطريركا لهم ، وباركت ست الملك ــ ذات النفوذ القوى فى قصر الخلافة ــ هذا الاختيار ، وأرسلت الى البطريرك الجديد هدايا قيمة من الثياب الديباج والمصاحف والتحف الفضية الثمينة التى كانت عندها لخالها أرسانيوس البطريرك السابق (٢٢٤) .

كما أنه بعد وفاة الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين للكنيسة القبطية ، طمع بعض كبار رجال الكنيسة فى اعتلاء كرسى البطريركية ، وحاولوا أن يتولوا هذا المنصب الدينى الرفيع عن طريق تدخل الدولة ومساعدتها ، الا أن الوزير على بن أحمد

---

(٢٢٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ .
(٢٢٣) ــــــ : نفس المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٢٤) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٣٧

الجرجرائى (ت ٤٣٦ هـ/١٠٤٤ م) ، الذى كان يسيطر على أمور الدولة والذى كان يحب النصارى ويعطف عليهم ، رفض التدخل فى اختيار بطريرك اليعاقبة الجديد ــ كما قرر أن تتنازل الدولة عن مبلغ الثلاثة آلاف دينار التى كان يدفعها البطريرك الجديد رسما الى بيت المال ــ كرامة للنصارى ــ ، غير أنه اشترط على أساقفة الكنيسة القبطية وأعيان القبط أن تسير اجراءات انتخاب البطريرك الجديد فى نزاهة وحيدة تامتين وفقا لما هو متبع فى هذا الشأن . ولقد تم اختيار الأنبا سابونين البطريرك الخامس والستين للكنيسة القبطية سنة ٤٢١ هـ ، بدون أدنى تدخل من دار الخلافة (٢٢٥) .

كما كانت العلاقات الطيبة بين قصر الخلافة والكنيسة القبطية هى السمة الغالبة فى السنوات الأولى من عهد المستنصر بالله ، الى أن كانت وزارة اليازورى .

ففى أثناء وزارته ساءت العلاقات بينهما ، حينما اتهم البطريرك خريستوذولوس البطريرك السادس والستين بتحريض ملك النوبة على عدم الوفاء بالتزاماته نحو الخليفة المستنصر بالله ، فألقى القبض على البطريرك ورحل الى القاهرة مع الزامه بدفع غرامة مالية كبيرة . غير ان « عبد الدولة » متولى منطقة مصر السفلى توسط لدى اليازورى للافراج عن البطريرك ، وأخذ منه تصريحا باطلاق سراحه فى الحال (٢٢٦) .

ومرة أخرى تعكر صفو العلاقة بين الدولة والكنيسة القبطية ، عندما ترامى الى مسامع اليازورى ــ عن طريق أبى الحسين الصيرفى الذى كان قاضيا بالاسكندرية ــ أن الأنبا خريستوذولوس قد اتخذ من بلدة « دمرو » مقرا له ، وأن تلك البلدة أصبحت بمثابة

---

(٢٢٥) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٦٣ .

(٢٢٦) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

قسطنطينية ثانية ، وأن البطريرك شيد فيها قصرا رائعا لنفسه ، وأحاط نفسه بمظاهر العظمة والأبهة ، بجانب كثرة الكنائس التى استحدثها وجدد عمارتها فى القرى المحيطة بهـا ، وأنه كتب على أبواب تلك الكنائس عبارات سب للاسلام والمسلمين • فما كان من اليازورى الا أن أرسل من رجاله من يتقصى الحقيقة ، ثم فرض على البطريرك والأسـاقفة غرامات مالية فادحة ، طولبوا بسرعـة سدادها ، فاضطر البطريرك الى طلب المساعدة المالية من ملك النوبة الذى استجاب لمساعدته (٢٢٧) •

---

(٢٢٧) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٧٩ ، ٨٠ •
(وانظر فيما بعد الباب الرابع ، ص) •

القيود التى فرضت على دور العبادة لأهل الذمة

الكنائس المسيحية :

يرى السير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » فى معرض حديثه عن سياسة التسامح الدينى التى نعم بها أهل الذمة فى مصر فى عصر الفاطميين أن « السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس فى القاهرة ـ العاصمة الجديدة ـ ٠ كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا فى بعض المدن الأخرى كنائس وأديرة جديدة » (٢٢٨) ٠ هذا فضلا عن السماح لهم بتجديد عمارة الكنائس القديمة ٠

فتحت مظلة التسامح الدينى ، انتهز البطريرك ابراهام السوريانى ـ البطريرك الثانى والستون للكنيسة القبطية ـ صداقته الوطيدة بالخليفة المعز لدين الله ، والتمس منه تجديده عمارة كنيسة القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين بالفسطاط ، وكذلك الكنيسة المعلقة بقصر الشمع ، فأذن له المعز ببناء الكنيستين ، كما

(٢٢٨) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ٨٤ ٠

قام البطريرك المذكور ببناء وترميم كثير من الكنائس بالاسكندرية وسائر أنحاء مصر ٠ ولما اعترض بعض مشايخ المسلمين وعامتهم على قيام النصارى ببناء الكنائس الجديدة وترميم غيرها ، أمر الخليفة المعز بتوفير الحراس لحماية وحراسة العمال والبنائين الذين يعملون في البناء حتى يستكملوا ما بدأوه ٠ وكان هذا تحديا لمظاهر الغضب والسخط لمشاعر عامة المسلمين (٢٢٩) ٠

لكن المصادر النصرانية استغلت هذا التسامح الديني الذى أغدقه المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر على النصارى ، وتصريحه لهم ببناء وتجديد وتعمير وترميم الكنائس والأديرة ، فذهب بها الادعاء الى أن تزعم أن المعز لدين الله في أواخر أيامه ، ارتد عن الاسلام ، واعتنق النصرانية ، ولبس زى الرهبان وظل على نصرانيته الى أن دفن في كنيسة أبى سيفين بالفسطاط (٢٣٠) ٠

وترجع تلك المصادر النصرانية هذا الزعم الى أسطورة خلاصتها : أنه حدث في مجلس الخليفة المعز لدين الله جدل دينى بين البطريرك ابراهام السوريانى ومن معه ، وبين بعض اليهود يؤازرهم يعقوب بن كلس ، انتهى لصالح البطريرك وجماعته ٠ فما كان من ابن كلس الا أن أوعز الى الخليفة المعز بأن يمتحن ايمان النصارى قائلا له : ان انجيلهم يقول : « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل ، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل » ٠ فما كان من المعز الا أن طلب من البطريرك نقل جبل المقطم ، وتمضى الأسطورة فتؤكد أن الرهبان والقسس اجتمعوا عند جبل المقطم ، وقاموا بالصلوات والابتهالات فحدثت زلزلة شديدة

---

(٢٢٩) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٤٣ ، ٤٤ ٠

(٢٣٠) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الطبعة الأولى سنة ١٩٣١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ ٠

تشقق لها جبل المقطم ، فأكرم الخليفة المعز البطريرك وأجابه الى طلبه بشأن التصريح له بتجديد وتعمير وترميم ما التمسه من كنائس وأديرة (٢٣١) ٠

ولقد تصدى الأستاذ عبد الله عنان للرد على تلك الأسطورة ، وفندها فنقضها من أساسها ، وأثبت بطلان دعواها (٢٣٢) ٠

وفى خلافة العزيز لدين الله استغل أهل الذمة تسامحه وعطفه عليهم ومساندة زوجته النصرانية ـ الملكانية المذهب ـ لهم ، فقام بطريرك الأقباط باصلاح الكنائس المهدمة وبناء غيرها (٢٣٣) ٠ بل ان العزيز بالله أمر بتوفير الحماية للبنائين النصارى الذين يقومون بعمليات تعمير وترميم الكنائس ممن يعترض عليهم من المسلمين (٢٣٤) ٠

غير أن بعض الكنائس تعرضت فى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م لغضب عامة المسلمين بعاصمة الخلافة ، ففى هذا العام قرر الخليفة العزيز الخروج لجهاد الروم ، وبينما الجيش على أهبة الاستعداد للتحرك ، اذا بقطع الاسطول الفاطمى الراسية فى ميناء المقس تتعرض لحريق مدمر ، أتى على معظمها ، فاتهمت الرعية تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر ، فقتلوا منهم حوالى مائة وستين ، ثم هاجمت العامة والمغاربة كنيسة القديس ميخائيل التى للملكانية بقصر الشمع كما نهبت كنيسة النسطورية ٠ الا أن العزيز أنزل العقاب الصارم

(٢٣١) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤١ ، ٤٤ ٠
ـ الانبا ميخائيل : (أسقف أتريب) السنكسار ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، ١٢٨ ٠
ـ سميكة : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٨ ٠

(٢٣٢) عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٧٨ ـ ٨٥٠

(٢٣٣) ابو صالح : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ ٠

(٢٣٤) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ٣٦ ٠

بالمسلمين الذين اشتركوا فى قتل الروم ونهب الكنائس ، وأمر برد ما أخذ من ممتلكات الكنائس اليها (٢٣٥) .

وهكذا يتضح مما سبق أن الخليفتين المعز والعزيز قد صرحا بترميم الكنائس ، وهذا ما يتفق مع ما يسمى بالشروط العمرية فيما يتعلق بالكنائس ، الا أنهما صرحا أيضا باقامة وبناء الكنائس الجديدة بالقاهرة وبالأقاليم ، وهذا ما لا يتفق مع الشروط العمرية التى حرمت بناء الكنائس الجديدة لأهل الذمة ، فخالفا بذلك ما اتفق عليه جمهور المسلمين .

لكن الخليفة الحاكم بأمر الله كان صارما فى تنفيذ ما جاء بالشروط العمرية فيما يتعلق بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة ، بل زاد عليها ، فأمر بهدم الكثير من الكنائس فى فترة سياسته المتشددة ازاء أهل الذمة .

ففى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢م كان الاحتكاك الأول بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين النصارى فيما يتعلق بتجديد الكنائس . ففى تلك السنة شرع أبو منصور الزيات الكاتب النصرانى ـ اليعقوبى المذهب ـ فى تجديد كنيسة قديمة مندرسة بظاهر الفسطاط ، فى الموضع الذى عرف بعد ذلك براشدة ، مما أثار غضب عامة المسلمين . ولما علم الحاكم بأمر الله بذلك أمر بهدم الكنيسة فهدم عامة المسلمين ما بنى منها ، وأمر الحاكم بأمر الله بأن ينشأ مكانها مسجد جامع عرف بجامع راشدة ، وبدىء فى عمارته فى ربيع الآخر سنة ٣٩٣ هـ ، ولما رأى توسعة الجامع أزيلت مقابر اليهود والنصارى التى كانت ملاصقة له لاستكمال بنائه (٢٣٦) . كما هدمت فى

---

(٢٣٥) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ١٧٩.

(٢٣٦) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٢

ســـنة ٣٩٤ هـ/١٠٠٣ م كنيستان كانتا بجوار الجامع (٢٣٧) احداهما لليعاقبة والأخرى للنسطورية ، وبنى الحاكم بأمر الله فى موضعهما مسجدين للمسلمين · وشمل الهـدم أيضـــا كنيستان للملكانية كانتا بحارة الروم بالقاهرة (٢٣٨) ·

وفى رجب سنة ٣٩٧ هـ ، أمر الحاكم بأمر الله بمصادرة كل ما هو محبس على الكنائس من أملاك وعقارات وجعله فى الديوان ، وكتب الى سائر الأعمال بذلك ، كما أحرق العديد من الصلبان على باب الجامع العتيق بالفسطاط (٢٣٩) ثم تلاه مرسوم آخر فى رجب سنة ٣٩٨ هـ بمصـــادرة أوقاف الكنائس الحديثة والعتيقة بمصر خاصة دون غيرها من أقاليم الدولة وجعلها باسمه فى الديوان (٢٤٠)·

ثم كان أخطر مرسوم أصدره الحاكم بأمر الله ، وهو الخاص بهدم كنيسة القيامة ببيت المقدس · وعلى الرغم من أن بعض المصادر العربية ترجع تاريخ هدم كنيسة القيامة الى أواخر عام ٣٩٨ هـ/ ١٠٠٨ م (٢٤١) ، الا أن الرواية النصرانية المعاصرة تحدد سنة ٧٢٧ للشهداء وهى توافق سنة ٣٩٩ هـ/١٠٠٩ م تاريخا لهذا السجل الخطير (٢٤٢) ·

---

(٢٣٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٤٨ ·
Stern : Op. cit., p. 15-17.

(٢٣٨) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ·

(٢٣٩) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ ، ٢٨٦ ·

(٢٤٠) الأنطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ ·

(٢٤١) القلانسى : (الذيل ، ص ٦٦) ، ابن الجوزى (المنتظم ، جـ ٧ ، ص ٢٣٩) · سبط بن الجوزى (مرآة الزمان ، جـ ١١ ، ورقة ٢٠٤) ، المقريزى (اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٥) العينى (عقد الجمان جـ ١٩ ، ورقة ٥٤٤) · عنان (الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٦) ·

(٢٤٢) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ورقة ٦٠ ·
ـ الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ ·

ولقد ألقت تلك الرواية النصرانية المعاصرة الضوء على ظروف الحادث والأسباب التى دفعت الخليفة الحاكم بأمر الله الى اتخاذ هذا القرار ، ويروى الأنبا ميخائيل أنه عندما غضب الحاكم بأمر الله على الأنبا زخاريا بطريرك اليعاقبة أمر باغلاق الكنائس أولا ، ثم القبض على البطريرك واعتقاله وحبسه ، كما سبق أن أوضحنا ... وفى ثانى يوم لاعتقاله أمر الخليفة كاتب السجل النصرانى النسطورى المعروف بابن شترين ، بأن يكتب الى الشام بهدم كنيسة القيامة بالقدس ، وجاء فى السجل « خرج أمر الامامة اليك ، فاهدم قمامة ، فاجعل سمائها أرضا ، وطولها عرضا » (٢٤٣) ، فقام والى الرملة (فلسطين) بارسال رجاله وأمرهم بمصادرة كل ما فى الكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة ، واحتاطوا على كل محتوياتها ، كما هدمت مبانى الكنيسة الا ما تعذر هدمه ، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين وكل ملحقاتها ، ولم يبق من الآثار المقدسة بكنيسة القيامة سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس ، وقد أصيبت بالتلف من جراء ضربها بالمعاول ، كما هدم دير السرى وكان خاصا بالراهبات ، وصودرت جميع أملاك الكنيسة وأوقافها وأموالها ، وأخذت جميع محتوياتها من تحف وذخائر ، ويؤرخ الأنطاكى الخامس من صفر سنة ٤٠٠ هـ تاريخا لابتداء هدم الكنيسة (٢٤٤) .

أما معظم المصادر الاسلامية ، فقد تعرضت هى الأخرى لهذا الحادث الخطير ، وأسباب حدوثه . وتؤرخ له بعام ٣٩٨ هـ ، وتذكر أنه فى هذا العام خرج نصارى على عادتهم فى كل عام الى بيت المقدس لحضور احتفالات عيد الفصح ، وهم فى أجمل مظاهر العظمة والأبهة كما يخرج المسلمون الى الحج فاستدعى الخليفة

---

(٢٤٣) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٥٦ .

(٢٤٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

الحاكم بأمر الله ختكين الضيف العضدى أحد قواده ، وسأله عن أمر كنيسة القيامة لمعرفته بهـا ، وما يحدث فى هـذا العيد هناك ، فأخبره بأنها بيعة تعظمها النصارى ، ويحج اليها من جميع البلاد ، ويأتى اليهـا الملوك وحـكام الدول المسيحية حاملين اليهـا النذور والأموال الكثيرة والثياب الديبـاج والستور والفروش والقنـاديل والشموع والصلبان ، وأوانى الذهب والفضة والتحف النادرة ، فاذا كان يوم الفصح زينت الكنيسة بالأضـواء الباهرة ، وعلقت القناديل المضيئة والمملوءة بدهن البلسان فى المذبح ، وقد اجتمع النصـــارى لاقامة الصلوات والشعائر الدينية ، فى مواكب دينية صاخبة ، ورفعوا أصـواتهم يرددون الأدعية والابتهالات ، حاملين المباخر والصلبان الضخمة ، وقد علق خدم الكنيسة بها القناديل المملوءة بدهن البلسان مع دهن الزيبق ، فتنبعث منها الأضـــواء الساطعة التى تخطف البصر ، وبطريقة تخيل للناظرين اليها أنها نزلت من السماء ، فيكثر تهليلهم وتكبيرهم • فأنكر الحاكم بأمر الله ذلك ، وتقدم الى أبى المنصور بشر بن سورين كاتب الانشاء بأن يكتب رســالة الى الداعى أحمد بن يعقوب بأن يقصـد بيت المقدس ، ومعـه والى الرملة ، فيهدم كنيســة القيــامة ، ويأخذ محتوياتها ، ويبيح لعامة المسلمين نهبها ومحو أثرها (٢٤٥) • فقام والى الرملة ومعه الأشراف والقضـاء والشـهود ووجوه المسلمين ، وقصدوا كنيسة القيامة • الا أن نصارى مصر عندما علموا بصدور مرسوم الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم الكنيســة سارعوا باحاطة بطريرك بيت المقدس علما بمضـــمون السجل ، فأخفى البطريرك

---

(٢٤٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٥ •

(٢٤٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٦٧ •

– على أن المقريزى يذكر أنه فى صفر سنة ٤٠٠ هـ كتب من انشاء ابن سورين لهدم قمامة بالمقدس (اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٨١) •

كثيرا مما كان فيها من الفضة والذهب والجواهر والثياب والتحف قبل وصول أصحاب الحاكم بأمر الله الذين أحاطوا على ما تبقى فيها من موجودات وكان شيئا عظيما ، فتمت مصادرته ، كما هدموا مباني الكنيسة ، و « قلعت حجرا حجرا » · وتعرضت للنهب والتخريب (٢٤٦) ·

واغلب الظن أن تخريب الكنيسة « لم يكن تخريبا كليا » ، وأن الهدم امتد فقط الى أغلب منشآتها (٢٤٧) ·

ونتيجة لهذا الحادث اهتز العالم المسيحى ، وارتفعت الأصوات فى أنحائه تطالب بحماية القبر المقدس ، وأخذت البابوية على عاتقها الترويج لهذه الدعوة (٢٤٨) ·

ولقد اتبع الحاكم بأمر الله قراره بهدم كنيسة القيامة بقرار آخر يقضى بهدم جميع الكنائس والبيع فى جميع أقاليم الدولة ، الا أنه أمسك عن هدم كثير منها خوفا من أن تقوم شعوب العالم المسيحى بهدم ما فى بلادها من مساجد المسلمين (٢٤٩) ·

الا أنه فى تاسع عشر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى طريق المقس ، وكذلك كنائس حارة الروم ، ونهب جميع ما فيها (٢٥٠) وفى السنة التالية أمر بهدم كنيسة العجوز بدمياط ، وكانت واحدة من أعظم كنائس الملكانية بمصر ، فشرع فى هدمها يوم الجمعة فى الثانى عشر من شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ · كما نبشت مدافن بالكنيسة كانت لنصارى دمياط

---

(٢٤٧) مجير الدين الحنبلى : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جـ ١ ، ص ٣٠٢ ·

(٢٤٨) عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٣٨ ·

(٢٤٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ·

(٢٥٠) النويرى : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٥ ·

من الملكانية وأزيلت معالمها ، وأخذت محتوياتها وما بها من آنية الذهب والفضة ، وصودرت أملاك الكنيسة وعقاراتها وكل ما حبس عليها ، وبني في موضعها مسجد للمسلمين (٢٥١) ٠

وفي صفر سنة ٤٠٢ هـ أمر الحاكم بأمر الله ، بألا يضرب بناقوس ، والا يظهر صليب بأية كنيسة ولا تقع عليه عين ، فنزعت الصلبان من الكنائس ومحيت معالمها من ظاهر البيع والكنائس (٢٥٢) ٠

وفي ربيع الأول سنة ٤٠٣ هـ وقع الأمر بهدم جميع الكنائس في الديار المصرية (٢٥٣) ، فسأل جماعة من النصارى الحاكم بأمر الله أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم ، وأن يبنوها مساجد للمسلمين ، وأقطع الحاكم ما للكنائس من رباع وأملاك لجماعة من الخدم الصقالبة ، ووهب لهم ما في الكنائس من التحف والذخائر وأواني الذهب والفضة وغيرها من الحواصل والمآكل ، كما أقطع كثيرا من الكنائس لكل من التمسها ، ولم يرد من سأله شيئا منها (٢٥٤) ٠ ثم أصدر أوامره الى ولاته بالأقاليم وسائر أعمال الدولة بأن يهدم كل وال ما في ولايته من كنائس (٢٥٥) ، فهدم كثير منها ، ومحيت معالمها وأزيلت آثارها ، وقلعت أساساتها من الأرض ، وأخذت أنقاضها ، وأنشىء مكان البعض منها عدد من المساجد (٢٥٦) ٠ كما تحول بعض هذه الكنائس الى مساجد للمسلمين (٢٥٧) ، ويروي الأنطاكي أنه قد أخرجت عظام الموتى من

---

(٢٥١) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٩٧ ٠

(٢٥٢) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٠٣ ٠

(٢٥٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ٠

(٢٥٤) النويري : المصدر السابق ، جـ ٢٦ ، ورقة ٥٧ ٠

(٢٥٥) ـــــــ : نفس المصدر ، ونفس الورقة ٠

ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ٠

(٢٥٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ٠

(٢٥٧) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٤ ٠

Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

الكنائس فى عدة بلدان ، وأحرقت الكتب الموجودة بها ، كما ألزم الحاكم بأمر الله نصارى كل بلدة بأن يدفعوا أجور العمال الذين قاموا بهدم ونقض ما بها من كنائس (٢٥٨) ، ويذكر المقريزى أن كنيسة أبى شنودة ـ كبرى الكنائس القبطية بمصر ـ وكنيسة المعلقة بالفسطاط قد تعرضتا لنهب ما فيهما من الأموال والمصاغ وثياب الديباج وغير ذلك من التحف والذخائر وكان شيئا كثيرا (٢٥٩) . هذا بجانب ما نهب من أموال الكنائس والديارات فى سائر أنحاء الدولة ، فباع الناس بأسواق مصر كل ما وصلت اليه أيديهم من تلك الثروات والتحف وتصرفوا فى أحباس وأملاك وعقارات الكنائس بالبيع والشراء (٢٦٠) .

ولقد تتابع هدم الكنائس فى جميع أنحاء الدولة ، وطبقت القرارات الخاصة بهدمها فى منتهى الحزم والصرامة لمدة ما يقرب من ثلاث سنوات من ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ الى أواخر سنة ٤٠٥ هـ . وهدم فى تلك الفترة من الكنائس والأديرة التى بناها الروم حوالى ثلاثين الف ـ حسب قول المقريزى ـ ، ونهب من أموالها وذخائرها ما يصعب حصره ، وأخذ من أوقافها وأملاكها الشىء الكثير (٢٦١) .

وعلى الرغم من أن الأنطاكى بالغ فى وصف قسوة الأساليب التى اتبعت فى هدم الكنائس . وعلى الرغم من مبالغة المقريزى فى تقدير ما هدم من كنائس وأديرة الروم ، الا أن واقع الأمر يؤكد

---

(٢٥٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٥٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢٦٠) ــــــ : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥

(٢٦١) ــــــ : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٩٥

أن الحاكم بأمر الله اتبع سياسة غاشمة متعصبة ازاء دور عبادة أهل الذمة في تلك الفترة ، وليس هناك ما يبرر اتخاذ مثل تلك القرارات والاجراءات المنافية لروح التسامح الاسلامى ، بل ان تلك القرارات تعكس روح التعصب الدينى ـ لدى الخليفة الحاكم بأمر الله ـ التى غذتها كثرة حروبه من الروم ٠

ولقد حاول الراهب يونس ـ السابق الاشارة اليه ـ والحاقد على البطريرك زخاريا ، أن يشعل نار الفتنة مرة أخرى بين الخليفة الحاكم بأمر الله وبين رجال الكنيسة الذين ألقوا على الراهب يونس تبعة تصرفات الحاكم الغاشمة ازاء هدم الكنائس ، الا أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان قد قرر اتباع سياسة معتدلة ازاء أهل الذمة (٢٦٢) ٠

ففى جمادى الأخرى سنة ٤١١ هـ ، أصدر سجلا الى نقفور بطريرك بيت المقدس بحفظ دور العبادة الخاصة بأهل الذمة فى بيت المقدس ، والمنع من نقضها ، وأنعم على كنائس بيت المقدس برد أوقافها اليها ، « وانفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها » (٢٦٣) ٠ كما صرح الحاكم بأمر الله لبطريرك الروم بالقاهرة بتعمير كنيسة القنطرة بالفسطاط ، ثم توالت التماسات الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء والتماسات غيره من النصارى الى الحاكم برد كل كنيسة من كنائسهم وعمارتها ورد أوقافها ٠

(٢٦٢) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٦٠ ٠

(٢٦٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣١

كما كتب الأنبا سلمون رقاعا رفعها الى الحاكم بأمر الله عن أهل البلدان البعيدة التماسا لبناء وتجديد ما هدم من الكنائس فأجاب الحاكم كل الى ملتمسه ، وأطلق عمارة جميع الكنائس التى يستدعى الأمر منه الاذن فيها ، واعادة أوقافها اليها . الا ما كان قد بيع فى وقت القبض عليها (٢٦٤) . هذا بجانب تصريح الحاكم بأمر الله بأن يعاد الى الكنائس الأخشاب والعمد والطوب والحجارة المأخوذة منها (٢٦٥) ، وجد النصارى فى عمارة كنائسهم فعادت الى أحسن مما كانت عليه (٢٦٦) .

زد على ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر باعفاء كثير من أملاك الكنائس وأوقافها من دفع ما عليها من الخراج والرسوم ، وما فرض عليها من غرامات سابقة (٢٦٧) .

وفى بداية خلافة الظاهر لاعزاز دين الله ، سمح للنصارى الذين تؤازرهم ست الملك ـ ببناء الكنائس ، الا أن ست الملك ـ التى كان لها نفوذ كبير فى الدولة ـ أخذت الخراج والرسوم التى سبق للحاكم بأمر الله اعفاء أوقاف وأملاك الكنائس منها (٢٦٨) .

وفى عهد الظاهر أيضا أعيد تجديد عمارة كنيسة القيامة ببيت المقدس كما استمر النصارى فى تعمير وتجديد كنائسهم فى سائر أقاليم الدولة (٢٦٩) ، « حتى أعيدت لما كانت عليه

---

(٢٦٤) ــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة .
(٢٦٥) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٦٠ .
(٢٦٦) الأنبا ميخائيل (اسقف أتريب) : السنكسار ، جـ ١ ، ص ١٠٦ .
ـ العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .
(٢٦٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ .
(٢٦٨) ــــــ : نفس المصدر ، ٢٣٨ .
(٢٦٩) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٣٤٣ .

وأفضل » (٢٧٠) ، وردت أوقاف للكنائس لم تكن قد ردت اليها في خلافة الحاكم (٢٧١) ٠

وفى عهد وزارة اليازورى فى الخلافة المستنصرية تعرضت الكنائس لبعض القيود ، بسبب الخلاف الذى نشب بين اليازورى والبطريرك خريستوذولوس لأنه أنشأ كثيرا من الكنائس المستحدثة مما أدى الى اغلاق الكنائس وهدم ما استجد منها وفرض غرامات مالية على ما استحدث من تلك الكنائس ٠

على أن حصن الدولة والى الاسكندرية فى ذلك الوقت والذى كان يعطف على النصارى ، أرسل خفية الى بعض خواصه من رجال الكنائس بالاسكندرية ليجردوا كنائسهم سرا من الأوانى والحلى وكل ثمين من محتوياتها ، قبل أن تصل اليها يد المكلفين بالاستيلاء عليها من قبل السلطة (٢٧٢) ٠

ولما رفض الروم سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م أن يخطب للخليفة المستنصر بالله بجامع القسطنطينية ، أمر الخليفة المستنصر بمصادرة أملاك كنيسة القيامة بالقدس مع مصادرة أموالها ونفائسها (٢٧٣) ٠

ومع هذا قام النصارى فى خلافة المستنصر بترميم وبناء بعض الكنائس اذ يذكر أبو صالح الأرمنى فى تاريخه أن كنيسة القديس جرجيوس بالحمراء ـ والتى كانت قد تصدعت ـ قد أصلحت وجددت على يد المعلم سرور الجلال الذى كان من أغنياء

---

(٢٧٠) الانبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، جـ ٢ ، ورقة ٦١

(٢٧١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ٠

(٢٧٢) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٠

ـ جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٤٠ ٠

(٢٧٣) العينى : المصدر السابق ، جـ ٢٠ ، ورقة ١١٢ ٠

النصارى (٢٧٤) ، كما كان هناك كثير من رجال الدولة ــ فى خلافة المستنصر ــ ممن شملوا برعايتهم وتسامحهم كنائس النصارى ودور عبادتهم (٢٧٥) ٠

الأديــرة :

وكانت أديرة النصارى منتشرة فى أنحاء مصر والشام ونعم رهبان تلك الأديرة بسياسة التسامح الدينى ازاء أهل الذمة التى كانت سمة من سمات عصر الفاطميين ، باستثناء فترة من عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ٠

فعندما أقدم جوهر الصقلى على بنــاء مدينة القــاهرة لتكون عاصمة للفاطميين قام بتعمير دير الخندق بظاهر القاهرة من شمالها ، عوضا عن دير هدمه كان موضعه بالقرب من الجامع الأقمر ، وكان يعرف بدير العظام ٠ كما نقل رفات موتى النصارى الى دير الخندق احتراما لمشاعر النصارى فى مصر (٢٧٦) ٠

ولما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر واستقر بها ، شمل برعايته وعطفه ديارات النصــــارى ورهبانهــا ، وصرح للبطريرك ابراهام السوريانى رأس الكنيسة القبطية آنذاك بترميم الأديرة القديمة وبنــاء ما التمســـه من الأديرة الجديدة فى سائر اقاليم الدولة (٢٧٧) ٠

وفى خلافة العزيز بالله كانت ديارات النصارى فى حمايته ، ونعم الرهبان بالأمن والطمأنينة طوال عهده ، كما قام النصارى

---

(٢٧٤) أبو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ٣١ ٠

(٢٧٥) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ٧٧ ٠

(٢٧٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٦ ٠

(٢٧٧) الانبا ميخائيل : المصدر السابق ، ج ٣ ، ورقة ٤١ ، ٤٤

ببناء بعض الأديرة دون الاستئذان منه (٢٧٨) ، وعلى سبيل المثال فان أرسانيوس البطريرك الملكانى صـــهر العزيز بالله أحاط دير القصير بالمقطم بسور عظيم ، وعمر الدير وجدده ، وأنشأ فيه أبنية كثيرة (٢٧٩) ·

وقبل أن تهب العاصفة ويتشدد الحاكم بأمر الله فى سياسته تجاه أهل الذمة ، قام النصارى بتجديد عمارة بعض الأديرة ، فقد اهتم أبو نصر ابن عبدون – وكان آنذاك يتولى ديوان الشـــام ، بتجديد عمارة دير ماريوحنا (٢٨٠) ، وكان على جانبى هذا الدير بساتين أنشأ بعضها الأمير تميم بن المعز وكانت من مواضع النزهة والطرب (٢٨١) ·

وعندما هبت العاصفة ضد أهل الذمة فى خلافة الحاكم ، وصل ذراها الى الأديرة والرهبان ، فهدم الكثير من الأديرة ، ولم يبق منها الا القليل (٢٨٢) ·

ففى العاشر من رجب سنة ٣٩٨ هـ ، أمر بوضع اليد على أوقاف الديارات الحديثة والعتيقة بمصر دون غيرها من البلدان ، وجعلها باسمه فى الديوان (٢٨٣) ، وفى مرســـومه الصـــادر فى ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ ، كان هدم كنيسة القيامة بالقدس وشمل الهدم والتخريب دير للراهبات بجوارها يعرف بدير السرى ، ونهب ما فيه من تحف وذخائر (٢٨٤) · كما صـــودرت أملاك الأديرة

---

(٢٧٨) جاك تاجر : المرجع السابق ، ص ١٢٥ ·

(٢٧٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٧ ·

(٢٨٠) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ٥١

(٢٨١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٥ ·

(٢٨٢) ــــــــ : نفس المصدر ، ص ٥٠٦ ·

(٢٨٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٤

(٢٨٤) ــــــــ : نفس المصدر ، ص ١٩٦

وأوقافها فى أنحاء الدولة وامتدت اليها معاول الهدم لنقضها (٢٨٥).

وفى يوم الثلاثاء ثامن شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، أصدر الحاكم بأمر الله مرسوما بهدم دير القصير بجبل المقطم ، ونهب جميع ما فيه ، وكان أرسانيوس بطريرك الملكانية يومئذ مقيما فيه مع الرهبان ، فأخرجوا جميعا من الدير ، وأخذت تنقضه معاول الهدم ، ولعل السبب فى ذلك تشدد الحاكم بأمر الله فى سياسته ازاء أهل الذمة عامة ، وازاء النصارى الملكانية بوجه خاص ، هذا بجانب أن البطريرك استحدث بالدير عدة مبان ومنشآت جديدة ، وعمر وجدد فى مبانيه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله تمشيا مع سياسته وتشدده فى تطبيق الشروط العمرية الى هدم الدير وجميع ملحقاته المستحدثة ، واستمر الهدم فيه عدة أيام . وكان للنصارى الملكانية خارج الدير مقابر ومدافن لموتاهم ، ففتح الرعايا والعبيد جميعها ، ونبشوها ، وأخذوا توابيت الموتى ، ولما علم الحاكم بذلك ، أمر بالكف عن فتح القبور وترك التعرض لرفات الموتى وما تحويه المدافن (٢٨٦) . وفى تلك السنة الغيت جميع الأحباس المرصودة على الأديرة بمصر وضمت للديوان (٢٨٧) . وفى صفر سنة ٤٠٢ هـ نزعت الصلبان وطمست آثارها من ظاهر الأديرة ، وفى جمادى الأخرى سنة ٤٠٣ هـ أقطع الحاكم بأمر الله معظم الأديرة العتيقة والحديثة بمصر وسائر أقاليم الدولة لكل من التمسها (٢٨٨) ،

---

(٢٨٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٥ .

(٢٨٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

ـ ابو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٢٨٧) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٨ .

(٢٨٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٨١

وأحرق بعضها (٢٨٩) ، ووهب لهم أملاكها وما هو موقوف عليها ، وسمح لهم بنهب محتوياتهـا ، وكتب الى عماله فى سـائر أعمال الدولة بهدم الأديرة ونقضها ومحو آثارها ، فأتى على أكثر الأديرة بالأقاليم ، الا الدير الكبير المعروف بدير أبى مقار ــ فى ترنوط من أعمال الاسكندرية ــ وما حوله من الأديرة القريبة منه ، اذ بلغ الحاكم بأمر الله أن هذا الدير فى حماية قبيلتى بنى قرة وبنى كلاب العربيتين ، وأن عرب هاتين القبيلتين لا يمكنون أحدا من الوصول اليــه والتعرض له ، فأمسـك الحـاكم عن هدمه أو الحاق الضرر به (٢٩٠) ، مما أتاح للرهبان المقيمين فيه حرية العبادة واقامة الشعائر الدينية فى الفترة التى ضيق فيها الحاكم بأمر الله الخناق على الكنائس والأديرة بمصر (٢٩١) .

هذا بينما أقطع الحاكم بأمر الله دير راية ، ودير طور سيناء ، لرجل عربى يعرف بابن غياث ، فهدم احدى كنيستى دير راية ، وأخذ جميع ما فيه من تحف وذخائر ومحتويات . ويذكر الأنطاكى أن الخليفة الحاكم أوعز الى ابن غياث المسير الى دير طور سيناء لهدمه وبناء مسجد مكانه ، الا أن الأنبا سلمون بن ابراهيم أحد الكتاب النصارى الذين اتخذوا من الرهبانية طريقـا لهم ، وكان على قدر كبير من الذكاء والسياسة ، أحسن استقبال ابن غياث هذا ، وأكد له أن أسقف الدير ورهبانه على استعداد تام للمساعدة فى هدم الدير لسـاعته وغير مانعين له منه ، وسـلم اليه جميع محتويات الدير من التحف والذخائر وما به من الذهب والفضة ، وقال له قولا لينا . وأوضح الأنبا سلمون لابن غياث صعوبة هدم الدير لحصانة مبانيه وضخامة جدرانه وأسواره ، وكثرة ما يلزم

---

(٢٨٩) أبو صالح الأرمنى ، ص ٧٧ .

(٢٩٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٢٩١) ابن الراهب : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

من الأموال والنفقات لهدم الدير ، والتمس الراهب من ابن غياث عدم التعرض للدير مقابل مبلغ من المال تقرر دفعها اليه ، فرضى ابن غياث بما تم الاتفاق عليه ، وانصرف دون أن يهدم الدير أو يلحق برهبانه الأذى (٢٩٢) .

لكن الحاكم بأمر الله قبل اختفائه سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠ م كان قد خفف من مطاردته لأهل الذمة ، فانتهز الأنبا سلمون رئيس دير طور سيناء تحول الخليفة عن سياسته السابقة وتسامحه مع أهل الذمة ، وشكى اليه سوء حالة رهبان دير طور سيناء ، وما هم عليه من الضر والفاقة ، وتوسل اليه فى اطلاق الأوقاف الخاصة بالدير والتى سبق مصادرتها ليستعين الرهبان بريعها فى احتياجاتهم ومتطلبات اعاشتهم ، فأجابه الحاكم بأمر الله الى ملتمسه ، وأعاد ما كان للدير من أوقاف وأملاك (٢٩٣) .

وعندما التقى الأنبا سلمون بالحاكم بأمر الله شكى اليه ما أصاب دور العبادة الخاصة بالنصارى من خراب ، وما تعرضت له أوقافها من المصادرة والتمس منه الاذن بتجديد عمارة دير القصير ، والسماح بعودة الرهبان الى سكناه ، واجتماع النصارى فيه للصلاة مع رد ما سبق مصادرته من أملاك وأوقاف الدير اليه واعفائها واعفاء ما يستجد له من أوقاف مما يجب من « خراج وعشر وغرم ورسم » فى سائر دواوين الدولة ، فأجابه الحاكم الى ما التمسه وكتب له سجلا بذلك فى ربيع الآخر سنة ٤١١ هـ . ثم كتب الحاكم سجلا الى نقفور بطريرك بيت المقدس بحماية أديرة

---

(٢٩٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢٩٣) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٢٨ .

بيت المقدس ورد أوقافها اليها واطلاق حرية التعبد لرهبانهـــا ، وحذر كل من تسول له نفسه مخالفة أوامره (٢٩٤) ٠

وبعد ذلك أطلق الحاكم عمارة جميع الديارات فى سائر أنحاء الدولة وأمر برد أوقافها وأملاكها اليها ، الا ما كان قد بيع ابان مصادرتهـــا ، وأعطى لكل من سأله سجلا فى معنى سجل دير القصير (٢٩٥) ٠

ثم كان قرار الحاكم بالعفو الشامل بمقتضى مرسوم أصدره فى شهر شعبان سنة ٤١١ هـ قبيل اختفائه (٢٩٦) ٠ كما تعاطف الحاكم بأمر الله مع الرهبان ونشأت صداقة وطيدة بينه وبين بعض الرهبان ، ومنهم بربن الراهب الذى كان قد اعتنق الاسلام ثم ارتد الى النصرانية فى خلافته ، وعاد صاحبا له ، وكان واحدا من الذين التمسوا من الحاكم بأمر الله اعادة فتح الكنائس والأديرة ، والغاء الكثير من القيود التى فرضت على النصـــارى ، كما أن الحـــاكم بأمر الله صرح له بتجديد عمارة أحد الأديرة ، وأطلق ما سبق مصادرته من أوقاف هذا الدير (٢٩٧) ٠

وزار الخليفة الحاكم بأمر الله فى أواخر أيامه الرهبـــان فى أديرتهم وقد لبس زى الرهبان ٠ فكثيرا ما كان يقصد دير القصير أثناء تجديد عمارته ، ويحث الصناع والعمال على الانتهاء منه ، كما أطلق الأموال للصرف على بنائه ، ودفع للرهبان المقيمين فيه الأموال الجزيلة للمساهمة فى نفقات معيشتهم وسد احتياجاتهم ،

---

(٢٩٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ــ٢٣١ ٠

(٢٩٥) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٣١ ٠

(٢٩٦) ـــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٣٣ ٠

(٢٩٧) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ٦٠ ٠

كما ساعد فى دفع أجور العمال ، وكافأ البنائين العاملين فى بنائه ، تشجيعا لهم للاسراع فى عمارته (٢٩٨) ٠

هذا ولم يقتصر الحاكم بأمر الله على زيارة دير القصير الخاص بالروم الملكانية ، بل انه كان يقصد الديارات التى جددها النصارى اليعاقبة للوقوف على ما تم فى عمارتها ، مما دفع عوام المسلمين الى اطلاق الاشاعات المغرضة ضده ، واتهامه بأنه قد تتلمذ على يد الأنبا سلمون الراهب ، وأنه قد انحاز اليه وامتثل لأوامره (٢٩٩) ٠

وهكذا أعاد الحاكم بأمر الله سياسة التسامح الدينى باطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، فصرح لهم بحرية اقامة شعائرهم الدينية ، والتعبد علانية فى الكنائس والأديرة ، وحثهم على اعادة بنائها ، وسمح للرهبان بالعودة الى أديرتهم ، والسكن بها ، مع توفير الامن والحماية لهم ، وشملهم بعطفه ورعايته ، وزارهم فى أديرتهم ، وأطلق لهم ما كان موقوفا عليهـــا من أملاك وأمـــوال وعقارات ، وأجاب النصارى لكل ما يحقق صلاح أمورهم (٣٠٠) ٠

وفى تلك الأثناء ، أذن الحاكم بأمر الله لمن دخل فى الاسلام كرها أن يرتد الى دينه ، فارتد آلاف من النصارى ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام الى المسيحية ٠ ويروى عن الحاكم قوله فى هذا الصدد : « ننزه مساجدنا عمن لا نية له فى الاسلام » (٣٠١) ، كما صرح بأن تضرب النواقيس فى البيع والكنائس (٣٠٢) ، ايذانا منه باطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ٠

---

(٢٩٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٣ ٠

(٢٩٩) ــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

(٣٠٠) ــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

(٣٠١) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٥٤٨ ٠

(٣٠٢) الأنبا ميخائيل (أسقف اتريب) : السنكسار ، ج ١ ، ص ١٠٦ ٠

أما عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ، فقد أعلن أنه سيتوخى العدل فى سياسته مع كافة الناس على اختلاف وطائفهم ودياناتهم . ولقد انعكست تلك السياسة على أهل الذمة ، اذ استمرت سياسة اعـادة بناء الأديرة ، وبذل رؤسـاء الكنيسـة جهودا كبيرة لتعمير ما خرب منها (٣٠٣) ، هذا فضلا عن أن الخليفة الظاهر أصـدر مرسوما عاما يؤكد استمرار سياسته فى اطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، وبأنه لا اكراه فى الدين . فمن آثر منهم البقاء على يهوديته أو نصرانيته فله ذلك ، ولهم جميعـا الحماية والأمان والطمأنينـة « على نفوسهم ودمائهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وأحوالهم ، ما سلكوا الطريق المستقيمة ولم يقصدوا المقاصد الذميمة » (٣٠٤) .

كما أصدر الخليفة الظاهر فى المحرم سنة ٤١٥ هـ مرسوما للرهبان اليعاقبة بتجديد ما سبق أن أقره الخلفاء الفاطميون الأوائل من توفير الحماية لهم ، وصيانة ممتلكات أديرتهم ، وعدم المساس بأوقافها (٣٠٥) .

بل أن الظاهر لاعزاز دين الله سمح بعودة جماعة من النصارى سبق لهم الهجرة الى بلاد الروم ، الا أنه أخذ منهم الجزية من السنة التى انتهى استخراجها منهم الى السنة التى عاد فيها كل واحـد منهم (٣٠٦) .

---

(٣٠٣) الأنبا ميخائيل : سر البيعة المقدسة ، جـ ٣ . ورقة ٦١ .

(٣٠٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣٠٥) Stern : Op. Cit., p. 15-17.

(٣٠٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .

وفى خلافة المستنصر بالله الفاطمى نعم الرهبان بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى الفترة الأولى من خلافته (٤٢٧ هـ ـ ٤٤٧ هـ) أى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى /منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ٠ ولم تتعرض الأديرة لما يسىء اليها أو الى رهبانها ، اذ سار المستنصر بالله على سياسة أسلافه التى تميزت بالتسامح الدينى وحرية العبادة لأهل الذمة ٠ والرحالة ناصرى خسرو الذى زار مصر وفلسطين فى خلافته ، يذكر أن كنيسة القيامة « يقيم بها كثير من القسس والرهبان ، يقرأون الانجيل ، ويصلون ، ويشتغلون بالعبادة ليل نهار » (٣٠٧) ٠

على أن أديرة النصارى فى الوجه البحرى امتدت اليها يد السلب والنهب ، أثناء تلك الحروب التى قامت بين قوات المستنصر ، وبين القائد التركى نصر الدولة الذى شق عصا الطاعة ، كما شوهت زخارف ورسوم تلك الأديرة ومبانيها ، وتعرض رهبانها للأذى والقتل والتشريد ، مما أدى الى هروب من نجا منهم الى الأرياف فرارا من البطش والموت (٣٠٨) ٠

ومع انتشار المجاعة ، وازدياد الفتن ، واضطراب الأمن وعجز الخليفة المستنصر عن استرجاع هيبته وسلطانه ، وتدهور الأوضاع بوجه عام فى جميع أنحاء الدولة ، اضطر المستنصر الى استدعاء بدر الجمالى الى مصر ، لعله يعيد الأمور الى حالتها الطبيعية (٣٠٩) ٠

---

(٣٠٧) ناصرى خسرو : المصدر السابق ، ص ٢٧ ٠

(٣٠٨) الأنبا ميخائيل : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ورقة ٧٩ ، ٨٧ ٠

(٣٠٩ــ ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٢٨٣ ، ٢٩٢ــ٢٩٣ ٠

الكنائس اليهودية :

واذا ما انتقلنا الى الحديث عن كنائس اليهود فى مصر ، فان المقريزى يذكر أنه كان لليهود عدة كنائس منتشرة فى الديار المصرية ويتناول فى حديثه احدى عشرة كنيسة منها : كنيسة دموه بالجيزة ، وكنيسة جوجر بالقرى الغربية (٣١٠) ، وفى مدينة الفسطاط كان لليهود ثلاث كنائس هى : كنيسة المصاصة (٣١١) ، وكنيسة الشاميين (٣١٢) ، وكنيسة الربانيين (٣١٣) ·

كما كان لليهود عدة كنائس فى مدينة القاهرة · فكان بحارة الجودرية كنيسة عرفت بها ، ويروى المقريزى أنها خراب منذ أن أحرق الخليفة الحاكم بأمر الله تلك الحارة على اليهود (٣١٤) · أما حارة زويلة وحدها فقد وجد بها خمس كنائس (٣١٥) هى : كنيسة القرائين ، وكنيسة دار الحدرة ، وكنيسة الربانيين ، وكنيسة السامرة · وجميع تلك الكنائس المذكورة ــ على حسب قول المقريزى ــ محدثة فى الاسلام (٣١٦) ·

وكان لمعظم هذه الكنائس مكانة خاصة عند اليهود ، فهم يعتقدون أن كنيسة دموه ــ أعظم المعابد اليهودية بمصر ــ كانت الموضع الذى لجأ اليه موسى عليه السلام ، حينما كان يبلغ رسالة

---

(٣١٠) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦٣ ·
(٣١١) ـــــــ : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ ·
(٣١٢) بنيامين التطيلى : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ·
(٣١٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧١ ·
(٣١٤) ـــــــ : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ ·
(٣١٥) ـــــــ : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٦٣ ·
(٣١٦) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧١ ·

الله عز وجل الى فرعون ، مدة اقامته بمصر ، منذ أن قدم من مدين الى مصر ، الى أن خرج بنى اسرائيل منها وكان بتلك الكنيسة شجرة زيزلخت فى غاية الضخامة ، لا يشكون من أنها ترجع الى زمن موسى عليه السلام . كما كان لهذه الكنيسة عيد يرحل اليهود بأهاليهم اليها ، فى عيد الخطاب ، وهو فى شهر سيوان ، ويجعلون ذلك بدل حجهم الى القدس (٣١٧) .

أما كنيسة جوجر ، فيزعمون أنها الموضع الذى ولد به نبى الله الياس (٣١٨) ، كما يزعمون أن كنيسة المصاصة كانت مجلسا له (٣١٩) . كذلك يعتقد اليهود أن فى كنيسة الشاميين نسخة من التوراة لا يشكون فى أنها بخط عزرا أحد أنبيائهم (٣٢٠) .

لكننا علينا أن نتساءل : هل تعرضت معابد وكنائس اليهود لأية أضرار أو قيود فى العصر الفاطمى الأول ؟ ثم لماذا تركزت معظم الكنائس اليهودية فى حارة زويلة بالقاهرة ؟ .

والواقع أن يهـود مصر كغيرهم من أهل الذمة ، قـد نعمـوا بسياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفـاء الفاطميون فى العصر الفاطمى الأول اذ تولوا أرقى مناصب الدولة ، وكانوا على صلة وثيقة بقصر الخلافة (٣٢١) ، فتمتعوا بحرية ممارسة شعائرهم الدينية فى أمن وطمأنينة . كما أن كنائسهم لم تتعرض طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، لما ينال منها أو يلحق الضرر بها .

وفي بداية خلافة الحاكم بأمر الله مارس اليهود شعائرهم الدينيـة فى حرية تامة ، بل ان بعض الوثائق تمتدحـه بسبب

(٣١٧) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٤٦٤ .
(٣١٨) ـــــــ : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٦٩ .
(٣١٩) ـــــــ نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ .
(٣٢٠) ـــــــ : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ .
(٣٢١) Goitein : A Mediterranean Society. The Jews Communitie; of the Arab World as Portrayeé in the Documents of the Cairo Geniza, Vol. I, p. 33-34.

« اصلاحاته العظيمة » ، كما أن كنائس اليهود فى أوائل خلافة الحاكم لم تتعرض لأية أضرار ، فكان اليهود يجتمعون بها لاقامة الاحتفالات الدينية الخاصة بهم (٣٢٢) ٠

الا أن اليهود الذين كانوا يسكنون حارة الجودرية أثاروا سخط الحاكم عليهم ، فصب عليهم جام غضبه ، اذ بلغه أن اليهود يجتمعون بها أوقات خلواتهم ويغنون :

وأمة قد ضلوا ، ودينهم معتل

قال لهم نبيهم نعم الا دام الخل

ويسخرون بذلك من المسلمين ، ويستهزئون بنبى الاسلام ويخوضون في الديانة الاسلامية ، ويتعرضون الى ما لا ينبغى سماعه ، مما اضطر الحاكم بأمر الله الى الانتقام منهم (٣٢٣) ، فسد عليهم حارتهم ليلا وأحرقها ٠ فامتد الحريق الى كنيستهم بتلك الحارة فدمرها وأصبحت خرابا (٣٢٤) ، ثم منعهم من السكن بحارة الجودرية أو المبيت فيها ، وأفرد لهم حارة زويلة للاقامة بها (٣٢٥) ، وأمرهم بعدم مغادرتها والا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم (٣٢٦) ، مما أدى الى تمركزهم في حارة زويلة ، وبالتالى الى اهتمامهم بانشاء معظم كنائسهم المحدثة فى تلك الحارة ٠

---

(٣٢٢) قاسم عبده : المرجع السابق ، ص ٥٩ ٠

(٣٢٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤ ٠

(٣٢٤) المقريزى : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

Goitein : Op. Cit., p. 84.

(٣٢٥) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤ ٠

ـــــــ : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ٤٧٠ ٠

(٣٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥١ ٠

ولقد تعرض اليهود فى مصر لصرامة القيود التى فرضهـا الحاكم بأمر الله على أهل الذمة ، وتشدده فى تطبيق الشروط العمرية التى زاد عليها ، مما اضطر كثير من اليهود فى هذه الفترة الى الهجرة الى بلاد اليمن ، والى تظاهر بعضهم بالاسلام (٣٢٧) وذلك اما حفاظا على وظائفهم فى الدولة ، واما هروبا من قسوة القيود الصارمة التى ضيقت الخناق على أهل الذمة بوجه عام .

واذا كانت بعض كنائس اليهود قد تعرضت للنهب والتخريب فى هذه الفترة من خلافة الحاكم فانه قـد عاد وصرح لهم باعادة بنائها (٣٢٨) ، كما أنه لم يكره أحدا على اعتناق الاسلام ، والدليل على ذلك أنه عندما انتهج سياسة متسامحة مع أهل الذمة قبيل اختفائه سنة ٤١١ هـ/١٠٢٠ م ، وسمح لهم بالعودة الى دينهم ، ارتد أكثر أهل الذمة ممن كانوا قد تظاهروا بالاسلام (٣٢٩) ، وفى يوم واحد ارتد سبعة آلاف يهودى الى اليهودية (٣٣٠) .

---

(٣٢٧) Goitein : Jews and Arabs, p. 84.

(٣٢٨) Goitein : The Mediterrean Society. Vol. I, p. 34.
——— : Jews and Arabs, p.84.

(٣٢٩) العينى : المصدر السابق ، جـ ١٩ ، ورقة ٥٤٨ .

(٣٣٠) ابن اياس : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٥٨ .

الباب الرابع

(علاقة الدولة الفاطمية بالدول المسيحية)

وأثر ذلك على أهل الذمـــة

الفاطميون والبيزنطيون

استوجبت الأحوال التي تعرضت لها بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمي لمصر ، أن يعمل الفاطميون على فتح الشام بمجرد أن انتهوا من فتح مصر .

فالجيوش البيزنطيـــة في عهـــد الامبراطور نقفور فوكاس (٣٥٢ ـ ٣٥٩ هـ/٩٦٣ ـ ٩٦٩ م) كانت تواصل هجماتها بعنف على الشام ، وبخاصة في النصف الثاني من عام ٣٥٥ هـ/٩٦٦ م وتبالغ في تخريب الأراضي الزراعية بالشام تمهيدا لغزو المدن الهامة بها ، وقد تمكنت هذه الجيوش من الاستيلاء على بعض الحصـــون والمراكز الرئيسية التي في حوزة المسلمين ، وساقت أمامها الآلاف من أسرى المسلمين (١) .

ثم كانت وفاة سيف الدولة الحمداني أمير حلب في صـفر ٣٥٦ هـ فرصـــة كبيرة أمام البيزنطيين ليستعدوا لتجهيز حملة أخرى على الشام في أواخر ٣٥٧ هـ/٩٦٨ م ليبدأ بها الامبراطور نقفور فوكاس هجومه الكبير على الشام ضد المسلمين هناك في أوائل

---

(١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطهم في مصر ، ص ١٢٩ .

العام التالى . وقد نجحت القوات البيزنطية فى الاستيلاء على كثير من الحصون والقرى وبعض المدن فى شمالى الشام ، كما تكرر حصارها لبعض المدن الهامة كأنطاكية (٢) .

وأمام خطر البيزنطيين فى بلاد الشام التى أصابها الضعف ، وانهكت قواها الحروب فى ظل ظروف سياسية بالغة السوء ، بالاضافة الى ضعف العباسيين وعجزهم عن التصدى للهجمات البيزنطية ، بدا واضحاً أنه لابد من وجود قوى اسلامية قوية ونشطة ، تمكنها قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية من التصدى لخطر البيزنطيين الداهم ، وكان ذلك من نصيب الفاطميين الذين كانوا يحلمون باسقاط الخلافة العباسية وتوحيد العالم الاسلامى تحت ظل خلافتهم وكان تحقيق ذلك يقتضى منهم الاستيلاء على الشام ونشر مذهبهم الشيعى هناك ، وجعل مصر والشام قاعدة للجهاد ضد الروم (٣) .

كما قضيت الضرورة السياسية والحربية على الفاطميين أن يوجهوا جيوشهم نحو الشام لتأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى من خطر القرامطة القادم الى مصر بزعامة الحسن بن أحمد القرمطى ، ولصد هجمات الروم فى شمال الشام (٤) ، ولكى يكتسبوا ثقة الرأى العام الاسلامى كخلافة قوية قادرة على دفع الأخطار عن المسلمين الذين فقدوا الثقة من قبل فى الخلافة العباسية الضعيفة ، والدولة الحمدانية التى أصابها الضعف بعد وفاة سيف الدولة (٥) .

---

(٢) عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة ، ص ٢٧ الى ص ٣٧ .

(٣) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١١٩-١٢٣ .

(٤) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٥) ماجد : المرجع السابق ، ١٢٥ .

ولم تكد جيوش الفاطميين تستقر في مصر ، حتى قام البيزنطيون في عهد الامبراطور نقفور فوكاس بهجوم مفاجيء على مدينة أنطاكية وتمكنوا من الاستيلاء عليها في ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ/أكتوبر ٩٦٩ م . وكان سقوطها في يد البيزنطيين حدثا ضخما ، فهى المدينة التى كان يطمح نقفور فوكاس فى الاستيلاء عليها منذ توليه عرش الامبراطورية ، لأنها مدينة البطاركة والقديسيين ، والتى كانت تعتبر منافسة لبيزنطة على حدود الشام لمدة مائة وخمسة عشر عاما حتى استردها المسلمون في سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م (٦) .

وما لبث البيزنطيون بقيادة بطرس فوكاس ـ قائد قواتهم بالشام ـ أن تقدموا نحو مدينة حلب أهم المدن الشامية ، ودام حصارهم لها سبعة وعشرين يوما ، تمكنوا خلالها من التقدم فى الجانب الشمالى منها ، وشددوا الحصار عليها ، مما اضطر أهالى المدينة الى التوسط بين بطرس فوكاس وحاكم المدينة قرعوية ـ الذى كان قد ثار على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى ـ فى عقد معاهدة صلح بينهما فى سنة ٣٥٩ هـ/٩٧٠ م . وفى هذه المعاهدة فرض البيزنطيون شروطهم التى تدعم نفوذهم بالشام ، وكان من أهمها التعاون مع الروم ضد المسلمين ، وأن يدفع جزية سنوية كبيرة الى بيزنطة (٧) .

على أنه بعد استيلاء الفاطميين على دمشق ، رأى جعفر ابن فلاح قائد جند الفاطميين ، أن فى استيلاء الروم على أنطاكية ،

(٦) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠
ـ سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ .
(٧) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .
ـ ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٣٠ .

وازدياد نفوذهم في حلب ما يهدد حكم الفاطميين في الشام ، ومن ثم أعد جيشا كبيرا ضم جنودا من أعمال دمشق وفلسطين ، وصار يرسل الحملة تلو الحملة الى أنطاكية لاجلاء الروم عنها ، لكن هذه الحملات منيت بالفشل (٨) ·

غير أن الفاطميين أرجأوا مواصـــلة حملاتهم على أنطاكية ، وســـحبوا قواتهم التي كانت تحاصرها ، ليواجهوا خطر القرامطة الداهم ، بزعامة الحسن بن أحمد القرمطي ، الذي نجحت قواته في سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩ م في الاستيلاء على دمشق وقتل جعفر بن فلاح ، واقامة الدعوة للخليفة العباسي ، ثم توجهت جيوشه في أواخر العام التالي لمهاجمة الفاطميين في مصر (٩) ·

ومع أن الفاطميين نجحوا في رد هجوم القرامطة عن مصر ، ودخلوا دمشق في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، وأرسلوا قواتهم لحصار أنطاكية للقيام بالجهاد (١٠) · الا أن الأمور زادت تعقيدا بالنسبة للحكم الفاطمي في الشام ، ذلك أن الامبراطور حنا زيمسكس الذي كان مثل سلفه نقفور تحركه الأطماع لمعاونة المسلمين في شن هجوم على الشام في ذلك العام ، منتهزا اضطراب أحواله ، وبخاصة أنه كان يعتقد باستحالة الحياة بينه وبين الفاطميين · وكان هدفه ليس فقط الاغارة على الشام ، وانما الوصول الى بيت المقدس مزار النصارى الذي يرتبط بذكريات المسيح (١١) ·

---

(٨) سرور : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ، ص ٢٩ ·

ـــــــ : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٣٩ ·

(٩) ـــــــ : مصر في عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٢٠ ·

(١٠) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ١٣١ ·

(١١) ـــــــ : المصدر السابق ، ص ١٣٣ ·

وفي تلك الظروف التى كان يعانى منها الحكم الفاطمى فى بلاد الشام وصل الى القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٣ هـ ، رسول الامبراطور البيزنطى حاملا رسالة الى الخليفة المعز ، الذى تسلمها . ورأى أنه من حسن السياسة أن يعقد هدنة مع الروم بسبب الظروف البالغة السوء التى تواجه الفاطميين فى الشام ، فأحسن استقبال الرسول البيزنطى ، رغم اعتراض بعض كبار رجال دولته · الا أن الرسول البيزنطى توفى فى القاهرة فى شهر ذى الحجة من نفس العام ، وعملا على تهدئة حالة التوتر فى العلاقات البيزنطية الفاطمية ، امر المعز باعادة جثمانه الى بلاد الروم (١٢) ·

غير أنه فى تلك الأثناء عمت الفوضى بلاد الشام بسبب الاضطرابات التى أثارها أفتكين التركى (١٣) ، الذى استولى على بعلبك فى شعبان سنة ٣٦٤ هـ (١٤) ، ثم دخل دمشق فى نفس الشهر من العام نفسه (١٥) · ولم يلبث البيزنطيون أن انتهزوا هذه الاضطرابات واستولوا على بعلبك فى رمضان سنة ٣٦٤ هـ ، ونهبوها وأحرقوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، ثم هددوا مدينة دمشق ، ولما كان أفتكين قد دخل دمشق ، فانه طلب عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس ، مقابل مبلغ من المال ، فجبى له أفتكين ثلاثين ألف دينار جمعها بالعنف ، فرحل الامبراطور الى بيروت ، وبها نصير الخادم والى المدينة من قبل المعز ، ولم يزل محاصرا للمدينة حتى سلم أهلها نصير الخادم للامبراطور الذى ولى عليها حاكما من قبله مع حامية من مائتى رجل ، وبعد ذلك بقليل

(١٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ـ٢١٤ ·

(١٣) افتكين : قائد جند الأتراك فى بغداد فى عهد عز الدولة بختيار أمير بنى بويه فى العراق (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ ـ وتوجه الى الشام بعد هزيمته أمام جند الديلم · (المناوى ، المرجع السابق ، ص ١٩١) ·

(١٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ·

(١٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٧ ، ص ٦٣ ·

نجح ريان الخادم أحد قواد المعز فى أن ينزل هزيمة بقـــوات الروم (١٦) ، غير أن زيمسكيس توجه الى فلسطين حيث تحصن الجيش الفاطمى بالقدس مدافعا عنها ومانعا الروم من السيطرة عليها، فاضطر الامبراطور الى العودة الى القسطنطينية (١٧) ٠

ومع هذا لم تنقطع الاتصالات الدبلوماسية بين البلدين ، فقد وصل الى القاهرة رسول آخر للامبراطور البيزنطى فى المحرم سنة ٣٦٥ هـ ، لمقابلة الخليفة المعز ٠ ولم يكتب لهذه المفاوضات الثانية النجاح ، أما بسبب عدم الوصول الى اتفاق حول شروط الصلح ، أو بسبب استمرار الهجمات البيزنطيـــة المتكررة على مـــدن الشام بالدرجـــة التى جعلت المعـــز يقرر أنه يجهـــز جيوشه للمسير الى القسطنطينية فى هذا العام ، لكنه توفى فى شهر ربيع الآخر قبل أن ينفذ خطته (١٨) ٠

وقد انشغل العزيز بالله ـ فى بداية عهده ـ بمحاربة افتكين التركى الذى تحالف مع القرامطة ، واستطاع أن ينزل بهذا التحالف هزيمة منكرة عند الرملة فى المحرم سنة ٣٦٧ هـ ، وأسر أفتكين ، بينما عاد القرامطة منهزمين الى الاحساء (١٩) وبذلك تخلص العزيز بالله من خطر القرامطة ، واتجه الى فلسطين ، حيث ثار أحد زعماء العرب المسمى المفرج بن دغفل بن الجراح الذى استولى على الرملة ، وأعلن العصيان على الفاطميين سنة ٣٧١ هـ ، حينما قلد العزيز الرملة

(١٦) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٢
(١٧) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٢٤ ٠
(١٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٣١
(١٩) سبط بن الجوزى : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ورقة ٩٦
ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٧ ، ص ٦٤ ، ٦٥
ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ ٠

الفضل بن صالح (٢٠) ؛ ونشبت الحرب بين ابن الجراح والفاطميين، واستطاع بلتكين — قائد جيش مصر — ان ينزل هزيمة بابن الجراح الذى فر الى انطاكية سنة ٣٧٢ هـ ، مستجيرا بالامبراطور البيزنطى الذى زحفت جيوشه على الشام · ومن أنطاكية دخلت جيوشه حمص، ثم زحف الى طرابلس ، غير أنه عاد الى حمص فنهبها وأحرقها فى جمادى الأولى سنة ٣٧٢ هـ ، عندما امتنع أهلها عن دفع الأموال له (٢١) ·

على أن ابن الجراح عاد الى الشام والتمس الأمان من العزيز بالله فعفا عنه ، وما لبثت جيوش العزيز أن دخلت قنسرين وحمص مرة ثانية ، وأقامت الدعوة له بها فى ربيع الأول سنة٣٧٣ هـ (٢٢)·

وفى العام نفسه استطاع بكجور — والى دمشق — أن يحاصر حلب ، غير أن الروم أسرعوا لنجدة سعد الدولة — طبقا لسياستهم فى الدفاع عن الحمدانيين — وحاولوا تطويق عسكر الفاطميين ، مما اضطر بكجور الى فك حصاره لحلب ، بينما سار الروم ونزلت قواتهم حمص (٢٣) وبهذا وقف البيزنطيون حائلا أمام الفاطميين ولم يمكنوهم من افتتح حلب ، وعاد بكجور الى دمشق ليتولى امارتها ، الا أنه ما لبث أن عزل من الولاية لسوء سياسته ولغضب ابن كلس عليه لتنكيله بأتباعه ، مما دفعه الى أن يوعز الى العزيز بعزله · فرحل بكجور الى الرقة (على نهر الفرات) وأرسل الى سعد الدولة التماسا بأن يعيده الى ولاية حمص ، فلم يستجب لطلبه·(٢٤) ·

---

(٢٠) المناوى : المرجع السابق ، ص ١٩٤ ·

(٢١) المقريزى : المصدر السابق ، ص ٢٥١، ٢٥٦ ــ ٢٥٨ ·

— المناوى : المرجع السابق ، ص ١٩٤ ·

(٢٢) النويرى : المصدر السابق ، ج ٢٦ ، ورقة ٤٧ ، ٤٨ ·

(٢٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ·

(٢٤) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ٤٩ ·

وقد واصل العزيز بالله سياسته التى ترمى الى تدعيم مركز الفاطميين بالشام ، فجهز أسطولا حربيا للسيطرة على سواحلها ، وليقف فى وجه الروم ، الا أن حريقا شب فى الأسطول الفاطمى قبل اقلاعه ، فدمر معظم قطعه ، وعطل سير الحملة • هذا بينما وصلت الى مصر فى العام نفسه (٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ، رسل الامبراطور باسيل الثانى تحمل هدية الخليفة العزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين فأجابهم العزيز ، واشترط عدة شروط التزموا بها كلها ، وهى :

١ ـ أن يطلق البيزنطيون سراح جميع الأسرى المسلمين •

٢ ـ أن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة •

٣ ـ أن تعود العلاقات التجارية بين مصر وبيزنطة ، وأن يصدروا الى مصر كل ما تحتاج اليه من بضائع الروم •

٤ ـ أن تكون مدة هذه الهدنة سبع سنين (٢٥) •

وظل بكجور أثناء اقامته يواصل جهوده للاستيلاء على حلب من الحمدانيين ، ونجح فى استمالة مماليك سعد الدولة اليه ، كما أرسل الى العزيز ليحصل على تأييد الفاطميين له ، وأطمعه فى حلب ، وقال فى رسالته عن حلب « أنها دهليز العراق ، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها » (٢٦) •

وطلب امداده بالجند والمؤن ، فأمر العزيز واليه بطرابلس بمساعدة بكجور فى حصار حلب • ولما علم سعد الدولة بذلك ،

---

(٢٥) ابو المحاسن : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥١ـ١٥٢ •
(٢٦) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٤ •

استنجد بالامبراطور باسيل الثانى الذى امر واليه بأنطاكية بمعاونه سعد الدولة والتصدى للفاطميين ونشبت الحرب بين الطرفين (٢٧) ، فانهزم بكجور وسيق اسيرا الى سعد الدوله فضرب عنقه فى ثانى صفر سنة ٣٨١ هـ وصلبه ، ثم سار فاستولى على الرقة ونهبها (٢٨)، بعد أن أعطى الأمان لأولاد بكجور . بينما هـرب على بن الحسين المغربى كاتب بكجور واجتمع بالعزيز بالله فى القاهرة واقنعه بأهمية الاستيلاء على حلب كما هون عليه فتحها (٢٩) . فأرسل العزيز الى سعد الدولة يسأله أن يسير أولاد بكجور الى مصر وهدده بقوله له : « انك متى خالفتنا فى ذلك واحتججت فيه ، كنا الخصوم لك ، وجهزنا العسكر اليك ، فأهان سعد الدولة رسول العزيز وقال له : « قل لصاحبك انى سائر اليه » ، غير أن سعد الدولة توفى فى شهر رمضان سنة ٣٨١ هـ ، بعد أن عهد الى ولده أبى الفضائل وأوصى لؤلؤ الخادم به (٣٠) . هذا فى الوقت الذى سار منجوتكين قائد جيش الفاطميين صوب حلب ، فكتب أبو الفضائل الى باسيل امبراطور الروم ـ وكان اذ ذاك يقاتل البلغار ـ يحثه على نجدته ، كما بعث اليه بالهدايا والتحف ، فأمر باسيل واليه على أنطاكية أن يسارع الى نجدة أبى الفضائل . وعلى ضفاف نهر العاصى داهمت القوات الفاطمية الروم وأنزلت بهم هزيمة ساحقة سنة ٣٨١ هـ . فارتد الروم الى أنطاكية ، وواصل منجكوتين هجومه فنهب أنطاكية وقراها وأحرقها ، ثم عاد فحاصر حلب (٣١) . وبعد مـدة وجيزة ارتد منجوتكين الى دمشق بحجة نفاذ المؤن (٣٢) .

---

(٢٧) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، ص ٥٠ .
(٢٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .
(٢٩) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ٢٧٨ .
(٣٠) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .
(٣١) ———— : نفس المصدر ، ص ٤١ .
(٣٢) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ٢٧٨ .

استمرت العلاقات متوترة بين الفاطميين والبيزنطيين في أواخر عهد العزيز بالله ، وحدثت تحرشات بين القوات المتحاربة في البحر سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م وكانت الغلبة فيها لقوات العزيز ، كما فشل الروم في محاولتهم مهاجمة الاسكندرية بحرا ولتأمين سواحل مصر أمر العزيز بتدعيم الأسطول الفاطمي ليستطيع رد الهجمات البحرية البيزنطية المتكررة (٣٣) ٠

وعاد منجوتكين الى حصار حلب بعد أن زوده العزيز بالله الفاطمي بكل ما يلزمه ، ولما ضيق الخناق على حلب ، استنجد أبو الفضائل بالامبراطور باسيل الثاني ، وأرسل اليه يوضح الأخطار التي قد يتعرض لها اذا نجح الفاطميون في الاستيلاء على حلب ، وقال له : « متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية » (٣٤) ٠

وانزعج باسيل الثاني لهجوم الفاطميين على حلب ، وما أن رأى أن الخطر يتهدد بلاده ، حتى سار بقواته ـ من بلاد البلغار ـ الى الشام لنجدة الحمدانيين تنفيذا للمعاهدة التي سبق أن أبرمها معهم (٣٥) ، ولفك الحصار عن حلب التي كادت تقع في يد الفاطميين، ولحماية أنطاكية التي تعرضت لغارات الفاطميين (٣٦) ٠

وقد اضطر منجوتكين الى فك الحصار عن حلب والعودة الى دمشق عندما علم بزحف قوات باسيل نحو الشام ، تلك القوات التي نزلت حلب ، وواصلت تقدمها بقيادة الامبراطور ، واستولت

---

(٣٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ٠

ـ أبو المحاسن : المصدر السابق ، جـ ٤ ، ص ١٢١ ٠

(٣٤) بيبرس الدوادار : المصدر السابق ، جـ ٦ ، ورقة ٢٧٩ ٠

(٣٥) ـــــــ : نفس المصدر ، ونفس الصفحة ٠

(٣٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ ٠

على حصن شيزر ـ على مقربة من حماة ـ ثم حاصرت مدينة طرابلس، غير أنها فشلت في الاستيلاء عليها لاستبسال اهلها في الدفاع عنها (٣٧) • فانسحبت القوات البيزنطية الى انطرسوس ثم انطاكية ثم كر الامبراطور راجعا الى القسطنطينيه سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م(٣٨)، بعد أن بسط سلطان البيزنطيين على معظم ساحل الشام (٣٩) •

ولما تحرج موقف الفاطميين بالشام قرر العزيز بالله الخروج بنفسه على رأس قواته لاستعادة هيبة الفاطميين، وأمر باعداد حملة برية وأخرى بحرية لهذا الغرض، فبذل عيسى بن نسطورس جهودا كبيرة في اعداد الحملة غير أن حريقا مروعا شب في قطع الأسطول المصرى قبل اقلاعه من ميناء المقس فدمر معظمه في ربيع الثانى سنة٣٨٦ هـ (٤٠)• وثار عامة المسلمين بالقاهرة ومصر (الفسطاط) لهذا الحادث الجلل، واتهموا تجار الروم الواردين بالبضائع الى مصر (٤١)، كما اتهموا الاسارى الروم بتدبير مؤامرة لاحراقه (٤٢)، وعمت القاهرة موجة من الاضطرابات العنيفة، قتل فيها حوالى مائة من الروم، ونهب العامة الحى الذى يقيمون به، وكان على مقربة

---

(٣٧) ابن القلانسى : المصدر السابق، ص ٤٣، ٤٤ •

(٣٨) بيبرس الدوادار : المصدر السابق، جـ ٦، ورقة ٢٧٩ •

ـ أبو المحاسن : المصدر السابق، جـ ٤، ص ١٢١ •

(٣٩) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٤١ •

(٤٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ ١، ص ٢٩٠ •

(٤١) الانطاكى : المصدر السابق، ص ١٧٨ •

(٤٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ ١، ص ٢٩٠ •

من دار الصناعة · الا أن الخليفة العزيز بالله أمر عيسى بن نسطورس باتخاذ اجراءات أمن صارمة للقضاء على الفتنة ، فضرب بيد من حديد على أيدى مثيرى الشغب من العامة ، وقتل بعضهم ، كما سجن واعتقل الكثير منهم (٤٣) ·

وعلى الرغم من غضب عامة المسلمين لهذا الحادث ، فان اليهود ونصارى مصر لم يتعرضوا لأية أضرار ، بل ان العزيز بالله أمر برد ما أخذ من أموال الروم اليهم ، رغم اعترافاتهم بارتكابهم لحادث حرق الأسطول (٤٤) وليس لنا من تعليق على ذلك الا أنه عهد العزيز بالله الذى تميز بالتسامح التام والمطلق ···

وفى بداية عهد الحاكم بأمر الله لم يقم الفاطميون والبيزنطيون باتخاذ أية اجراءات استفزازية تسىء الى العلاقات فيما بينهما · وبد البيزنطيون هذه الفترة بشىء من التعقل ، اذ رفض الامبراطور باسيل الثانى مساعدة منجوتكين — الذى أعلن عصيانه على الفاطميين — فلقى منجوتكين هزيمة ساحقة قرب عسقلان فى جمادى الأولى سنة٣٨٧هـ، واضطر الى طلب الأمان ، ودخل مصر وخلع عليه (٤٥) ·

وبعد فترة من الاضطرابات بين المشارقة والمغاربة تولى برجوان الخادم الوساطة ، وعهد الى كاتبه فهد بن ابراهيم النصرانى بتصريف أمور الدولة والنيابة عنه ، فأصبح المنفذ الحقيقى لسياسة الدولة (٤٦) ·

---

(٤٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٩

(٤٤) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧٩ ·
— المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٩٠ ·

(٤٥) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٠–١٨١ ·

(٤٦) انظر الباب الأول ، ص

وخلال تلك الفترة من الاضطرابات فى مصر ، حدث أيضا أن ثار أهل دمشق على أبى تميم سليمان بن فلاح والى دمشق وطردوه منها ، بينما قام أهالى مدينة صور سنة ٣٨٧ ـ ٣٨٨ هـ /٩٩٧ ـ ٩٩٨ م بثورة على الادارة الفاطمية ، وقتلوا جماعة من المغاربة ، والتفوا حول رجل ملاح يعرف بعلاقة ، أعلن الثورة وتمرد على الفاطميين ، كما أعلن استقلال صور ، وضرب النقود باسمه ، ونقش عليها عبارة (عز بعد فاقة للأمير علاقة) (٤٧)، وأرسل الى الامبراطور باسيل الثانى يطلب مساعدته ، ويبدى استعداده لتسليم صور الى الروم ، ورأى الامبراطور باسيل أن ينتهز هذه الفرصة للقضاء على نفوذ الفاطميين بالشام ، فاستجاب لطلب علاقة وأرسل أسطولا حربيا بيزنطيا الى صور لتدعيم ثورة أهلها ضد الفاطميين ولما استفحل أمر الثورة أرسل برجوان أسطولا حربيا وجيشا كبيرا لاخماد الثورة فى كل من دمشق وصور ، وتدعيم النفوذ الفاطمى بهما (٤٨) . واستطاع الأسطول الفاطمى أن يلحق بالأسطول البيزنطى هزيمة ساحقة ، وأن يأسر عددا من سفنه ، كما استطاعت القوات الفاطمية أن تدخل صور ، وتحاصر علاقة فى أبراجها ، وتشدد الحصار عليه، وتضطره الى التسليم وطلب الأمان (٤٩) .

وهكذا سقطت مدينة صور فى يد القوات الفاطمية ، وأخذ علاقة أسيرا الى القاهرة فى جمادى الآخر سنة ٣٨٨ هـ ، ومعه

---

(٤٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨١ .
ـ ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(٤٨) ــــــــ : المصدر السابق ، ص ٥٠ .
(٤٩) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨١ .

مجموعـة من الأسرى ، حيث شهر بـه ، وصلب ، ثم قتـل هو وأصحابـه (٥٠) .

وإذا كانت القوات البيزنطية قد فشلت فى مساندة ثورة علاقة، فان الفاطميين قد أحكموا سيطرتهم على صور ، وواصلت جيوشهم زحفها نحو دمشق فدخلتها ، ومنها اتجهت الى أفامية ، حيث أنزلت بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة فى رجب سنة ٣٨٨ هـ ، وتعقبت فلول البيزنطيين حتى أبـواب أنطاكيـة ، وحاصرتها ، ثم ما لبثت القوات الفاطمية أن عادت الى دمشق (٥١) .

وعلى الرغم من انتصارات قوات الحاكم بأمر الله على القوات البيزنطية بالشام ،الا أن برجوان رأى أن يهادن الروم لكى يتفرغ لمعالجة الأحداث والاضطرابات الداخلية فى مصر ، وليوفر الظروف لاستقرار الأمور فى بلاد الشام . لهذا أرسل برجوان الى الامبراطور باسيل الثانى يعرض عليه عقد صلح واقرار هدنة بين البلدين ، كما أرسل الى الامبراطور هدايا سلك فيها سبيل التآلف والملاطفة (٥٢) ، وقد رحب الامبراطور بهذه الدعوة ، وأنفذ رسولين الى الحاكم لعقد الهدنة والاتفاق على شروط الصلح (٥٣) .

وبينما كانت المفاوضات على وشك أن تبدأ فى القاهرة رأى الامبراطور أن يرد على هزيمة قواته فى أفامية سنة٣٨٨هـ/٩٩٨م ، فخرج بنفسه على رأس قواته غازيا لبلاد الشام فى شوال من السنة

---

(٥٠) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٥١) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

(٥٢) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٣ .

(٥٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

التالية ، لوقف زحف القوات الفاطمية ، ولاحداث ضغط عسكرى وسياسى لتحسين موقف وفد بلاده فى المفاوضات ، فاستولت قوات الامبراطـــور على جسر الجـديد ، وشـــيزر وحصـــن أبى قبيس ومصياف (٥٤) ، ثم دخل حمص ، وسار بعدها الى بعلبك مما دفع جيش ابن الصمصامة أمام ضغط القوات البيزنطية الى أن يستنجد ببرجوان فى القاهرة وبولاة الشام ، فأرسلت اليـه قوات ضخمة انضمت الى قواته بدمشق (٥٥) ٠

وكادت مفاوضات القاهرة تنهار ويفشل مشروع الصلح لولا الفشل الذى منيت به قوات الامبراطور فى هجومهـا الجديد على الشام وبخاصة أمام طرابلس ، واضطراره للانسحاب فى المحرم سنة ٣٩٠ هـ (٥٦) ، فارتـد الامبراطور الى أنطاكيـة عن طريـق اللاذقية (٥٧) ، ومنها توجه بجيوشه نحو أرمينية (٥٨) ، ليواجه

---

(٥٤) جسر الجديد : قرب دمشق ، شيزر : قلعة قرب المعرة بينها وبين حماة حسن أبى قبيس : حصن مقابل لشيزر ، مصياف : حصين مشهور للاسماعيلية قرب طرابلس ٠ (المناوى ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ حاشية ١) ٠

(٥٥) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ ٠

ـ المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢١ ٠

(٥٦) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ ٠

ـ سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٢ ٠

ـ المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢١ ٠

(٥٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ ٠

(٥٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٢ ٠

الخطر البلغارى بينما آثر اقامة سلام على حدود بلاده الجنوبيه مع الفاطميين (٥٩) ٠

وبانسحاب باسيل الثانى من الشام تهيأ الجو مرة أخرى لاستئناف مفاوضات الصلح بين الطرفين ، ففى جماد الآخرة سنة ٣٩١ هـ / مارس ١٠٠٢ م استقبلت القاهرة السفير البيزنطى ـ المكلف بالمفاوضات مع الفاطميين ـ أحسن استقبال وسط مراسم احتفال رائعة يصفها المقريزى بقوله : « فحشدت له العساكر من سائر الأعمال ، ووقفوا صفين والحاكم واقف ليراهم ، وسار الرسول بين العساكر الى باب الفتوح ، ونزل ومشى الى القصر يقبل الأرض فى طول المسافة حتى وصل الى حضرة الحاكم ، وقد فرش ايوان القصر وعلق فيه تعاليق غريبة ، وعلقت بصدر الايوان العسجدة ، وهى ورقة مطعمة بفاخر الجوهر والنفيس من كل أصنافه ، فأضاء لها ما حوله ، ووقعت عليها الشمس فلم تطق الأبصار تأملها كلالا ، وقبل الأرض ، ودفع الكتب وعرض الهدية (٦٠) ٠

وانتدب الحاكم بأمر الله أريسطيس بطريرك بيت المقدس ـ وهو خال ست الملك أخت الحاكم من أم أخرى مسيحية ـ ليكون مندوبا للحكومة الفاطمية فى المفاوضات ، وأعطى البطريرك صلاحيات كاملة كمفاوض مصرى ، وقيل للسفير البيزنطى : « ما يقرره هذا البطريرك فان مولانا ممض ومرتض به » (٦١) ٠

ثم جمع بينهما وخلع على كل واحد منهما خلعا نفيسة ، وتوجه

---

(٥٩) عنان : الحاكم بأمر الله ، ص ١٧٨ ٠

(٦٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٣٩ ، ٤٠ ٠

(٦١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ ٠

السفيران البيزنطي والفاطمي الى القسطنطينية لاتمام المرحلة الأخيرة من المفاوضات « ولتقرير الهدنة وعقد المسالمه » ، وللتصديق على المعاهدة بعد عرضها على الامبراطور ، وقام أريسطيس بهذه المهمة ، وقد تم عقد معاهدة سلم وصداقة بين الدولتين فى سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م ، وكان من شروط الصلح أن يتمتع الروم فى جميع أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ، ويسمح لهم بتجديد كنائسهم(٦٢) ٠

وهكذا نجح أريسطيس بطريرك بيت المقدس فى اقرار الهدنة بين مصر وبيزنطة ، غير أنه توفى بعد أن أمضى أربع سنوات فى العاصمة البيزنطية (٦٣) ٠

لكن مجموعة المراسيم والسجلات الدينية والاجتماعية التى أصدرها الحاكم بأمر الله ـ والتى سبق الاشارة اليها ـ والتى ضيقت الخناق على أهل الذمة ومنهم المسيحيون ، حدت من الحرية الدينية لأهل الذمة بوجه عام والروم الملكانية بوجه خاص ، وكذلك سياسته ازاء الكنائس والأديرة وهدم الآلاف منها ، وخاصة كنيسة القيامة بالقدس ، أدت الى توتر العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين ، والى قطع الامبراطور باسيل الثانى لعلاقته بالدولة الفاطمية حينما وصلته أنباء هذه السياسة التى انتهجها الحاكم ازاء النصارى ٠ وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الحاكم متمسكا بالهدنة مع الامبراطور ،

---

(٦٢) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ ٠

ـ ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٣ ٠

ـ الخربوطلى : مصر العربية ، ص ٣٠٤ ٠

(٦٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ ٠

وأرسل اليه فى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م هدية قيمتها سبعة آلاف دينار (٦٤) . ثم ما لبث أن أرسل الحاكم بأمر الله سفارة الى القسطنطينية فى أوائل العام التالى برئاسه عبد الغنى بن سعيد ، ومعه هدية فخمة الى الامبراطور . وبعد نحو من عام وفى جماد الآخرة سنة ٤٠٥ هـ / أكتوبر سنة ١٠١٤ م عاد السفير الفاطمى ومعه سفير بيزنطى بهدية من الامبراطور كدليل على تدعيم علاقة حسن الجوار والصداقة بين الدولتين وقد استقبل السفير البيزنطى فى القاهرة استقبالا رائعا وسط مظاهر الفخامة والتكريم (٦٥) .

على أن الهدنة بين الدولتين ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى لخطر نقضها من جانب البيزنطيين ، حينما بلغ الامبراطور باسيل الثانى أن ملك الأنجازى ـ (لعل أصلهم من الهنفار أو البلغار أو الروس) ـ أرسل الى الحاكم بأمر الله يعرض عليه التحالف معه لشن حرب مزدوجة ضد الدولة البيزنطية وساءت العلاقات بين الدولتين ، لدرجة أن الامبراطور قطع العلاقة التجارية مع مصر والشام ، واستعد لمهاجمة الفاطميين ، لولا اختفاء الحاكم بأمر الله فى أواخر شوال سنة ٤١١ هـ / فبراير سنة ١٠٢١ م ، واعتلاء ابنه الظاهر لاعزاز دين الله عرش الخلافة ، واسراع ست الملك الى ارسال سفارة الى الامبراطور ، اختارت لرئاستها البطريرك نقفور ـ وهو من الملكانيين ـ بطريرك بيت المقدس ، للعمل على تخفيف حدة التوتر بين الدولتين ، وتوطيد أواصر الصداقة بين مصر وبيزنطة (٦٦) ،

---

(٦٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

(٦٥) المقريزى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٦٦) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

ـ ــــــــ : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٤٢ .

ـ سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٣ .

ولاطلاع الامبراطور على العديد من الاجراءات التى اتخذتها الدولة الفاطمية لرفع الحيف عن النصارى ، واطلاق الحرية الدينية لأهل الذمة ، والسماح للنصارى باعادة بناء وتجديد الكنائس وسائر البيع فى مصر والشام ، مع تجديد كنيسة القيامة بالقدس ، ورد ما أخذ من أمـوال المسيحيين وأوقـاف الكنائس ، كما كلفت ست الملك البطريرك بأن يطلب من الامبراطور عودة العلاقـات بين الدولتين ، واستئناف العلاقات التجارية بينهما ، ويبلغه أن المسيحيين من رعايا الدولة الفاطمية قد شملتهم الدولة برعايتها ويتمتعون بحمايتها ، وأن مصر لديها الرغبة فى اقامة علاقـات حسن جوار وصداقـة مع بيزنطـة (٦٧) ٠

وقابـل البطريرك نقفور الامبراطور بالقسطنطينية ، وكادت هذه السفارة تؤت ثمارهـا بسبب التفاهـم الذى تم بين نقفـور وافسطاثيوس بطريرك القسطنطينية الذى أشـاد بزميله سـفير الفاطميين ٠ وبينمـا كان نقفور يجرى المفاوضـات مع الحكومة البيزنطيـة فى القسطنطينية توفيت ست الملك ، وأخطر البطريرك نقفور بذلك ٠ فتوقفت المفاوضات ، لأن الأميرة الفاطمية كانت « أول من يهمها الأمر ، وأنها كانت التى تنتظر الجواب » (٦٨) ، وأنها قبل أى شىء كانت أول من شجع على القيام بهذه السفارة بحكم مسئوليتها عن ادارة الدولة فى تلك الفترة ٠ وعاد نقفور الى مصر دون أن يبرم عقدا أو يوقع على اتفاق (٦٩) ٠

---

(٦٧) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ٠

(٦٨) الانطاكى : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

(٦٩) ——— : نفس المصدر ونفس الصفحة ٠

وعندما تولى أبو القاسم الجرجرائى الوزارة فى مصر سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، واصل سياسة مهادنة الروم وتحسين العلاقات معهم حتى يتمكن من اعادة النظام والقضاء على الاضطرابات فى الشام (٧٠) ، ويذكر المقريزى أنه قد تم عقد هدنة بين الخليفة الظاهر والامبراطور قسطنطين الثامن فى هذا العام وبموجبها تم ما يلى :

١ ـ تفردت الخطبة للخليفة الظاهر ببلاد الروم ، وفتح جامع القسطنطينية للمسلمين هناك ، وزود الجامع بالحصر والقناديل، كما عين مؤذن مقيم به ٠

٢ ـ اذن الخليفة الظاهر فى فتح كنيسة القيامة ببيت المقدس ، وسمح للملوك النصارى بارسال الأموال وما يلزم من آلات وأثاث لاعادة كنيسة القيامة الى ما كانت عليه من فخامة وأبهة (٧١)٠

وكان لهذه الهدنة أثرها الطيب على أهل الذمة فى مصر وجميع أقاليم الدولة الفاطمية ، اذ أن كثيرا من النصارى الذين كانوا قد تظاهروا باعتناق الاسلام أيام الخليفة الحاكم بأمر الله قد ارتدوا الى دين النصرانية (٧٢) ، انطلاقا من مبدأ حرية العقائد الدينية لأهل الذمة وفى ظل علاقة طيبة بين الروم والفواطم ٠

لكن مدينة حلب ظلت دائما مصدر الصراع بين الدولتين ٠ فقد حاول البيزنطيون الاستيلاء عليها سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م ، وفشلت

---

(٧٠) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ ٠

(٧١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ ٠

(٧٢) ــــــ : نفس المصدر ، ونفس الصفحة

محاولتهم هذه لتمرد بعض قادة الجيش البيزنطى (٧٣) وفى سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م استطاع جيش بيزنطى الاستيلاء على أفامية من أملاك الفاطميين (٧٤) ، غير أن أنوشتكين التركى الذى اشتهر بالدزبرى قائد الجند الفاطمى استطاع استرجاع معظم البلاد الشامية الا مدينة حلب التى طلب حاكمها نصر بن صالح بن مرداس فى جمادى الأولى سنة ٤٢٢ هـ ، حماية الامبراطور البيزنطى رومانوس الثالث ، على أن يدفع اليه خمسمائة ألف درهم سنويا (٧٥) .

وعلى الرغم من استمرار حالة الحرب بين الدولتين وتوتر العلاقات بينهما ، فقد جرت مراسلات بين قائد الجيش الفاطمى فى دمشق ، وبين حاكم أنطاكية لعقد هدنة بين مصر وبيزنطة . وكادت المفاوضات التمهيدية تتوقف بينهما ، بسبب استيلاء والى انطاكية على حصن ينكسرائيل فى شهر رجب سنة ٤٢٣ هـ . وتعقد الموقف ، الا أن المفاوضات استمرت بين الطرفين واشترط الامبراطور البيزنطى - كما يذكر الانطاكى - ثلاثة شروط تكون أساسا لأية هدنة تعقد بين الدولتين وهى :

أولا : « أن يعمر الملك (الامبراطور رومانوس الثالث) كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ويجددها من ماله ، ويصير بطريركا على بيت المقدس وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب فى بلاد الظاهر » .

ثانيا : « أن لا يتعرض الظاهر لحلب ، ولا يروم هو ولا أحد من ذوى

---

(٧٣) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٧٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ .

(٧٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

طاعته لقتالها ولا التعرض لها بمكروه ، اذ هي بلد قد تقرر عليه اتاوة ويحمل اليه في كل سنة مال الهدنة » ·

ثالثا : « أن لا يساعد صاحب صقلية على محاربته للروم ، ولا لغيره من جميع من يروم الفساد في شيء من أعمالهم ، ولا ينجده ، ولا يقويه ، وهو أيضا يلزم له مثل ذلك الشرط » (٧٦) ·

وبهذا تكون هناك أسس قوية لقيام واستمرار علاقة صداقة وحسن جوار بين مصر وبيزنطة ، ولا تتعرض مستقبلا لما يفسدها (٧٧) ·

وبجانب هذه الشروط السابقة تناولت المفاوضات عدة نقاط على جانب كبير من الأهمية ومنها :

١ ـ عرض الامبراطور رومانوس الثالث على الخليفة الظاهر ، أن يطلق الامبراطور سراح الأسرى من بلاد الاسلام الذين في قبضة الروم ، في مقابل أن يسمح له باعادة بناء كنيسة القيامة بالقدس ·

٢ ـ التمس الامبراطور أن يصدر الخليفة الظاهر عفوا شاملا عن حسان بن الجراح ـ الذي كان قد خرج على طاعة الفاطميين ولجأ الى الروم ـ ، وأن يسمح له بالعودة الى بلده ورد اقطاعاته اليه ، شريطة أن يلتزم بحسن الطاعة والسياسة مع الفاطميين والا تعرض ابن الجراح لما يكره ·

---

(٧٦) الانطاكي : المصدر السابق ، ص ١٧٠ ·

(٧٧) ــــــ : نفس المصدر ، ص ٢٧١ ·

٢ ـ كما عرض رومانوس الثالث ايضا على الظاهر لاعزاز دين الله ان يدفع اليه حصن شيزر اذ هو من بين عمل المسلمين ، ويعطيه الظاهر لاعزاز دين الله حصن افاميه عوضا عنه · اذ هو قريب من بلاد الروم ومجاور لحصونهم ، ان رغب فى ذلك (٧٨) ·

فقبل الخليفة الظاهر ما شرطه رومانوس الثالث من بناء كنيسة القيامة على نفقته ، ومن تعيين بطريرك بمعرفة الامبراطور لبيت المقدس ، ومن تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجدا ، ويكون اطلاق الأسرى المسلمين فى بلاد الروم عوضا عن ذلك · كما قبل الظاهر ما اشترطه الامبراطور بعدم تقديم المساعدة والاعانة لأى عدو من أعداء الدولة البيزنطيه وبخاصة صقلية ، مع المعاملة بالمثل ، لكنه رفض الشرط الخاص بحلب · واحتج عليه بأنها ثغر جليل من ثغور المسلمين ، لا ينبغى أن يكون فى حوز الروم ، والتمس أن يهمل ذكرها بالجملة فيما تعقد عليه الهدنة (٧٩) ·

ولم ير قبول حسان بن الجراح والعفو عنه ، ولا رغب فى أخذ شيزر والتعويض عنها بأفامية (٨٠) ·

وكانت حلب هى الصخرة التى تحطمت عليها المفاوضات التى جرت بين الدولتين اذ « لم يذعن رومانوس الملك الى الرجوع عما اشترطه فى معنى حلب ، وجزم أنه لا يعقد الهدنة الا عليه ، وترددت

---

(٧٨) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٧١ ·
(٧٩) ـــــــ : المصدر السابق ، ص ٢٧١ ·
(٨٠) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة ·

المكاتبة بين الجهتين فى هذا المعنى فى ايامه » (٨١) • وتمسك كل طرف بموقفه من حلب • مما ادى الى ان رفض رومانوس الثالث عقد معاهدة سلام مع الخليفة الظاهر (٨٢) ، اذ يذكر الانطاكى ان أمر هذه المفاوضات لم يستقر الا بعد ثلاث سنين ونصف وفى عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (٨٣) •

ففى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م عقدت الهدنة بين الخليفة الظاهر وبين الامبراطور ميخائيل الرابع لمدة عشر سنين متوالية (٨٤) • ويظهر أن الهدف من هذه الهدنة هو ألا يتدخل البيزنطيون فى سبيل استيلاء الفاطميين على حلب ، وألا يثير الروم القلاقل ضد الحكم الفاطمى فى بلاد الشام ، أو يحرضوا أمراء الشام على الفاطميين هناك • وقد تحقق هذا الهدف ، عندما رفض الامبراطور البيزنطى مساعدة نصر بن صالح بن مرداس فى سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م فى نزاعه مع الفاطميين ، وطلب منه الدخول فى طاعة المستنصر ، فاضطر نصر الى استرضاء الفاطميين وكسب ودهم (٨٥) ، ولما وقع النزاع بين الدزيرى فى دمشق وبين نصر بن صالح بن مرداس مرة أخرى

---

(٨١) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧١ •

(٨٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ١٤٧ •

(٨٣) الانطاكى : المصدر السابق ، ص ١٧١ •

(٨٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ،وفى هذا يتفق المقريزى مع الانطاكى بالنسبة للمفاوضات التى سبق الاشارة اليها ، والتى لم يستقر الامر عليها الا فى عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (انظر الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٧١) •

(٨٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٦ •

فى سنة ٤٢٩ هـ/١٠٣٧ م وحمل الأول رأس الثانى الى دمشق ، ودخل حلب ، لم يتدخل الروم (٨٦) · ولهذا فان الجرجرائى وزير المستنصر بالله قابل ذلك بمحاولة استرضـــاء الروم ، وتحسين العلاقات معهم ، وعقد هدنة فى تلك السنة بين الخليفة المستنصر والامبراطور ميخائيل الرابع انعكس أثرها على أهل الذمة فى أنحاء الدولة الفاطمية اذ اتفق على أن يسمح للامبراطور البيزنطى باتمام اصلاح وتعمير كنيسة القيامة بالقدس مقابل أن يطلق الامبراطور سراح خمسة آلاف من أسرى المسلمين ، فاخلى الامبراطور سراح الأسرى ، وأرسل الى بيت المقدس من عمر كنيسة القيامة ، وأغدق كثيرا من الأموال فى اعادة تجديدها وتعميرها (٨٧) ، وهكذا شهدت الفترة فى أوائل عهد المستنصر بالله تحسنا فى العلاقات الفاطمية البيزنطيــة (٨٨) ·

لكن البيزنطيون نقضوا الهدنـة فى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م وشنت قواتهم الغارات على حلب وأفامية · وأوقعوا هزيمة بالقوات الفاطمية (٨٩) · غير أن الدزبرى ما لبث أن ألحق بالبيزنطيين الهزيمة فيما بين حماة وأفامية وأسر كثيرا من قواتهـم ، وبينهم ابن عـم الامبراطور ، فاضطر الروم الى الالحاح فى طلب الهدنة ، وافتـداء ابن عم الامبراطور مقابل مبلغ كبير من المال وعدد لا بأس به من أسرى

(٨٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ·

(٨٧) العينى : المصدر السابق ، ج ١٩ ، ورقة ٨٤٨ ·

(٨٨) سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ١٦٩ ·

ـ ــــــ : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ ·

(٨٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ·

المسلمين وبعدها آثر الروم الهدوء مع الفاطميين (٩٠) . وبذل الامبراطور قسطنطين التاسع جهده في الحفاظ على استمرار العلاقات الودية بينه وبين القاهرة ، فأرسل في سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م هدية ثمينة للخليفة المستنصر ، قيمتها ثلاثون قنطارا من الذهب (٩١) ، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية (٩٢) ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومي منقوش ثقيل ، وخمسون بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بمينياء ــ أى مموهة بالمينياء ــ ، وفيها من الديباج والسندس والبرسيم والعمائم المعلمة ما يقدر على مثله ، فعرض عنها بمثلها ، واشتملت هدية مصر الى الامبراطور من الجوهر والمسك والعود والطراز ــ عمل تنيس ودمياط ــ ما هو أكثر قيمة مما بعثه (٩٣) .

وتدعيما لاستمرار العلاقات الودية بين الدولتين ، تجددت الهدنة بين مصر وبيزنطة سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، وتبادل الخليفة الفاطمي الهدايا مع الامبراطور البيزنطي حسبما جرت به العادة (٩٤)، والتزم الامبراطور بشروط ما عقد بين الدولتين من معاهدات سابقة، وللحيلولة دون تعكير صفو العلاقات السياسية بين الدولتين ،

---

(٩٠) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٢٩ .

ــ المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٩١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥

(٩٣) المقريزى : إتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٩٤ .

(٩٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ٤٦ .

وتعميقا لمزيد من العلاقات الودية بينهما ، فان الامبراطور البيزنطى سلم الى المستنصر بالله رسول المعز بن باديس ـ الذى خلع طاعة الفاطميين سنة ٤٤٣ هـ /١٠٥١ م ـ ، وكان فى طريق عودته من بغداد مارا ببلاد الروم ، بينما أرسل المستنصر بالله هدايا عظيمة الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، ورد الامبراطور بدوره على الخليفة المستنصر فى عهد وزارة اليازورى سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م مع رسول ورد من البحر (٩٥) .

وقد انعكست طبيعة العلاقات الطيبة بين الفاطميين والروم على المسيحيين فى أنحاء الدولة الفاطمية ، فيذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى « كتاب الذخائر والتحف » أن المستنصر بالله الفاطمى سير مع السفير البيزنطى سفنا من أسطول الشام لمرافقة وحراسة السفير من تنيس الى يافا ، حتى يستطيع أن يصلى فى كنيسة بيت المقدس ، ويوصل هدية أنفذها معه الامبراطور الى كنيسة القيامة ، « وكان فى جملتها بدنة من الذهب مرصعة بأنواع الجوهر النفيس الفاخر ، وصليبان من الذهب طول كل واحد منهما ثلاثة أذرع ونصف فى عرض مثلها ، ووزنهما قنطار مكللان بأنواع الياقوت والجوهر ، وصوانى كثيرة من الذهب مكللة أيضا بغرائب الجوهر ، وكاسان من الذهب ، ملىء كل منهما بعشرين رطلا خمرا بالبغدادى . وثريات عدة من الذهب بسلاسلها من الذهب ، فى أوساطها فراخ من البللور ، مكللة بالجوهر ، وستور طوال من الديباج الطميم المغرق بالذهب ، المكلل بالجوهر ، وأشباه ذلك من الآلات فى الكنائس » (٩٦) .

---

(٩٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢١٤ .

(٩٦) الرشيد بن الزبير : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

وانتهز المستنصر بالله الفاطمي فرصـــه صفاء العلاقات بين الدولتين للعمل على انعاش الوضع الاقتصادى في مصر ، فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بالبلاد ابتداء من عام ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م الى امبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه امداد مصر بالغـلال (٩٧) ، ولم يتردد الامبراطور قسطنطين التـاسع فى الموافقـة على ارسال ما طلبه المستنصر بالله من القمح ، غـير أنـه توفى فجأة فى سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، واشترطت الامبراطورية تيودورا التى تولت العرش من بعده عقد معاهدة دفاع مشترك ، تتعهد فيها مصر بمساعدة القسطنطينية ضد أى اعتـداء مقابـل حصول مصر على الغـلال من بيزنطة ٠ ورفض اليازورى الوزير الفاطمى حينئذ مطلب الامبراطورة ، فاضطرت بدورها الى الغاء صفقة القمح مع مصر ، ومنعت القضاعى رسول الفاطميين بالقسطنطينية من الخطبة باسم الخليفة الفاطمى فى جامـع القسطنطينية ٠ بينما صرحت لرسول العباسيين الذى كان موجودا بالعاصمة البيزنطية بالخطبة للقائم الخليفة العباسى ٠ ورد المستنصر بالله على ذلك بأن أرسل الى كنيسة القيامة بالقدس من أخذ ما فيها من تحف وذخائر وأثاث ، وأخرج البطريرك منها الى دار مفردة ، وأغلق أبواب الكنائس فى مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين ، كما زاد على النصارى فى الجزية (٩٨) ، ومنع دخـول الحجاج المسيحيين الى بيت المقدس (٩٩) ، وأدت كل هذه

---

(٩٧) العينى : المصدر السابق ، جـ ٢٠ ، ورقة ٩٧ ، ٩٨ ٠

(٩٨) ابن ميسر : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦ ـ ٧ ٠

ـ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

ـ ــــــــ : الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ٠

(٩٩) أسد رستم : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٧٨ ٠

الاجراءات الى تقييد الحرية الدينية للمسيحيين فى مصر والشام والى توتر العلاقات بين الدولتين ٠

وهكذا نقضت الهدنة ، وتأزم الموقف بين مصر وبيزنطة ، وبخاصة عندما علم المستنصر بالله باستعداد البيزنطيين لقتاله ، فأمر قائده مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم الكتامى بالسير الى اللاذقية فحاصرها ٠ وجرت محاولات من جانب البيزنطيين لتفادى الحرب ، لكنها باءت بالفشل أمام قوة حصار الفاطميين للاذقية التى ما لبثت أن وقعت فى أيديهم ، كما عانت القوات الفاطمية فى أعمال أنطاكية ، وواصلت توغلها فى بلاد الروم ٠ وبينما كانت الحرب مستمرة بين الدولتين ، كانت الرسل والمكاتبات تتردد بين الطرفين حتى تم الاتفاق على وقف القتال بينهما ، على أن يدفع مبلغ نيف وثلاثين ألف دينار الى مصر كجزية ٠ ولكن عندما علم الروم بمقتل البازورى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ردوا الجزية الى القسطنطينية قبل وصولها الى مصر ، بل زينت بلاد الروم ابتهاجا بموته ، كما تمكن الروم من هزيمة ابن ملهم وأسره مع بعض قواته (١٠٠) ٠

وبموت البازورى أخذت علاقة مصر بالشام ومن ثم علاقتها بالروم تضعف نتيجة لزحف السلاجقة على معظم البلاد الشامية ، وحلولهم محل الفاطميين (١٠١) ، وكان السلاجقة فى ذلك الوقت أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين أصبحوا يواجهون فى مصر العديد من المشاكل الداخلية والخارجية (١٠٢) ٠

---

(١٠١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ٠

(١٠٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ ٠

الفاطميون وبلاد النوبة

من الأمور الجديرة بالبحث موقف الفاطميين منذ عهد الخليفة المعز من بلاد النوبة ، فعندما غزا جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م كانت بلاد النوبة تتمتع بالاستقلال التام فى عهد ملكها المسيحى « جورج الثانى » ، وكانت المسيحية منتشرة فى تلك البلاد انتشارا كبيرا (١٠٣) ٠

وبعد مجىء الفاطميين الى مصر واستقرارهم بها لم يكن ملك النوبة قد اعترف بسلطان الفاطميين ، لذا رأى جوهر الصقلى أن يمد فتوحاته صوب الجنوب لبسط النفوذ الفاطمى فى النوبة ، ولنشر الاسلام بها على المذهب الشيعى (١٠٤) ٠

وقد بادر جوهر الصقلى بارسال وفد برئاسة عبد الله ابن أحمد ابن سليم الأسوانى ـ وهو من أهالى أسوان ـ الى جورج الثانى (جرجس) ملك النوبة ، محملا برسالة رقيقة العبارة ، يدعوه

---

(١٠٣) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ، ص ١٦٢ ٠

(١٠٤) مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، ص ١٣٢ ٠

فيها الى اعتنـــاق الاســـلام ودفع الجزية الســـنوية المعروفة بالبقط (١٠٥) ٠

وفى هذه الرسالة الى ملك النوبة أوضح جوهر قوة الجيوش الفاطمية المرابطة فى جنوب مصر ، وأنه يستطيع أن يعيش فى سلام وحسن جوار مع الفاطميين اذا قام بتنفيذ معاهدة البقط (١٠٦) ٠ وقد احتفى ملك النوبة بالوفد الفاطمى ، كما قوبل الوفد بالترحاب فى كل مكان زاره بمملكة النوبة (١٠٧) وقبل ملكها دفع الجزية الى الفاطميين ، ولكنه اعتذر عن الدخول فى الاسلام وقد قبل جوهر منه ذلك (١٠٨) ٠

وكانت علاقة النوبة بمصر فى عهد جوهر علاقة ودية ، فلم يقم ملك النوبة باثارة أية اضطرابات أو قلاقل ضد الحكم الفاطمى فى جنوب مصر ، كما اتســـم عصر الفاطميين فى مصر (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١ م) بقيام علاقات حسن الجوار والمسالمة مع النوبة ٠ وانعكس أثر هذه العلاقة على المسيحيين فى مصر والنوبة على حد سواء ، ففى عهد الخليفة العزيز بالله ، قبل الأنبا فيلوتاوس البطريرك الثالث والستين للكنيسة القبطية وساطة جورج الثانى ملك النوبة لاعادة العلاقات الدينية بين الكنيستين القبطية والحبشية بعد انقطاعها مدة (١٠٩) ، كما أنه رسم للحبشة مطرانا بعد أن

---

(١٠٥) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ٠

ـ بتشر : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣ ٠

(١٠٦) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١٣٢ ٠

(١٠٧) Lane-Poole : Op. Cit., p. 105.

(١٠٨) مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ ٠

(١٠٩) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، ج ٢ ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ ٠

امتنع خمسة بطاركة من أسلافه عن ترسيم مطران للحبشة لأسباب سوف نذكرها عند الكلام عن الحبشة (١١٠) .

واستمرارا لهذه العلاقات الطيبة بين النوبة والفاطميين ، حرص النوبيون على تنفيذ معاهدة البقط ففى سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م وصل البقط الى مصر من النبوية كالعادة مع فيل وزرافة (١١١) ، كما وصل البقط أيضا الى مصر بعد ذلك بسنتين (١١٢) .

وعندما ثار أبو ركوة على الخليفة الحاكم بأمر الله تصدى الخليفة لثورته ودارت بينهما عدة معارك ، كان آخرها عند الموضع المعروف « بالسبخة » أو « رأس البركة » على مقربة من مدينة الفيوم ، حيث لحقت الهزيمة بأبى ركوة الذى فر الى بلاد النوبة طلبا للنجاة بنفسه (١١٣) .

ويذكر البعض نقلا عن ابن الأثير أنه كان هناك اتفاق بين أبى ركوة وجورج الثانى ملك الحبشة على أن يمده بقوات لمساعدته فى القتال ضد أعدائه ، وكان ملك النوبة قد أرسل بعض قوات له انضمت لقوات أبى ركوة واشتركت فى المعركة قبل الأخيرة التى دارت عند الجيزة ، غير أن ملك النوبة لم يرسل له قوات أخرى بعد هذه المعركة ، ولما حلت الهزيمة بأبى ركوة وانفض عنه أتباعه ، هرب

---

(١١٠) سميكة : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

(١١١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

(١١٢) ——— : نفس المصدر ، جـ ١ ، ص ٢٨٥ .

(١١٣) القوصى : بنو الكنز ـ دراسة تاريخية ـ رسالة ماجستير من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٠ .

الى بلاد النوبة (١١٤) ، فأرسل الفضل ابن عبد الله قائد الجيش الفاطمى رســـالة الى ملكها فى طلبه ، لكن ملك النوبة قد توفى (٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م) (١١٥) ، واستطاع ابنه المسمى روفائيل أن يتدارك الأمر بسرعة ، فقبض على أبى ركوة وسلمه الى القاهرة لاعدامه (١١٦) ، وذلك حتى لا تنكشف علاقة أبيه بأبى ركوة ، وحتى لا تسوء العلاقة بينه وبين الحاكم بأمر الله (١١٧) . فضلا عن أن موقف روفائيل هذا ، هو تنفيذ لمعاهدة البقط التى نصت على تسليم الهاربين الى النوبة (١١٨) .

ولقد كانت المراسيم التى أصدرها الحاكم بأمر الله ضد أهل الذمة فى مصر سببا فى هجرة الكثيرين منهم الى النوبة ، وبخاصة بعد أن سمح لهم بذلك ، فاتجه الكثير منهم الى أقصى الصعيد ، وواصل بعضهم السير جنوبا حتى وصلوا الى النوبة واستقروا بهـــا (١١٩) .

ومن الجدير بالذكر أن مستقبل الكنيسة النوبية قد تحدد بطبيعة العلاقات بين الكنيســـتين المصرية والنوبية ، غير أن هذه

---

(١١٤) ـــــــ : المرجع السابق ، ص ٥٠-٥١ :
(١١٥) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(١١٦) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .
(١١٧) القوصى : المرجع السابق ، ص ٥١ .
(١١٨) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٦١ .
(١١٩) زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ، ص ٦٤ .

العلاقات لم تلبث أن خضعت لعوامل سياسية ، فتأثر مركز الكنيسة النوبية تبعا لسياسة الخلفاء الفاطميين فى مصر ازاء أهل الذمة : فقد اشتملت القوانين الصارمة التى أصدرها الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ /١٠٠٩ م ضد أهل الذمة على أوامره بمنع سفر الأساقفة المصريين الى النوبة والحبشة ـ كما منع ارسال خطابات بطريرك الكنيسة المرقسية السنوية الى كنيستى النوبة والحبشة لعدة أعوام ، وقد ترتب على ذلك أن أغلقت تلك الكنائس أبوابها (١٢٠) ، بل اننا نجد ملك النوبة يتراسل مع ملك الحبشة بشأن قبط مصر (١٢١) .

وعلى الرغم من مبالغة بعض المصادر فى عدد ما هدمه الحاكم بأمر الله من أديرة وكنائس فى مصر وبخاصة كنائس وأديرة الروم الملكانية الا أن الكثير من الكنائس والأديرة فى مصر لم تهدم خوفا على مساجد المسلمين فى البلاد المسيحية لاسيما فى النوبة والحبشة اللذين كان بهما عدد كبير ممن يعتنقون الاسلام (١٢٢) . واذا كان الفاطميون قد أرسلوا بعض الحملات التأديبية الى بلاد النوبة عندما كان ملوكها ينقضون الهدنة ان يسيئون للمسلمين هناك أو يهاجمون أسوان ، فان الفاطميين حرصوا على صفاء علاقاتهم بالنوبة حرصا على حياة المسلمين بها ، وقد تبودلت الهدايا بين البلدين وبخاصة فى عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله . ففى ربيع الأول سنة

---

(١٢٠) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .
ـ مصطفى سعد : المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
(١٢١) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، ص ٢٣٦ .
(١٢٢) ــــــ : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ .

٤١٥ هـ ، وصلت الى مصر هدايا من بلاد النوبة فيها عبيد واماء وخشب أبنوس وزرافات (١٢٣) ٠

وفي خلافة المستنصر بالله أرسل ملك النوبة الى الأنبا خريستوذولس ـ البطريرك السادس والستين للكنيسة القبطية ـ يرجو منه رسامة أسقف للكنيسة النوبية ـ التي توفي أسقفها ـ ، وحرصا على الصلات الطيبة بين الكنيسة المصرية وأهل النوبة بادر البطريرك باختيار راهب ممتاز ورسمه أسقفا وأرسله الى النوبة على وجه السرعة (١٢٤) ، كما أرسل البطريرك في سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠م اثنين من أساقفة الكنيسة المصرية الى ملك النوبة المسمى سلمون لتدشين كنيسة شيدها الملك في بلاده ٠ وقد أحسن ملك النوبة استقبال المبعوثين ، وبعد انتهاء مهمتهما أرسل معهما مالا أوصلاه الى البطريرك (١٢٥) ٠

وعندما تولى اليازوري الوزارة ـ في عهد المستنصر بالله ـ أرسل في سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م حملة الى بلاد النوبة ، وفرض عليهم مضاعفة البقط وهو ما استقر عليه الأمر (١٢٦) ، على الرغم من أن المقريزي لم يذكر الأسباب التي أدت الى ارسال هذه الحملة (١٢٧) ، وقد يكون في حادث الاعتداء على البطريرك

---

(١٢٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ١٤٣ ٠

(١٢٤) اريس حبيب : قصة الكنيسة القبطية ـ الجزء الثالث ، ص ٨٩ ٠

(١٢٥) سميكة : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ ٠

ـ البراوي : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ٠

(١٢٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ٠

(١٢٧) المناوي : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ٠

خرستوذولس ما يشير الى أسباب هذه الحملة ، ذلك أن بعض المصادر تذكر أن اليازورى قبض على البطريرك المذكور وسجنه وصادر أمواله واضطهد النصـــارى بسبب ما ترامى اليه من أن البطريرك يحرض ملك النوبة على عـــدم دفع التزاماته للخليفة . ويشجعه على قطع العلاقات التجارية مع المسلمين ، وعدم ارسال الجزية السنوية كل عام (١٢٨) . وان كانت بعض المصادر تذكر أن البطريرك أرسل الى ملك النوبة ـ الذى امتنع عن ارسال الجزية الى مصر ـ يوصيه بتنفيذ معاهدة البقط ، حرصا على العلاقات الطيبة بين البلدين ، وتدعيما لمركز البطريرك والأقباط فى مصر ، وحفاظا على الصلات القوية بين الكنيستين المصرية والنوبية (١٢٩) .

وفى وزارة بدر الجمالى كانت العلاقات طيبة بين مصر والنوبة، فعندما ثار الزعيم العربى كنز الدولة محمد فى أسوان ولجأ الى بلاد النوبة ، بادر بدر الجمالى بارسال الشريف سيف الدولة ومعه الأسقف « مرقوره » Mercure الذى يعرف بالوعواع ، والذى كان يحمل رسالة توصية من البطريرك القبطى الى ملك النوبة ، يطلبان منه باسم الخليفة تسليم كنز الدولة الى السلطات المصرية فما كان من ملك النوبة الا أن استجاب ـ لاعتبارات سياسية ودينية ـ لهذا الطلب وسلمهما كنز الدولة سنة ٤٧٤ هـ تقريبا ، حيث اعدم بالقاهرة ، بل ان اثنين من أخوة كنز الدولة محمد ، طلبا من ملك

---

(١٢٨) بتشر : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٤٧ .

ـ مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(١٢٩) اريس حبيب : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٨٩ .

النوبة سالمون أن يتوسط لهما عند بدر الجمالى فى الصفح عنهما ، وتقديرا لموقف ملك النوبة الطيب مع بدر الجمالى قبل بدر الجمالى وساطته وعفا عن بنى كنز (١٣٠) ٠

وفى وزارة بدر الجمالى حدث أيضا أن وشى أحد الوشاة الى بدر الجمالى أن ملك النوبة ـ بايعاز من البطريرك خرستوذولس ـ قد هدم جميع مساجد المسلمين هناك ، فما كان من بدر الجمالى الا أن أرسل مبعوثا ليتحقق من صحة النبأ ، وبعد حين عاد الرسول وقد اتضح أن الأمر أكذوبة (١٣١) ، فحكم على صاحبها بالاعدام وبرىء البطريرك ٠ وأغلب الظن أن ملك النوبة قد استخدم نفوذه فى قصر الخلافة فجاء التحقيق فى صالح البطريرك (١٣٢) ٠

وكثيرا ما كان النوبيون يلجأون الى السلطات المصرية كلما حدث خلاف بينهم وبين بطاركة الكنيسة المرقسية بمصر ، كما حدث عندما أرسل الملك باسيل (١٠٨٩ م) وفدا يضم ابنه الى بدر الجمالى ، يلتمس منه وساطته ومساعدته لتعين الكنيسة المصرية هذا الابن رئيسا دينيا للنوبة (١٣٣) ٠

كما حرص بدر الجمالى على استمرار علاقته الطيبة ببلاد النوبة ٠ فعندما علم أن والى قوص قبض على ملك النوبة ـ أثناء

---

(١٣٠) عطية القوصى : المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ ٠

(١٣١) البراوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ٠

(١٣٢) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ٩٩ ٠

(١٣٣) البراوى المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ٠

ـ المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ٠

زيارته لكنيسة أسوان ـ أمر بارساله الى القاهرة معززا مكرما حيث أنعم عليه بالهدايا القيمة ، وقد أدركت الوفاة ملك النوبة وهو فى مصر قبل أن يعود الى بلاده (١٣٤) .

وكان للكنيسة المصرية الهيمنة على الكنيسة النوبية ، اذ تقلد رجال مصر من مبعوثى الكنيسة المصرية قمة وظائف الجهاز الكنسى فى مملكة النوبة وكانت الكنيسة النوبية من أهم مصادر تمويل الكنيسة المصرية وبطاركتها ، وبخاصة ابان الأزمات المالية التى كانوا يتعرضون لها لسبب أو لآخر (١٣٥) .

وهكذا يتضح لنا أن العلاقة بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة النوبة كانت تخضع لعوامل سياسية ، وأن مركز الكنيسة النوبية كان يتأثر تبعا للتدخل من جانب السلطان الحاكمة فى مصر (١٣٦) . كما استغلت السلطات المصرية مركز ونفوذ بطريرك الكنيسة المصرية فى بلاد النوبة فى الوصـــية لدى ملوك النوبة بالمســـلمين فى بلادهـــم (١٣٧) .

---

(١٣٤) المناوى : المرجع السابق ، ص ٢٣٦

(١٣٥) مصطفى مسعد : المرجع السابق ، ص ١٠٠

(١٣٦) ـــــــ : نفس المصدر ونفس الصفحة .

(١٣٧) ابو صالح الارمنى : المصدر السابق ، ص ١٢٤

الفاطميــون والحبشـــة

أما عن علاقة الدولة الفاطمية بالحبشـــة فهى من الأهميـة بمكان ، ذلك أن الحبشة كانت لها علاقات وروابط قوية مع مصر وبخاصة تلك الصلات الدينية الوثيقة بين الكنيسة المصرية وأهالى الحبشة ، الذين كانوا يدينون بالنصرانيـــة ، ويعتنقون مذهب اليعقوبية (١٣٨) ، كما كان على رأس الكنيسة الحبشية أسقف مصرى يعينه البطريرك القبطي بناء على طلب ملك الحبشة وكان الأسقف يقوم بدوره برســـم القسس والشمامســـة من أهـل البـلاد (١٣٩) ٠

وعندما جاء الفاطميون الى مصر كانت العلاقات الدينية بين الكنيسة القبطية والحبشة مقطوعة منذ مدة طويلة ، فلم يعــد البطاركة والأقباط يرسلون الأساقفة اليها ، ذلك أن الملكة جوديت التى تولت عرش الحبشة لمدة أربعين عاما (٩٤٠ ـ ٩٨٠ م) ،

---

(١٣٨) المقريزى : الالمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٣ ٠
ـ زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية فى افريقيا ، ص ١٦٨ ٠

(١٣٩) أبو صالح الارمنى : المرجع السابق ، ص ١٣٢ ، ٣٤.
ـ زاهر رياض : كنيسة الإسكندرية فى افريقيا ، ص ١٦٨٠

والتى تروى الأساطير أنها كانت يهودية الديانة ، كانت قد قطعت علاقتها الدينية بمصر ، رغبة منها فى نشر ديانتها فى مملكتها ، فخربت الكنائس ونهبتها ، واضطهدت رجـــال الدين المسيحى وقتلت كثيرا منهم ، واستعانت ببعض القبائل الموالية لها لاراقة مزيد من دماء المسيحيين هناك • كمـــا أمعنت فى هدم الأديرة ونهب محتوياتها ، واتلاف الكتب الدينية بها وحرقها ، والقضاء على رجال الدين المسيحى والرهبان (١٤٠) • على أنه بوفاتهـــا عمل خليفتها المسمى تكلاهيمانوت (٩٨٠ – ٩٩٥ م / ٣٧٠ ـ ٩٨٥ هـ) على اعادة الحال الى ما كان عليه ، واحيـــاء وحمـاية الديانة المسيحية فى بلاده ، فرد الى الكنائس والأديرة حريتهـا وما أخذ منها (١٤١) ، وأرسل الى جورج الثانى ملك النوبة ـ الذى كانت علاقته حسنة بالخليفة الفاطمى العزيز بالله آنذاك ـ رسالة يصف له فيها الدمار الذى لحق بالحبشة ، وأن ما أصابهم كان عقابا لهم على مسلك أسلافه مع الأنبا بطرس أسقف كنيستهم الذى رسمه لهم الأنبا قزمان الثالث (البطريرك الثامن والخمسون) ، ثم طلب تكلاهيمانوت من ملك النوبة أن يتوسط لدى البطريرك فيلوتاوس (٩٧٠ ـ ٩٩٥ م / ٣٦٠ ـ ٣٨٥ هـ) لاعادة العلاقات الدينية بين الكنيسة المصرية والحبشـــــة (١٤٢) ، وقال له فى رسالتـــه : « استعطف لنا الأب البطريرك ليرسم لنا أســـقفا رأفة بنا ، حتى لا تتلاشى المسيحية من بلادنا ، اذ لنا الآن ما يربو

---

(١٤٠) ــــــ : تاريخ اثيوبيا ، ص ٦٣ •

(١٤١) زاهر رياض : المرجع السابق ، ص ٦٤ •

(١٤٢) ــــــ : نفس المرجع ، ونفس الصفحة •

ـ سعيكة : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ •

على ستين سنة هائمين بلا راع ، فقد رفض خمسة من الباباوات الاسكندريين المتعاقبين على السدة المرقسية أن يرسموا لنا أسقفا ، وأدى حرماننا هذا الى نقص متزايد فى عدد الكهنة ، لأنه لايوجد بيننا من يملك سلطان رسامة كهنة جدد عند نياحة أى كاهن فكانت النتيجة وبالا علينا ، وتدهورت حياتنا الروحية » (١٤٣) .

وما أن وصلت رسالة جورج الثانى ، حتى بادر باستخدام نفوذه فى قصر الخليفة العزيز بالله ، وعلاقته الطيبة بالكنيسة المصرية ، لاعادة العلاقات الطبيعية بين الكنيسة الأم وكنيسة الحبشة ، فقبل البطريرك وساطة ملك النوبة ، ورسم راهبا من دير أبى مقار اسمه دانيال ، وأرسله أسقفا لكنيسة الحبشة ، حيث استقبله أهلها استقبالا حماسيا فى سرور بالغ (١٤٤) .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله انقطعت العلاقات مرة أخرى بين الكنيسة المصرية والحبشة ، ذلك أن الحاكم بأمر الله فى فترة تشدده فى سياسته ازاء أهل الذمة ، منع سفر الأساقفة المصريين الى الحبشة ، كما منع الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين من مكاتبة ملوك النوبة والحبشة كما جرت به العادة سنويا ، مما أدى الى أن أغلقت كثير من كنائس الحبشة أبوابها بل أن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما سلك مسلكا متشددا مع نصارى مصر وفرض عليهم قيودا اجتماعية ودينية صارمة ، جعل الكثيرين منهم يهاجرون الى النوبة جنوبا ، وأمعن بعضهم فى السير قاصدا الحبشة ، وكان يحكمها فى ذلك الوقت أحد ملوكها المسمى « لا ليبالا » ، الذى اتخذ لنفسه حين اعتلى العرش اسم

---

(١٤٣) اريس حبيب : المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٩

(١٤٤) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، جـ ٢ ، ص ١١٤ .

« جبراما سقال » (ومعناها : خادم الصليب) ، وعــرف عنــه اهتمامه برجال الدين المسيحى ، وتعمير الكنائس والأديرة ، فأحبه الأحباش ، ورفعوه بعد موته الى مرتبة القديسـين · وفى تلك الأحوال الطيبة التى سادت بلاد الحبشة ، كانت هجرة كثير من أقباط مصر وخاصة عندما سمح لهم الحاكم بأمر الله بذلك ، وكان بينهم عدد كبير من الصناع ، والعمال المهرة ، الذين استعان بهم « لا لبيالا » فى اقامة كثير من المبانى والمنشآت وبخاصة الكنائس التى ما زال بعضها يشهد ببراعة الفنان والصانع المصرى · كما كان من الطبيعى أن يتصاهر هؤلاء القبط مع الأحباش فتزوجوا منهم ، واختلطوا بالوطن من أهل البلاد (١٤٥) ، ونقلوا اليهم كثيرا من العادات والتقاليد المصرية (١٤٦) ·

على أنه يجدر بنا أن نشير الى أن الحاكم بأمر الله ، عندما خفف من غلواء سياسته وسمح لأقباط مصر بالهجرة الى بلاد الروم والنوبة والحبشة ، وأبقى على كثير من الكنائس والأديرة القبطية دون هدم فانه ولا شك قد اتخذ هذا الموقف خوفا على المساجد التى فى بلاد النصارى لاسيما فى الحبشة التى كان بها عدد كبير من المسلمين (١٤٧) الذين يدفعون الجزية لملكها ، ويعيشـون تحت سلطانه (١٤٨) ·

(١٤٥) زاهر رياض : تاريخ أثيوبيا ، ص ٦٤ ·

(١٤٦) عن هذه العادات والتقاليد التى نقلها اقباط مصر الى الحبشة ، راجع رياض : تاريخ أثيوبيا ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ·

(١٤٧) ماجد : الحاكم بأمر الله ، ص ١٠٠ ·

(١٤٨) أبو صالح الأرمنى : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ·

بل ان السلطات الحاكمة فى مصر كانت تطلب من البطريرك مكاتبة ملك الحبشة بما يتمتع به النصارى فى مصر من حرية فى ممارسة حياتهم وشعائرهم فى ظل سياسة التسامح الدينى التى سار عليها الخلفاء الفاطميون ، كما يطلبون منه أن يوصى الملك الحبشى بأن يشمل بعطفه المسلمين الذين تحت رعايته (١٤٩) ٠

---

(١٤٩) ـــــــ : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ٠

الملاحق

ملحق رقم ١

سجل للحاكم بامر الله

لرهبان دير القصير (١)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي على ، الامام الحاكم بامر الله أمير المؤمنين ، لسليمان بن ابراهيم الراهب ، بما رآه من انعامه عليه ، واسعافه بما رغب اليه من الاذن له فى اعادة عمارة الدير المعروف بالقصير بطرا من جبل فسطاط مصر الى ما كان عليه قبل هدمه ، وتمكين الرهبان سكناه والمقام فيه على عادتهم ، والجرى على ما سلف من عبادتهم وصلواتهم واقامة سنة ديانتهم ، والفسح فى اجتماع من يطرقه من أهل ملتهم ، وازالة الاعتراضات عنهم ، ومنع الأذى والتسلط عليهم ، وكف التبسط والحيف لهم ، ورد الأوقاف والأملاك التى كانت محبسة عليه ، ومنسوبة اليه ، من ضيعة ، ومزرعة ، ومنية ، وأرض ، وحصة ، ودار ، وقيسارية ، وحمام ، وعرصة ، وحانوت ، وفاخورة ، ونخيل ،

---

(١) نقلا عن الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

وبستان ، وشجرة مثمرة ، وجنان بمصر وأعمالها من جميع بلاد المملكة أقطارها وأطرافها ، وتسليم ذلك الى هذا الراهب ، ليتولى جداه ويحوز نفعه وجناه ، ويصرفه فى مصالح هذا الدير والمقيمين فيه والقاصدين اليه ، ويبسط يده فى تدبيره ومن يسببه فى حمعه وصيانته حقوق بيت مال المسلمين منه ، ويطهـره من درنه ،

والوزر عنه ، والمسامحة بما يجب على ذلك من خراج ، وعشر وغرم، ورسم فى سائر دواوين الحضرة المحلولة والمحبسة ، وازالة التأول عنه والاضرار بسببه ، والتتبيع له فى هذا الوقت ، وما يأتى بعده من الأوقاف على استقبال تاريخ هذا السجل ، وفاء بالذمة ، وجزاء على مناصحتهم ومضامنتهم الملة ، لا يغيره كرحين ، ولا يحيلة مر الأحقاب والسنين ، فمن قرأه أو قرىء عليه من الأولياء والولاة ، ومتولى الدواوين ، والضمناء ، والمتصرفين فى الأعمال والأحوال ، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبحسبه ، وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وليقرأ هذا المنشور فى يد متخذه حجـة له بمضمونه ويثبت بحيث مثله ان شاء الله » .

ملحق رقم ٢

سجل للحاكم بأمر الله
الى نقفور بطريرك بيت المقدس (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ٠

أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لنقفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من اجابة رغبته واطلاق بغيته من صيانته وحياطته والذب عنه ، وعن أهل الذمة من نحلته ، وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم فى افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصلى منهم فى عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقته فى دينه وعقيدته واقامة ما يلزمه فى حدود ديانته وحفظ المواضع الباقية فى قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم ولد ، وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية اليها والمنع من نقض المصلبات بها والاعتراض لاحباسها المطلقة لها ومن هدم جدرانها وسائر أبنيتها احسانا من أمير المؤمنين اليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظا لذمة الاسلام فيهم ، فمن قرأه أو قرىء عليه من الأولياء ، والولاة ، ومتولى هذه

(٢) نقلا عن الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ ٠

النواحي وكافة الحماة ، وسائر المتصرفين في الأعمال ، والمستخدمين على سائر منازلهم ، وتفاوت درجاتهم ، واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه ، فليعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه ، ويعمل عليه وبحسبه ، وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه ، ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه ، وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه ، يستعين بها على نيل طلبتـــه وادراك بغيته ان شاء الله تعالى ٠

وكتب في جمادى الأخرى سنة احدى عشرة وأربعمائة ٠

ملحق رقم ٣

سجل للحاكم بأمر الله
لنصارى مصر (٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على ، الامام الحاكم بامــر الله أمير المؤمنين ، ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر ، عندما أنهوا اليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فأقلقهم ، واستذراءهم بظل الدولة ، وتحرمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوخيه لهم ذمة الاسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفوا عليهم ملابس السكون والدعة ، واجابتهم الى ما سألوا فيــه من كتب أمان لهم يخلد حكمــه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعا آمنــون بأمان الله عز وجــل ، وأمان نبيه محمد خــاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهــرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آبــاء أمير المؤمنين

(٣) نقلا عن الانطاكى : المصدر السابق ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

سلام الله عليهم ، هذا على نفوسكم ، ودمائكم ، وأولادكم ، وأموالكم وأحوالكم ، وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتـــا ، وعقدا صحيحا باقيا ، فتقوا به واسكنوا اليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفتـــه ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول اليكم بمضرة يـــد الا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم انكاره مضيقا فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح واصلاح لســكان أقطار مملكته ، ومد له وســـيلة الثواء فى كنف دولته ، واياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شـــهيدا وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم ، ان شاء الله .

وكتب فى شعبان سنة احدى عشرة وأربعمائة .

ملحق رقم ٤

سجل من الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله للرهبان القبط (٤)

« عماراتكم ولا تطالبوا بحشد فى حرب ولا بخروج واعزاز كل راهب يخرج منكم الى الضياع للتعيش فيها وقضاء حاجات من وزاه منكم وألا تلزموا عما يحمل النصارى من الميرة وما يجــرى مجراها مكسا ولا غرما قل أو جل وأن تحفظوا فيما لكم من زرع وغلة وعوامل فى سائر النواحى وألا يعترض ما يخلفه من يموت من رهبانكم خارجا عن دياراتكم فى حال ترده الى الريف وغيره للتصرف فى ماربكم من كل شيء يملكه ليكون جميعه عائدا على اخوته فى رهبانيته دون كل قريب له ونسيب غيرهم وان الامام المعز لدين الله والامام العزيز والامام الحاكم بأمر الله قد حفظ الله أرواحهم تقدموا بكتب سجلات بامضاء ذلك كله لكم وسألتم كتب سجل بتجديد ما كانت أمضته لكم الأئمة ، وتوكيد ما رعته لكافتكم من الحرمة وحفظ ما لكم من هذه الموات والأذمة فأمر أمير المؤمنين بكتب هذا السجل المنشــــور ، لحملكم على مقتضى النص المذكور ، وموجب الشرح

(٤) Stern : Patimid Derees. p. 15-17.

المسطور واقرار فى أيديهم حجة بذلك باقية على مر الأيام والدهور، حتى لا يعترضكم معترض بما يزيل هذا الانعام عن حده أو يتأول فيه تأول بما يصرفه عن وجهه وقصده ، والذب عنكم ·

فمن قرأه أو قرىء عليه من الأولياء والولاة ، والمتصرفين فى الأموال والجباة ، وسائر عبيد الدولة وخدمها على اختلاف طبقاتهم ، وتراجع درجاتهم ، فليعلمه من أمر أمير المؤمنين ورسمه وليعمل عليه وبحسبه ان شاء الله ، وكتب فى المحرم سنة خمس عشرة وأربع مائة ·

وصلى الله على جدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وآله الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما حسبنا الله ونعم الوكيل » ·

ملحق رقم ٥

رسالة ملك الحبشة الى جورج ملك النوبة للتدخل لاعادة العلاقات بين كنيسة الحبشة والكنيسة المرقسية (٥) من حياة البطريرك فيلاتاوس وهو العدد الثالث والستون

٩٧٠ ـ ٩٩٥ م

وفي أيامه (البطريرك فيلاتاوس) أنفذ ملك الحبشـــة الى ملك النوبة كتابا ، واسمه جرجس ، وعرفه ما أدبه الرب به هو وأهل كورته وهو ، أن امرأة ملكة على بني الهيبة ثارت عليه وعلى كورته وسبت منها خلق كثير وأحرقت مدن كثير وأخـــربت البيع وطردته من مكان الى مكان وأن الذى لحقه جزى (جزاء) عما كان الملك الذى قبله فعله مع المطران في أيام الأب أنبا قزما مما شرحناه أولا من تزويره وكذبه ، وقال له في الكتـــاب الذى أنفذه له : أحب أن تساعدني وتشاركني في الثعب منجل (من أجل) الله ومن أجل اتفاق الأمانة ، وتكتب كتاب من جهتك الى الأب البطرك

---

(٥) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية والمعروف بسير البيعة المقدسة المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، ص ١١٢\١١٤ .

ـ مصطفى سعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ٢٧٠ .

بمصر تسله أن يحللنا ويحلل بلادنا ويصلى علينا ليزيل الله عنا وعن أرضنا هذا البلاء وينعم لنا بأن يقسم لنا مطران كما جـرت عادة آبائنا ويدعى لنا بأن يزيل الله غضبه عنا . وذكرت لك أيها الأخ ذلك خوفا من أن ينقرض ويبطل دين النصرانية من عندنا لأن هو ذا ستة بطاركة قد جلسوا ولم يلتفتوا الى بلادنا بل هى سايبة بلا راعى ، وقد ماتوا أساقفتنا وكهنتنا ، وقد خربت البيع وعلمنا أنه بحكم حق نزل علينا هذا البلا عوضا مما فعلنـاه بالمطـران . فلما وصلت الكتب الى جرجس ملك النوبة ووقف عليها أنفذ من جهته كتبا ورسلا الى البطرك فيلاتاوس وشرح له فيها جميع ما ذكره ملك الحبشة وساله أن يترااف على شعبه فأجاب سواله ورسم لهم راهبا من دير أبو مقار اسمه دانيال وأنفذه لهم مطرانا فقبلوه بفرح وأزال الله عنهم الغصب وأبطل أمر الامراة التى قامت عليهم .

قائمة المصادر

(أ) المخطــوطات :

١ ـ ابن أيبك (توفى بعد ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م)

ـ « كنز الدرر وجامع الغرر » ، الجزء السادس ، بعنوان « الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٧٨ تاريخ .

٢ ـ بيبرس الدوادار (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م) :

ـ « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ، مخطوط بمكتبـــة جامعة القاهرة الجزء السادس برقم ٢٤٠٢٧ .

٣ ـ ابن ظافر (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م) :

ـ « أخبار الدول المنقطعة » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ .

٤ ـ سبط بن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م) :

ـ « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

٥ ـ أبي السرور البكري (ت ١٠٠٥ ـ ١٠٠٦ هـ / ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠ م) :

ـ « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٢ تاريخ ، بمكتبة مصطفى كامل باشا ٠

٦ ـ رسائل الحاكم بأمر الله ، كتبها دعاة الفاطميين ، ولا سيما حمزة بن علي وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٧ ، ٣٨ ، ١٣٣ عقائد ونحل ٠

٧ ـ العيني (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) :

ـ « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، برقم ١٥٨٤ تاريخ ، الجزء التاسع عشر ٠

٨ ـ القضاعي (ت ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م) :

ـ « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٧٧٩ تاريخ ٠

٩ ـ ميخائيل « الأنبا » (أسقف تنيس ـ عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) :

ـ « سير البيعة المقدسة » والمعروف » بذيل سير الأباء البطاركة » الجزء الثالث ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ٦٤٣٤ تاريخ ٠

١٠ ـ النويري (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

ـ « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، مخطوط بدار الكتب

المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ، الجزء السادس والعشرون ٠

(ب) المصادر العربية المطبوعة

١١ ــ الأبشيهي (ت ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م) :

ــ « المستطرف فى كل فن مستظرف » ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ، جزءان ٠

١٢ ــ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م) :

ــ « الكامـــل فى التاريخ » ، مصر ١٣٥٣ هـ ، الجزءان الثامن والتاسع ٠

١٣ ــ ابن أبى اصيبعة (ت ٦٦٧ هـ / ١٢٧٠ م) :

ــ « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، تحقيق د ٠ نزار رضـا ، بيروت ١٩٦٥ م ٠

١٤ ــ ابن أياس (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) :

ــ « تاريخ مصر » المعـــروف ب « بدائع الزهـور فى وقائع الدهور » بولاق ١٣١١ هـ ، الجزء الأول ٠

١٥ ــ التطيلى (بنيامين بن يونة التطيلى الأندلسى) :

ــ « رحلة بنيامين » (٥٦١ هـ / ــ ٥٦٩ هـ) ، ترجمـــة وتعليق عزرا حداد ، بغداد سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م ٠

١٦ ــ ابن الجوزى (أبو الفرج ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) :

ــ « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » ، حيـــدر أباد سـنة ١٣٥٧ ــ ١٣٥٨ هـ ، الأجزاء من ٥ ــ ١٠ ٠

١٧ ــ ابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

ـ « رحلة ابن جبير » ، تحقيق د · حسين نصار ، القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ·

١٨ ـ ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) :

ـ « رفع الأحد عن قضاة مصر » ، القسم الثانى ، تحقيق د · حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦١ م ·

١٩ ـ ابن حوقل (نبغ فى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) :

ـ « كتاب صورة الأرض » ، مطبعة دار الحياة ببيروت ·

٢٠ ـ ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ /١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م) :

ـ « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ الجزء الرابع ·

٢١ ـ ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١ م) :

ـ « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، ستة أجزاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ·

٢٢ ـ ابن دقماق (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ م) :

ـ « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، الجزءان الرابع والخامس ، بولاق ١٣٠٩ ـ ١٣١٠ هـ ·

٢٣ ـ ابن الراهب (رسم شماسا فى دير المعلقة بفسطاط مصر سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٢ م) :

ـ « تاريخ ابن الراهب » ، نشر لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٣ م ·

٢٤ ــ رشيد بن الزبير (عاش فى القرن الخامس الهجــرى / الحادى عشر الميلادى) :

ــ « الذخائر والتحف » تحقيق د · محمد حميــد الله ، الكويت ١٩٥٩ ·

٢٥ ــ ساويرس بن المقفع (اسقف الأشمونين) :

ــ « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » ، المجلد الثــانى ، الجزء الثانى تحقيق ، عبد المسيح ، وســوريال ، وبرمستمر ، طبعة مصر سنة ١٩٤٨ م ·

٢٦ ــ السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) :

ــ « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ·

٢٧ ــ أبو شجاع (ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) :

ــ « ذيل تجارب الأمم » ، صححه هـ · ف · أمدروز ، طبع بمصر سنة ١٣٣٤ هـ / ١٩١٦ م ·

٢٨ ــ الشيزرى (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) :

ــ « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، تحقيق السيد الباز العرينى القاهرة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ·

٢٩ ــ أبو صالح الأرمنى (٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م) :

ــ « تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى » المعروف بـ « كنائس وأديرة مصر » تحقيق وترجمــة Evetts طبعــة آكسفورد سنة ١٨٩٤ م

٣٠ ـ ابن ظهيرة (عاش فى القرن العاشر الهجرى) :

ـ « الفضائل الباهرة فى ملوك مصر والقـــاهرة » ، تحقيق مصطفى السقا ، كمامل المهندس ، القاهرة ١٩٦٩ م ٠

٣١ ـ العبرى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) :

ـ « تاريخ مختصر الدول » ، بيروت ١٨٩٠ م ٠

٣٢ ـ أبو عثمان النابلسى الصفدى (ت ٦٤١ هـ) :

ـ « تاريخ الفيوم وبلاده » ، القاهرة ١٨٩٨ م ٠

٣٣ ـ ابن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) :

ـ « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ، القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥٣ هـ الجزء الثالث ٠

٣٤ ـ ابن العميد (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م)

ـ « تاريخ المسلمين » ، ليدن ١٩٢٥ م

٣٥ ـ غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ) :

ـ « كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ، صححه بولس راويس ، بارس ١٨٩٣ م ٠

٣٦ ـ أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) :

ـ « المختصر فى أخبار البشر » ، المطبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ٠

٣٧ ـ ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٥٩ م) :

ـ « مسالك الأبصار فى أخبار ملوك الأمصار » ، الجزء الأول، تحقيق أحمد زكى باشا ، القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م ٠

٣٨ ـ ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ / ١٣٣١ م) :

ـ « ذيل تاريخ دمشق » ، بيروت ١٩٠٨ ٠ م

٣٩ ـ القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :

ـ « صبح الأعشى في صناعة الانشا » ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٧ م ٠

٤٠ ـ القفطى (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) :

ـ « تاريخ الحكماء » أو « اخبار العلماء بأخيار العلماء » ، ليبزج ١٩٠٣ م ٠

٤١ ـ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) :

ـ « البداية والنهاية في التاريخ » ، القاهرة ١٣٥٨ هـ ، الجزءان : الحادى عشر والثانى عشر ٠

٤٢ ـ كاتب مراكشى (من كتاب القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) :

ـ « كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار » ، تحقيق د ٠ سعد زغلول نصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ ٠

٤٣ ـ أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٩٦ م) :

ـ « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، الجزءان الرابع والخامس ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥١ ـ ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ م ٠

٤٤ ـ مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م) :

ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل « الجزء الأول »

٤٥ ـ المقدسى (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) :

ـ « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، ليدن ١٩٠٦ م ٠

٤٦ ـ المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) :

ـ « اتعـــاظ الحنفـاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفـاء ، الجزء الأول ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٦٧ م ، والجزء الثانى تحقيق د ٠ محمد حلمى محمد ، القاهرة ١٩٧١ م ٠

٤٧ ـ « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » ، جزءان ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ٠

٤٨ ـ « الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاســلام » ، طبع بمصر سنة ١٨٩٥ م ٠

٤٩ ـ ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) :

ـ « تاريخ مصر » ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩١٩ م ٠

٥٠ ـ ناصرى خسرو (زار مصر بين سنتى ٤٣٩ ـ ٤٤١ هـ) :

ـ « سفرنامة » ، ترجمة يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٤ م ٠

٥١ ـ ابن الوردى (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٥٨ م) :

ـ « تتمة المختصر فى أخبار البشر » ، جزءان ، طبع بالقاهرة ١٢٨٥ م ٠

٥٢ ـ ياقوت (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) :

ـ « معجم البلدان » ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩٠٦ م ٠

٥٣ ـ يحيى بن سعيد الأنطاكي (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) :

ـ « تاريخ » أو « صلة كتاب أوتيخا » المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٩ م ٠

(ج) المراجع الحديثة :

٥٤ ـ ايريس حبيب المصرى :

ـ « قصة الكنيسة القبطية » ، الجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٥ م ٠

٥٥ ـ أرنولد :

ـ « الدعوة الى الاسلام » ، ترجمة د ٠ حسن ابراهيم ، وعبد المجيد عابدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م ٠

٥٦ ـ أسد رستم :

ـ « الروم فى سياستهم وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب » فى جزئين ، بيروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ م ٠

٥٧ ـ بتشر (السيدة ٠ أ ٠ ل ٠) :

ـ « تاريخ الأمة القبطية وكنيستها » ، ٤ أجزاء ، طبع بالفجالة بمصر سنة ١٩٠٦ م ٠

٥٨ ـ بارتولد :

ـ « تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، نقله من التركية الى العربية حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٥٢ م ٠

٥٩ ـ البراوى (راشد ـ الدكتور) :

ـ « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين » ، القاهرة ١٩٤٨ م ٠

٦٠ ـ ترتـون (أ ٠ س ٠) :

ـ « أهل الذمة في الاسلام » ترجمة د ٠ حسن حبشى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ م ٠

٦١ ـ جـاك تاجـر :

ـ « أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى سنة ١٩٢٢ » ، القاهرة سنة ١٩٥١ م ٠

٦٢ ـ جروهمان (أدولف) :

ـ « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » ، ترجمـة د ٠ حسن ابراهيم وعبد الحميد حسن ، القاهرة ١٩٣٤ م ٠

٦٣ ـ حتى (فيليب ـ الدكتور) :

ـ « تاريـخ العرب » فى جزئين ، ترجمة ادوارد جرجى وجبرائيل جبور بيروت ١٩٦١ م ٠

٦٤ ـ حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :

ـ « تاريخ الاسـلام السياسى » الجزء الثالث ، الطبعة السـابعة ، القـاهرة ١٩٦٥ م ، والجزء الرابع ، الطبعة الثانية ١٩٥٨ م ٠

٦٥ ـ « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » القاهرة ١٩٣٢ م ٠

٦٦ ـ « تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وســـورية وبلاد العرب الطبعة الثانية ١٩٥٨ م ٠

٦٧ ـ **حسن ابراهيم وطه شرف :**

ـ « المعز لدين الله الفاطمى ، امام الشيعة الاسماعيليـــة ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر » ، القاهرة ١٩٤٨ م ٠

٦٨ ـ **حسن ابراهيم وآخـــرون :**

ـ « المجمل فى التاريخ المصرى) الطبعة الأولى ، القـــاهرة ١٩٤٢ م ٠

٦٩ ـ **خطـــاب عطية على :**

ـ « التعليم فى مصر في العصر الفاطمى الأول » ، القاهرة ١٩٤٧ م ٠

٧٠ ـ **ديمـــاند :**

« الفنون الاسلامية » ، ترجمة أحمد عيسى ٠

٧١ ـ **زاهر رياض (الدكتـــور) :**

ـ « تاريخ أثيوبيا » ، القاهرة ١٩٦٤ م ٠

٧٢ ـ « كنيسة الاســـكندرية فى افريقيـــا » الطبعـــة الأولى ، القاهرة ١٩٦٢ م ٠

٧٣ ـ **رؤوف حبيب :**

ـ « كنائس القاهرة القبطية القديمة » ، القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م ٠

٧٤ ــ زكى محمد حسن (الدكتور) :

ــ « الفن الاسلامى فى مصر » ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ م .

٧٥ ــ « كنوز الفاطميين » ، القاهرة ١٩٣٧ م .

٧٦ ــ « فنون الاسلام) ، القاهرة ١٩٤٨ م .

٧٧ ــ سرور (محمد جمال الدين ــ الدكتور) :

ــ « النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق فى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة » ، القاهرة ١٩٥٩ م .

٧٨ ــ « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٧٩ ــ « الدولة الفاطمية فى مصر » ، القاهرة ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ م .

٨٠ ــ « سياسة الفاطميين الخارجية » ، القاهرة ١٩٦٧ م .

٨١ ــ سيد أمير على :

ــ « مختصر تاريخ العرب » ، ترجمة عفيفى البعلبكى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦١ م .

٨٢ ــ سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :

ــ « مصر فى فجر الاسلام » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م .

٨٣ ــ « مصر فى عصر الاخشيديين » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ م .

٨٤ ـ حسن أحمد محمود (الدكتور) :

ـ « حضارة مصر الاسلامية ، العصر الطولونى » ، القاهرة ١٩٦٠ م ٠

٨٥ ـ حسن أحمد محمود وسيدة كاشف :

ـ « مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين » ، مجموعة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٠ م ٠

٨٦ ـ الشيال (جمال الدين ـ الدكتور) :

ـ « تاريخ مصر الاسلامية » الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ م٠

٨٧ ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح ـ الدكتور) :

ـ « المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك » ، القاهرة ١٩٦٢ م ٠

٨٨ ـ عبد اللطيف ابراهيم (الدكتور) :

ـ « فى مكتبة دير سـانت كاترين » ، مستخرج من « مجلة أم درمان الاسلامية » ـ العدد الأول ، سنة ١٩٦٨ م ٠

٨٩ ـ عبد الرحمن فهمى :

ـ « موسوعة النقود العربية وعلم النميات » ، الجزء الأول بعنوان « فجر السكة العربية » ، القاهرة ١٩٦٥ م ٠

٩٠ ـ عبد الرحمن زكى (الدكتور) :

ـ « القاهرة ٠ تاريخها وآثارها ، من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ » القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ٠

٩١ ــ علي ابراهيم حسن (الدكتور) :

ــ « تاريخ جوهر الصقلي » ، الطبعة الأولى ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م ٠

٩٢ ــ علي حسني الخربوطلي (الدكتور) :

ــ « مصر العربية الاسلامية ٠ السياسة والحضارة في مصر في العصر العربي الاسلامي ، منذ الفتح العربي الى الفتح العثماني » القاهرة ١٩٦٣ م ٠

٩٣ ــ « العرب واليهود في العصر الاسلامي » ، القاهرة ١٩٦٣ م ٠

٩٤ ــ عمر كمال توفيق (الدكتور) :

ــ « الامبراطور نقفور فوكاس ، واسترجاع الأراضي المقدسة » الاسكندرية ١٩٥٩ م ٠

٩٥ ــ عنان (محمد عبد الله) :

ــ « الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ٠

٩٦ ــ) تاريخ الجامع الأزهر » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ م ٠

٩٧ ــ « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » ، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٣١ م ٠

٩٨ ــ عطية محمود القوصي (الدكتور) :

ــ « بنو الكنز ــ دراسة تاريخية » ، رسالة ماجستير غير مطبوعة تحت اشراف الدكتور أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٠ ٠

٩٩ ـ « تجارة مصر فى البحر الأحمر ، منذ فجـــر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ، رسالة دكتوراة غير مطبوعة تحت اشراف د ٠ أحمد دراج ، جامعة القاهرة ١٩٧٣ م ٠

١٠٠ـ كارل بروكلمان :

ـ « تاريخ الشعوب الاسلامية » ، الجزء الثـانى ، بعنوان « الامبراطورية الاسلاميـــة وانحلالهـــا » الطبعـة الثانيـــة ، بيروت ١٩٥٤ ٠

١٠١ـ لين بول (ستانلى) :

ـ (سيرة القاهرة) ، ترجمة د ٠ حسن ابراهيم وآخرون ، القاهرة ١٩٥٠ م ٠

١٠٢ـ ماجد (عبد المنعم ـ الدكتور) :

ـ « نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر » ، القاهرة ٠

١٠٣ـ « الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليــه » ، القــاهرة ١٩٥٩ م ٠

١٠٤ـ « ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر » ، الاسكندرية ١٩٦٨ م ٠

١٠٥ـ متز (آدم) :

ـ « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فى جزئين ، القاهرة ١٩٤١ م ٠

١٠٦ـ المناوى (محمد حمدى ـ الدكتور) :

ـ « الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى » ، القاهرة ١٩٧٠ م ٠

١٠٧ـ مرقص سميكة (باشا) :

ـ « دليل المتحف القبطى ، وأهم الكنائس والأديرة الأثرية » فى جزئين ، طبع بمصر ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ م ٠

١٠٨ـ مرزوق (محمد عبد العزيز ـ الدكتور) :

ـ « الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية » ، القاهرة ١٩٤٢ م ٠

١٠٩ـ مشرفة (عطية مصطفى ـ الدكتور) :

ـ « نظم الحكم فى عصر الفاطميين » ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٨ م ٠

١١٠ـ مصطفى مسعد (الدكتور) :

ـ « الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى » ، القاهرة ١٩٦٠ م ٠

(د) المراجع الأجنبية :

1) Goitein (S. D.) :
— « Jews and Arabs ».
New York, 1955. W

2) « A Mediterranean Society, the Jewirh Communities of lde Arabs World as Portrayed in Documents of the Cairo Geniza ». Volume I, California, 1967.

3) Lean-Pool (S.) :
— History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

4) Mann (J.) :
— « The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliph ». Volume I, Oxford, 1920.

5) Stern (S.M.) :
— « Fatimid Decrees, Original Documenls from the Fatimid Cbancery ». London, 1964.

فهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقـــدمة البحث	٥
عرض لأهم مصادر البحث	١٥
الباب الأول	
« أهل الذمة والوظائف العـامة »	٢٥
— سياسة الخلفاء الفاطميين ازاء الموظفين من أهل الـــذمة	٢٧
— الوزراء والوسطاء من أهـل الذمة	٤٣
— أهل الذمة والدواوين الحـكومية	٧٣
— الأطباء من أهل الـذمة	٨١
— موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين	٨٧
البـــاب الثـــانى	
« أهل الذمة والحياة الاقتصـادية »	٩٣
— النشاط الزراعى لأهل الذمة	٩٥
— النشاط الصناعى لأهل الذمة	١٠٩
— النشاط التجارى لأهل الذمة	١٤٤
— دور أهل الذمة فى التجـارة الخـارجية	١٥٠
البـــاب الثـــالث	
«الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة»	١٥٧
(أ) الحياة الاجتماعية لأهل الذمة	١٥٩

— القبط واليهود فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ١٥٩
— المكانة الاجتماعية لكبار أهل الذمة . . . ١٦٨
— القيود الاجتماعية التى فرضت على أهــل الذمة ١٧٥
(ب) أعيــاد أهل الــذمة ١٨٦
— أعيــاد النصــارى ١٨٧
— أعيــاد اليهــود ٢٠٥
(ج) سياسة الفاطميين الدينية ازاء أهــل الذمة ٢١٣
— موقف الخلفاء الفاطميين ازاء رجـــال الكنيسة
القبطيــة ٢١٣
— القيود التى فرضت على دور العبادة لأهل الذمة
(الكنائس المسيحية ـ الأديرة ـ الكنائس اليهودية) ٢٢١

البـــاب الرابع

« علاقة الدولة الفاطمية بالدول المسيحية » وأثر

ذلك على أهــل الذمة ٢٤٧
— الفاطميون والبيزنطيون ٢٤٩
— الفاطميون وبلاد النوبة ٢٧٨
— الفاطميون والحبشـــة ٢٨٧
المـــلاحق ٢٩٣
قائمـــة المصــادر ٣٠٣

● صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د٠ عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليـو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د٠ محمد نعمـان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشـواطىء المصرية فى العصور الوسـطى
عليـة عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د٠ عبد المنعـم ماجـد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د٠ على بركـات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د٠ محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فـوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيـل راغب

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د . علي حسنى الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د . محمد نور فرحـات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. علي السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صـــابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمـد انيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيـق الطـــويل

٢٢ ـ نظـرات فى تاريخ مصر
جمـــال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيــق الطويل

٢٤ ـ الصـــحافة الوفدية
د. نجـــوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحـــديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمـــة : محمد فريد أبو حـــديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمـــة : محمد فريد أبو حـــديد

٢٩ ـ مصر فى عهـــد الاخشـيديين
د. ســيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفـــون فى مصر
د. حلمى أحمد شــلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شــكرى القـــاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خـــالد الــكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغـربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميـــد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمـع الاسلامى والغـرب جـ ٢
ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوسف
تأليف : د٠ سليمان صالح

٣٨ ـ فصـــول من تاريخ مصر الاقتصـــادى والاجتماعى فى العصر العثمـــانى
د٠ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصـة احتـلال محمد على لليونان
د٠ جميـــل عبيـد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د٠ عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأســاة
رفعت الســـعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمـد شفيق غبريال

٤٣ ـ رحلة فى عقـــول مصرية
ابراهيمعبـد العـــزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحيـــاة الاقتصادية فى مصر فى العصـــر العثمـــانى
د٠ محمـــد عفيفى

٤٥ ـ الحـــروب الصـليبية
تاليف : وليم الصـــورى
ترجمة : أ٠د٠ حســـن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د· عبد الرؤوف أحمد عمرو

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ·د· لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفلاح المصرى
تأليف : د · زبيدة عطا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : أ· د· عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د· سهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د· عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر

تأليف : د· الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك
د· محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى
تأليف : الدكتور محمد عفيفى

٥٥ ـ الحروب الصليبية ج ٢
ترجمة وتحقيق : د· حسن حبشى

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د· حلمى أحمد شلبى

٥٧ ـ مصر الاسلامية وأهل الذمة
د٠ سيدة اسماعيل كاشف

٥٨ ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة
د٠ ابراهيم عبد الله المسلمى

٥٩ ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر
د٠ عبد السلام عبد الحليم عامر

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى

٦١ ـ تاريخ الاسكندرية
أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ٣
لمعى المطيعى

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور
أ٠ د٠ سيد اسماعيل الكاشف

٦٤ ـ مصر وحقوق الانسان
د٠ محمد نعمان جلال

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د٠ سهام نصار

٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد

٦٧ ـ الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الاسرائيلية
ط٠ د٠ عبد العظيم رمضان

٦٨ ـ الحروب الصليبية ج ٣
ترجمة وتحقيق : أ. د. حسن حبشى

٦٩ ـ نبوية موسى ودورها فى الحياة
د. محمد أبو الاسعاد

٧٠ ـ أهـل الذمـة
أ. د. حسن حبشى

٧١ ـ مذكرات اللورد كليرين
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمر

٧٢ ـ رؤية الرحلة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١ م)
د. أمينة أحمد امام الشوربجى

٧٣ ـ تاريخ جامعة القاهرة
د. رؤف عباس حامد

٧٤ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
د. سمير يحيى الجمال

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٦٣٦/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4166 — 6

وها هو هذا الكتاب بين يدى القارئ الكريم كتاب جديد عن أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ألفه أستاذ جامعى متخصص هو الدكتور سلام شافعى محمود، يتناول تاريخ النصارى واليهود فى مصر فى عصر لعبوا فيه دورا هاما فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهو العصر الفاطمى الأول الذى امتد نحو قرن من الزمان (٣٥٨-٤٤٧ هـ/ ٩٦٩-١٠٥٥م) وقد تتبع هذا الكتاب الهام دور هذه الطبقة من أهل الذمة فى الوظائف العامة والحياة العامة، فتناول أداءهم الوظيفى، واحتفالاتهم، وكنائسهم وأديرتهم ومعابدهم ودورهم فى النشاط الزراعى والصناعى، وحياتهم فى القرى والمدن المصرية، ولغتهم القبطية ولهجاتها، وأسطورة تنصر المعز لدين الله الفاطمى. كما تناول علاقات الدوله الفاطمية بالدولة المسيحية وأثرها على أهل الذمة، والسفارات التى يتولى رئاستها كبار رجال الدولة من أهل الذمة. وأفرد فصلا لعلاقات الدولة الفاطمية ببلاد النوبة، والصلة بين الكنيسة القبطية فى مصر والكنيسة النوبية، وأختتم الكتاب بفصل عن العلاقة بين مصر وبلاد الحبشة، وبين الكنيسة القبطية وكنيسة الحبشة. ومدى تأثرها بموقف الخلفاء الفاطميين من الأقباط إيجابا وسلبا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرش